



تاريخ المزارع الحديث





منشورات جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الجزائر الحديث

تأليف الدكتور

عقيل لطف الله نمير

مدرس في قسم التاريخ

١٤٣٤-١٤٣٥ هـ
٢٠١٣-٢٠١٤ م

جامعة دمشق



محتويات الكتاب

الصفحة

١٩	مقدمة الكتاب
٢٤	المغرب الأوسط قبل التدخل العثماني
٢٤	تمهيد تاريخي
٢٦	دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية

الفصل الأول

التدخل الأجنبي في المغرب العربي

٣٣	١- التدخل الإسباني
٤١	٢- التدخل العثماني
٤١	٣- خروج

الفصل الثاني

الحياة السياسية للجزائر في العهد العثماني

٥١	١- مرحلة حكم البلبريات (١٥١٨-١٥٨٧ م)
٥٣	٢- أهم حكام مرحلة البلبريات
٥٣	١- خير الدين بربروس
٥٥	٢- أعمال خير الدين الداخلية والخارجية
٥٥	أ- أعماله الداخلية
٥٧	ب- أعماله الخارجية
٥٧	١- احتلال تونس من قبل خير الدين
٥٨	٢- أسباب الاحتلال
٥٩	٣- حملة شارلكان على تونس عام ١٥٣٥ م

٥٩	١- أسباب الحملة
٦٠	٢- الظروف الدولية التي ساعدت إسبانية على احتلال تونس
٦١	٣- انطلاق الحملة
٦٢	٤- نتائج الحملة
٦٣	٢- حسن آغا
٦٤	٣- حملة شارلكان على الجزائر
٦٤	١- أسباب الحملة
٦٧	٢- الاستعدادات العسكرية والمعنوية للحملة
٦٧	أ- الاستعدادات الإسبانية
٦٨	ب- الاستعدادات الجزائرية
٦٩	٣- أحداث الحملة
٧١	٤- أحداث المعركة وتطوراتها
٧٣	٥- الموقف الإسباني من الهزيمة
٧٤	٦- أسباب هزيمة شارلكان
٧٤	أ- من وجهة نظر الأوروبيين
٧٥	ب- من وجهة نظر المسلمين
٧٦	٧- نتائج حملة شارلكان
٧٩	٣- حسن باشا
٨٢	٤- صالح ريس وأعمال التي قام بها صالح ريس
٨٤	٥- محمد باشا
٨٤	٦- حسن باشا

٨٦	٧- محمد باشا بن صالح ريس
٨٧	٨- العلي علي
٨٨	- أعمال العلي علي
٨٨	١- الصراع العثماني - الإسباني على تونس
٩٠	٢- نتائج سقوط تونس بيد العثمانيين
٩٠	٣- معركة ليبانت
٩٠	أ- أسباب المعركة
٩١	ب- أحداث الحرب
٩٢	ج- نتائج المعركة
٩٣	٤- احتلال الإسبان لتونس عام ١٥٧٣
٩٤	٥- الموقف العثماني من إعادة احتلال تونس من قبل الإسبان
٩٥	٦- نتائج اخراج الإسبان من تونس عام ١٥٧٤م
٩٦	٢- مرحلة حكم الباشوات (١٥٨٧-١٦٥٩م)
٩٨	١- ثورة القولوغلية
١٠٠	٢- ثورة بلاد القبائل ١٦٤٣م
١٠٢	٣- مرحلة حكم الأغوات (١٦٥٩-١٦٧١م)
١٠٥	١- خليل آغا
١٠٦	٢- شعبان آغا
١٠٦	٣- اسماعيل آغا
١٠٦	٤- الحاج علي آغا
١٠٩	٤- مرحلة حكم الدايات (١٦٧١-١٨٣٠م)

الفصل الثالث

الحياة الإدارية للجزائر في العهد العثماني

الصفحة

- موظفو الإدارة الساميين ١٢٦
- التقسيمات الإدارية لإيالة الجزائر ١٣٣
- ١- بيلكية الجزائر وتسمى دار السلطان ١٣٣
- ٢- بيلكية التيطري ١٣٣
- ٣- بيلكية الغرب ١٣٤
- ٤- بيلكية الشرق ١٣٥
- القضاء الجزائري الشرعي ١٣٨
- العقوبات ١٣٩

الفصل الرابع

الحياة العسكرية للجزائر في العهد العثماني

- أولاً - الانتكشارية (الجيش البري) ١٤٦
- ١- أصول الانتكشارية القادمين إلى الجزائر ١٤٧
- ٢- عمليات التجنيد ١٤٧
- ٣- عدد الجيش وعمليات تنظيمه في التكنات ١٥١
- ٤- المراتب العسكرية ١٥٦
- أ- البولداش ١٥٧
- ب- وكيل الخرج ١٥٨
- ج- الأوضى باشي ١٥٩

د- البلوكباشي	١٥٩
هـ- يايا باشي	١٦٠
و- الأغا	١٦٠
ز- الأهجي	١٦١
ح- الخوجة	١٦٢
٥- المهام الموكلة إلى الجيش	١٦٣
١- المحلات	١٦٣
٢- مهمة الجيش في الحاميات	١٦٤
ثانياً - طائفة الرياس (الجيش البحري)	١٦٧
١- البحرية الجزائرية ونشأتها	١٦٧
٢- عدد السفن وأنواعها	١٦٩
٣- طاقم السفينة وتوزيع الغنائم	١٧٠
٤- بعض انجازات البحرية الجزائرية	١٧١
٥- نتائج النشاط البحري الجزائري	١٧٣

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية للجزائر في العهد العثماني

أولاً: الزراعة	١٨٢
١- الملكيات الزراعية الجزائرية في العهد العثماني	١٨٢
١- الملكية الخاصة	١٨٢
٢- ملكيات البايلك	١٨٣
٣- الأراضي المشاع	١٨٤

- ٤- أراضي الوقف ١٨٥
- ٥- أراضي الموات ١٨٦
- ٢- الظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري ١٨٦
- ١- الظروف الطبيعية ١٨٧
- أ- الجراد ١٨٧
- ب- الجفاف ١٨٧
- ج- المجاعات ١٨٨
- ١- مجاعة عامي ١٥٧٩-١٥٨٠م ١٨٨
- ٢- مجاعة عام ١٧٥٢م ١٨٨
- ٣- مجاعة عامي ١٧٨٧-١٧٨٩م ١٨٩
- ٤- مجاعة عام ١٧٩٤م ١٨٩
- د- الزلازل ١٩٠
- ١- زلزال عام ١٦٣٢م ١٩٠
- ٢- زلزال عام ١٧٥٥م ١٩٠
- ٣- زلزال وهران عام ١٧٩٠م ١٩٠
- ٤- زلزال الأطلس عام ١٨٢٥م ١٩٠
- هـ- الأوبئة القاتلة وخاصة الطاعون ١٩٠
- ١- وباء عام ١٦٥٤م ١٩١
- ٢- وباء عام ١٦٦٤م ١٩١
- ٣- وباء عامي ١٧٨٤-١٧٨٨م ١٩١
- ٤- وباء عامي ١٧٩٣-١٨٠٤م ١٩٢
- ٥- وباء عامي ١٨١٧-١٨١٨م ١٩٢
- ٢- الظروف المناخية وأنماط الحياة ١٩٤

١٩٤	٣- الاجراءات الإدارية المتخذة من قبل السلطات العثمانية
١٩٦	٤- تقنيات وأساليب العمل البدائية المستخدمة في الأعمال للزراعية
١٩٧	٥- المحاصيل الزراعية
١٩٧	١- الحبوب
١٩٨	٢- الأشجار المثمرة
١٩٩	٣- البقول والخضروات
١٩٩	٤- المزروعات ذات الطابع التجاري
٢٠٠	٥- الأشجار الحراجية
٢٠٠	٦- الثروة الحيوانية
٢٠١	ثانياً : الصناعة
٢٠٢	١- صناعة السفن
٢٠٤	٢- صناعة الأسلحة
٢٠٥	٣- الصناعات الغذائية
٢٠٥	أ- أفران الخبز
٢٠٦	ب- مطاحن الحبوب
٢٠٧	٤- صناعة تجفيف الفواكه
٢٠٨	٥- الصناعات التحويلية
٢٠٨	أ- مواد البناء
٢٠٨	ب- صهر المعادن
٢٠٩	ج- صناعة العملة
٢١١	٦- صناعة النسيج
٢١٢	٧- صناعة الجلود

٢١٢	٨- صناعة الشواشي وفن التطريز
٢١٤	٩- صناعة الحلي والأحجار الكريمة
٢١٤	خصائص الصناعة الجزائرية في العهد العثماني
٢١٥	أسباب انحطاط الصناعة الجزائرية
٢١٥	١- نقل الضرائب المفروضة على الحرفيين
٢١٦	٢- تناقص عدد الصناع والحرفيين
٢١٦	٣- المنافسة الأجنبية للمصنوعات الوطنية
٢١٧	٤- جمود النقابات المهنية
٢١٧	٥- الاعتماد على الأجانب في بعض الصناعات
٢١٧	٦- احتكار فئة وحيدة تقريباً لصناعة الحلي وصياغة الذهب
٢١٧	ثالثاً: التجارة
٢١٨	١- التجارة الداخلية
٢٢٠	٢- التجارة الخارجية
٢٢١	أ- الصادرات
٢٢٢	١- الصوف
٢٢٢	٢- الجلود
٢٢٣	٣- الشمع
٢٢٣	٤- الحبوب
٢٢٥	٥- المصنوعات الحرفية
٢٢٥	ب- الواردات
٢٢٦	١- النسيج ومواد الخياطة
٢٢٦	٢- المنتجات الغذائية

٢٢٧	٣- منتجات أخرى
٢٢٨	ج- الميزان التجاري
٢٣٠	مصادر الدخل
٢٣٠	أولاً - ضرائب ورسوم القطاع الريفي
٢٣٠	١ - ضرائب الملكيات الخاصة (العشور)
٢٣١	٢ - فوائد ورسوم أراضي البايك
٢٣١	أ- نظام الخماسة
٢٣١	ب- كراء الأراضي الزراعية
٢٣١	٣ - الضرائب المستحقة على أراضي العرش والمناطق الخارجة عن نفوذ السلطة
٢٣٢	العثمانية الحاكمة
٢٣٢	١- الغرامة
٢٣٢	٢- للزمة والمعونة
٢٣٣	أ- معونات بلاد القبائل
٢٣٣	ب- ضيفة الباي أو ما يعرف بضيفة الدنوش
٢٣٣	ج- الفرع أو البشارة
٢٣٤	د- خيل الرعية
٢٣٤	ثانياً - رسوم الجباية الخاصة بالحياة الاقتصادية في المدن
٢٣٥	١- الدنوش
٢٣٦	٢- عائدات بيت السال
٢٣٧	٣- عائدات مكان المدن
٢٣٧	٤- رسوم النقابات المهنية والحوانيت التجارية
٢٣٧	٥- الرسوم المفروضة على اليهود والنصارى

٢٣٨	٦- الفوائد المترتبة على أنظمة التعامل التجاري
٢٣٨	أ- الرسوم الجمركية
٢٣٨	ب- رسم الأسواق
٢٣٩	٧- المصادرات
٢٤٠	٨- الأرباح الناجمة عن النشاط البحري (الفرصة)
٢٤١	٩- الأتاوات والهدايا

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية للجزائر في العهد العثماني

٢٥٣	١- عدد السكان
٢٥٥	٢- التنظيم الاجتماعي لسكان المدن
٢٥٥	١- الطبقة التركية الحاكمة
٢٥٧	٢- طبقة الكراغلة (القولوغلية)
٢٥٩	٣- طبقة الحضرة (المغاربة أو البليديين)
٢٦٠	٤- طبقة الأندلسيين
٢٦١	٥- طبقة الأشراف
٢٦٢	٦- البرانية
٢٦٢	أ- جماعة بني ميزاب
٢٦٣	ب- جماعة البساكرة
٢٦٤	ج- جماعة الجيجلية
٢٦٤	د- جماعة الأغواط
٢٦٥	هـ- جماعة القبائل

٢٦٥	و- جماعة الزنوج
٢٦٦	٧- اليهود
٢٦٨	٨- الأجانب والأسرى الأوربيين
٢٧٠	٣- سكان الأرياف
٢٧٠	١- قبائل المخزن (قبائل متعاونون)
٢٧١	٢- قبائل الرعية (سكان خاضعون)
٢٧٢	٣- المجموعات السكانية الخارجة عن سلطة البايك
٢٧٣	٤- المجموعات السكانية المتحالفة

الفصل السابع

الاحتلال الفرنسي للجزائر

٢٨١	مقدمة
٢٨٢	١- أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر
٢٨٢	أ- الأسباب غير المباشرة (الأسباب البعيدة)
٢٨٢	١- الأسباب السياسية
٢٨٢	٢- الأسباب الاقتصادية
٢٨٣	٣- الأسباب الاستراتيجية
٢٨٤	٤- الأسباب المعنوية
٢٨٤	ب- الأسباب المباشرة (الأسباب القريبة)
٢٨٥	١- مسألة الديون أو الأسباب المالية
٢٩١	٢- ضربة المروحة (كشاشة للذباب)
٢٩٣	٢- الحصار الفرنسي للجزائر عام ١٨٢٧م

٢٩٤	٣- نتائج الحصار الفرنسي للجزائر
٢٩٤	١- نتائج الحصار على الجانب الجزائري
٢٩٥	٢- نتائج الحصار على الجانب الفرنسي
٢٩٥	٤- الموقف الفرنسي من الحصار
٢٩٦	١- الدوافع السياسية
٢٩٧	٢- الدوافع الاقتصادية
٣٠١	٥- بولينياك ومحمد علي
٣٠٧	٦- موقف الدول من المشروع الفرنسي- المصري
٣٠٧	١- موقف بريطانيا
٣٠٩	٢- موقف روسيا
٣٠٩	٣- موقف إسبانيا
٣٠٩	٤- موقف بروسيا
٣١٠	٧- الحملة الفرنسية على الجزائر
٣١٢	٨- موقف الدول من قرار الفرنسي بالتدخل المباشر لاحتلال الجزائر
٣١٢	١- موقف بريطانيا
٣١٤	٢- موقف بقية الدول
٣١٦	٩- احتلال الجزائر
٣١٩	١٠- إبطال الحملة وللحجومات الجزائرية
٣٢٠	١١- استسلام الجزائر
٣٢٩	الملحق
٣٥١	المصادر والمراجع
٣٥١	١- المصادر والمراجع العربية

أ- محفوظات وراء البحار في أرشيف مدينة إكس - إن - بروفانس في فرنسا

وأهم الوثائق المتعلقة بالكتاب هي: ٣٥١

١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٥

١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٦

١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٨

١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٨

١٥ ميكرو فيلم رقم ٣٠

١ ميكرو فيلم رقم ٧٠

ب- المصادر ٣٥١

ج- المراجع ٣٥٢

٢- المصادر والمراجع الأجنبية ٣٥٧

٣- المقالات العربية ٣٦٣

٤- المقالات الأجنبية ٣٦٥



مقدمة الكتاب

يمثل تاريخ الجزائر الحديث مرحلة مهمة من تاريخ العرب الحديث بصورة عامة، وتاريخ الامبراطورية العثمانية بصورة خاصة. وكانت إيالة الجزائر أول بلد، في المغرب العربي، خضع للسيطرة العثمانية، وقامت بدور إنساني في نقل العرب المسلمين المضطهدين على يد الإسبان، وذلك بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، والسنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي التي توافقت مع بداية السيطرة العثمانية في المغرب العربي.

واستمرت الجزائر في لعب هذا الدور بعد استقرار العثمانيين فيها إثر إعلان خير الدين بربروس تبعيته للسلطنة العثمانية في استانبول عام ١٥١٨م، وبقي العثمانيون في الجزائر أكثر من ثلاثمئة عام حيث لعبت البحرية الجزائرية دوراً هاماً في قيادة الهجمات على سواحل الدول الأوربية المتوسطية، وفرضت الأتاوات والرسوم على هذه الدول وسفنها المارة في البحر المتوسط الذي أصبح بحيرة عثمانية. وترجع أهمية هذا الكتاب في أنه يضع بين يدي الطالب الدارس والباحث المختص، دراسة مفصلة تشمل جميع جوانب الحياة المختلفة، وبخاصة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية لإيالة الجزائر. وذلك بالاعتماد على كتب الرحالة الأوربيين الذين أقاموا بالجزائر وعاشوا بين سكانها واطلعوا على جوانب حياتهم المعيشية، وعلى عدد كبير - أيضاً - من المخطوطات التي كتبها بعض سكان إيالة الجزائر واصفين بالتفصيل جوانب من تاريخها وأدبها في العهد العثماني. فقد تناولت هذه المصادر وحللتها واستخلصت منها المعلومات القيمة ووضعتها بين يدي الطالب والقارئ.

ونظراً لطول هذه الفترة وغناها بالأحداث التي مرت بها في جميع

المجالات ، قسمنا هذا المقرر - تاريخ الجزائر الحديث ، المخصص لطلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ - إلى مقدمة عامة وسبعة فصول ، تناولت في المقدمة العامة أوضاع المغرب الأوسط قبيل التدخل العثماني . ودرست في الفصل الأول التدخل الأجنبي وأسبابه في بلدان المغرب العربي عامة ، والجزائر خاصة ، وتمثل هذا التدخل بقوتين عظميتين هما : الدولة العثمانية ، وإسبانيا حيث حاولت كلا الدولتين فرض سيطرتها على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكانت بلدان المغرب العربي مسرحاً للمعارك التي جرت بينهما .

وتناولت في الفصل الثاني الحياة السياسية للجزائر في العهد العثماني ، حيث أفردت عنواناً جانبياً عن كل مرحلة من مراحل الحكم العثماني في الجزائر ، وهي :

أ- مرحلة حكم البلبايات (أمير الأمراء) التي امتدت بين عامي ١٥١٨-١٥٨٧ م ، ومثلت هذه المرحلة عصر القوة والاستقلال الداخلي بأسور الإيالة الجزائرية العثمانية .

ب- مرحلة حكم الباشوات بين عامي ١٥٨٧-١٦٥٩ م وتمثل مرحلة الحكام المرسلين من عاصمة السلطنة العثمانية لإدارة شؤون إيالة الجزائر .

ج- مرحلة الأغوات بين عامي ١٦٥٩-١٦٧١ م وتمثل مرحلة استيلاء انكشارية الجزائر على الحكم .

د- مرحلة الدايات وكانت أطول مرحلة للحكم العثماني في الجزائر ، حيث امتدت بين عامي ١٦٧١-١٨٣٠ م ، وتمثل مرحلة انتقال السلطة إلى طائفة الرياس لفترة من الزمن ثم عودتها من جديد إلى الانكشارية .

وقد تحدثت بالتفصيل عن أهم الأحداث والأعمال التي جرت في عهد كل حاكم من حكام هذه المراحل ، سواء كانت خارجية مثل هجمات الدول الأوروبية

على الجزائر، أم داخلية كالتمردات والثورات المحلية ضد سلطة الحكم العثماني

وأفردت الفصل الثالث للحديث عن الحياة الإدارية للجزائر في العهد العثماني حيث ركزت الحديث عن تقسيماتها الإدارية وعالجتها بالتفصيل ، وتحدثت عن الهيكلية الإدارية التي كانت تشكل الإدارة العثمانية في الجزائر ، كما أفردت فقرات خاصة للحديث عن النظام القضائي الجزائري في تلك الفترة، والعقوبات التي كانت تصدر بحق مرتكبي الجرائم .

وتناولت في الفصل الرابع الحياة العسكرية للجزائر في العهد العثماني حيث ركزت الدراسة على القسمين الرئيسيين للجيش العثماني ، وهما : الانكشارية (الجيش البري) ، وطائفة الرياس (الجيش البحري أو رجال البحر)، وقد عالجت في القسم الأول : أصول الانكشارية ، عمليات تجنيدهم وإرسالهم إلى الجزائر ، مراتب الجيش والوصول إليها ، وكيفية تشكيل الوحدات العسكرية وتنظيمها في الثكنات العسكرية .

أما فيما يتعلق بطائفة الرياس- التي يعود إليها بداية الوجود العثماني في الجزائر عن طريق الأخوين عروج وخير الدين بربروس - فقد درسنا كيفية تشكيل السفينة الحربية الجزائرية التي كانت تخرج لمهاجمة السواحل الأوروبية ، وتحدثنا عن قائد السفينة ورجاله وعن كيفية توزيع الغنائم ، وأعطينا فكرة مفصلة عن الصراع الذي كان يحدث بين الانكشارية وطائفة الرياس ، سواء على السلطة أم من أجل اقتسام غنائم الحرب ، ومنعكسات هذا الصراع على إيالة الجزائر في جميع المجالات .

وعالجت في الفصل الخامس الحياة الاقتصادية للجزائر في العهد العثماني، وذلك بمختلف نشاطاتها الزراعية والصناعية والتجارية ، وبينت

الظروف الطبيعية من زلازل وطماعون وآفات والتي كانت تؤثر على هذه النشاطات ، وعدم اتخاذ السلطات الحاكمة أي إجراء لحماية المتضررين . كما أهدت فقرة خاصة تناولت بها الحديث عن موارد إيالة الجزائر وميزانها التجاري ، وكذلك للحديث عن العملة المتداولة في العهد العثماني سواء كانت محلية أم أجنبية ، وختمت الفصل بالحديث عن أهم النفقات التي كانت تتكفل بها الحكومة الجزائرية مثل : الاتفاق على أعمال الخير كإنشاء المساجد والزوايا وسبل المياه والمدارس القرآنية والمنشآت الحربية ، وكذلك دفع رواتب الموظفين والجيش وغيرها من وجوه الإنفاق الحكومي .

ودرس في الفصل السادس الحياة الاجتماعية للجزائر في العهد العثماني من حيث عدد السكان والفئات الاجتماعية التي كانت تشكل المجتمع الجزائري . كما تناولت أيضاً سكان الريف الجزائري بمختلف فئاته وقبائله ومجموعاته السكانية سواء كانت قبائل مخزنية تابعة للحكومة العثمانية أم قبائل رعية خاضعة.

وتحدث في الفصل السابع عن الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠م ، وبيّنت أسبابه المباشرة وغير المباشرة التي أختلقتها فرنسا لفرض سيطرتها على الجزائر واحتلالها ، كما تناولت الحديث عن مواقف الدول الأوربية من المشروع الفرنسي قبل الاحتلال وبعده ، ثم بينت كيف استطاعت فرنسا أن تستغل الظروف الدولية وتهاجم الجزائر وتحتلها ، ووضعت بذلك نهاية لفترة طويلة من الاحتلال العثماني لتبدأ الجزائر فترة احتلال جديد يحمل أفكاراً وسياسة استعمارية جديدة .

كما يتضمن الكتاب قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها باللغات العربية والفرنسية والانكليزية ؛ لعلها تكون مرشداً لمن يريد الاستزادة

في المعلومات عن تاريخ الجزائر الحديث .
وأخيراً أتمنى أن يضيف هذا الكتاب مرجعاً هاماً إلى المكتبة العربية
عامة، ومكتبة الدراسات التاريخية خاصة ، وأن يحقق الفائدة المرجوة من تأليفه،
لتناوله حقبة هامة وأساسية من تاريخ العرب الحديث في شطره الغربي ، وأن
يكون معيناً للطلاب والدارسين في تفهم هذه الحقبة الزمنية . وعلى أمل تجديد
هذا الكتاب على ضوء معطيات ووثائق جديدة لم يتسن لي الاطلاع عليها في
الوقت الحاضر.

والله من وراء القصد

الدكتور

عقيل لطف الله نمير

مقدمة عامة

المغرب الأوسط قبيل التدخل العثماني

تمهيد تاريخي:

يبدأ تاريخ المغرب العربي الحديث بثلاث ظواهر :

- ١- أزمة سياسية واجتماعية واقتصادية .
 - ٢- الغزو الأجنبي المتمثل في الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى، والغزو الإسباني للمغربين الأدنى والأوسط .
 - ٣- رد الفعل الوطني على الغزو الأجنبي ؛ والذي تمثل في المغرب الأقصى بنهوض وطني ، في حين تمثل في الجزائر بالاستتجاد بالدولة العثمانية التي ساعدت البلاد على التخلص من الغزو الإسباني وحصر خطره في مدينة وهران، إلى أن تم تحريرها وإخراج الإسبان من الجزائر عام ١٧٩٢ م ، في حين حرر العثمانيون تونس قبل قرنين ونصف من الزمن وذلك في عام ١٥٧٤م .
- تحققت الوحدة السياسية للمغرب العربي على يد المسلمين ، وذلك بعد فتحهم له في القرن السابع الميلادي ، واتخذ الإسلام من ولاية إفريقيا (تونس) عاصمة لمركزه فيما أصبح يعرف بالمغرب الإسلامي .
- ولكن ما لبثت الفوضى أن انتشرت في هذه المنطقة منذ أواخر العصر الأموي ، ووجدت الحركات المناوئة للدولة الأموية ومن بعدها الدولة العباسية ملاذاً آمناً ، الأمر الذي زاد الوضع خطورة ، مما دفع العباسيين إلى السماح

بقيام دولة الأغلبية لمجابهة هذا الخطر .

استطاع الموحدون أن يحققوا وحدة المغرب العربي ثانية بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين ، وأصبح المغرب الأوسط مسرحاً للصراع بين القوى السياسية الحاكمة في المغربين الأدنى والأقصى ، وكان المغرب الأوسط مقارنة مع جيرانه ، منطقة يغلب عليها الطابع الريفي ؛ ولا يحتوي إلا عدداً قليلاً جداً من المراكز الحضرية الموجودة في بعض مدنه^(١).

بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة الموحدية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، ووضعت معركة العقاب (لاس نافاس دوتولوسا) ، التي جرت بين الإسبان والموحدين عام ١٢١٢ م ، حداً لقوة الموحدين وكانت بداية النهاية لسقوطها .

وبوفاة الخليفة السعيد عام ١٢٤٨م انهارت دولة الموحدين نهائياً ؛ وقام على أنقاضها ثلاث دول في المغرب العربي هي :

١- الدولة الحفصية في المغرب الأدنى (تونس) .

٢- الدولة المرينية في المغرب الأقصى (مراكش) .

٣- دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط في منطقة تلمسان .

كانت دولة بني عبد الواد أضعف هذه الدول ، حيث لم يكن لها الأساس الاقتصادي والتاريخي الذي كانت تتميز به الدولة الحفصية ، ولا القوة العددية التي كانت تتميز بها الدولة المرينية ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن لأي من هذه الدول الثلاث قوة دولة الموحدين ، وكانت تعد دولاً من الدرجة الثانية ، ويسعى كل منها إلى السيطرة على مناطق الدولة الموحدية والعمل على إحيائها^(٢).

تعرضت الدول الثلاث لتغيرات جذرية في أوضاعها السياسية قبل القرن الخامس عشر الميلادي ، ففي مراكش نجح الوزير الوطاسي محمد الشيخ في تولي السلطة بعد وفاة السلطان عبد الحق آخر أمير مريني ، ولكنه لم يفرض

سلطنته على فاس، في حين رفض الأمازيغ في جبال الأطلس ، وأصحاب الطرق الصوفية الخضوع له ، وسيطر البرتغاليون على سبتة وطنجة وأغادير وغيرها من الموانئ المغربية الواقعة على المحيط الأطلسي .

أما في الجزائر فقد تلاشت سيطرت بني عبد الواد عن معظم المناطق ، وذلك باستثناء تلمسان والقسم الغربي من البلاد ، وفي تونس انحصرت سلطة الحفصيين على مدينة تونس والمناطق المجاورة لها في حين سيطرة القبائل البدوية على بقية المناطق الساحلية والداخلية^(٣) .
إذاً اقتصر حكم هذه الأسر الثلاث على عواصم المدن كتونس ومراكش ، باستثناء بني عبد الواد الذين أسسوا دولتهم في مدينة تلمسان .

دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية:

وهي دولة أمازيغية قامت في غرب المغرب الأوسط ؛ وذلك في أواخر النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي وعاصمتها تلمسان .
وبنو عبد الواد أو عابد الوادي من زناته ، القبيلة الأمازيغية الكبيرة التي تقطن في جميع مناطق المغرب العربي ، غير أن معظم رعاياها كانوا يقيمون في المغرب الأوسط حتى أنه حمل اسمهم فيقال عنه وطن زناته^(٤) .
استقر بنو عبد الواد في غرب الجزائر منذ أيام الموحدين ، وقد ربط هؤلاء مصيرهم بمصير دولة الموحدين القوية ؛ وكانوا مخلصين لهم وبشكل خاص في عهد الفوضى التي سادت هذه الدولة ، وذلك عندما شن ابن غانية^(٥) غاراته على المغربين الأكنى والأوسط في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي ، واستطاعت تلمسان أن تصمد وتدافع عن نفسها في وجه هذه الغارات ، وأصبحت بالتالي قاعدة المغرب الأوسط وذلك بعد خراب المناطق والمدن المحيطة بها^(٦) .

نتج عن ربط مصير بني عبد الواد بالدولة الموحدية أن نالوا حظوتهم ،

وحصلوا على امتيازات أرضية وسياسية . ولم يؤثر ضعف الموحدين على بني عبد الواد + بل على العكس تمكنوا من توطيد أقدامهم في منطقة تلمسان في غرب الجزائر ، واستطاع زعيمهم أن يؤسس دولة حكمت حوالي ثلاثة قرون من ١٢٣٥ - ١٥٥٤ م . وذلك في ظل هذه الظروف الصعبة التي عاشها المغرب العربي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

بدأ حكم هذه الدولة في عهد يغمراسن الطويل (١٢٣٥ - ١٢٨٣ م) في الوقت الذي تفككت فيه دولة الموحدين وضعفت ، واستقل بنو هود بالأندلس وأقام بنو حفص دولتهم في المغرب الأدنى وجزء من المغرب الأوسط . استفاد يغمراسن من هذه الظروف وأعلن قيام دولته في تلمسان ، وذلك في الوقت نفسه الذي بدأ فيه الصراع بين بني مرين والموحدين للسيطرة على المغرب الأقصى (٧).

كانت العلاقات بين القوي الجديدة - التي قامت على أنقاض دولة الموحدين - معقدة ومتقلبة ، الأمر الذي جعل مركز مؤسس دولة بني عبد الواد حرجاً في ظل هذه الظروف للأسباب التالية :

١- وقوف يغمراسن إلى جانب الموحدين في صراعمهم ضد المرينيين للسيطرة على المغرب الأقصى .

٢- لصطدام يغمراسن بمطامع الحفصيين الرامية للسيطرة على المغرب الأوسط.

٣- خشية يغمراسن من مهاجمة المرينيين الأقوياء بعد الانتصار على الموحدين لأنه وقف إلى جانبهم ضد المرينيين .

يبدو أن الظروف التي رافقت قيام مملكة بني عبد الواد كانت في الظاهر قوية ، فالمرينيون والموحدون منعمون في الصراع على المغرب الأقصى ، والحفصيون بعيدون عن هذا الصراع ، وكان على رأس هذه الدولة زعيم قوي

وصفه ابن خلدون بقوله "... من أشد هذا الحي بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وجلالة وأعرفهم بمصالح قبيلته وأقوام كاهلاً على خمل الملك واضطلاعاً بالتدابير والرياسة مهدت له بذلك آثار قبل الملك وبعده... (٨٠) .

ولكن الظروف الداخلية التي عاشها المغرب الأوسط عامة ، والظروف التي عاشتها مملكة عبد الواد خاصة لم تكن تساعد على قيام دولة قوية نظراً للأسباب التالية :

- أ- الفوضى الناجمة عن القبائل العربية على إثر غزوات بني هلال وسليم .
- ب- المنافسة التي تعرضت لها مملكة بني عبد الواد من بعض بطون زناته ، وخاصة بني توجين وآل منديل .
- ج- لم تساعد الظروف الطبيعية على ذلك ، فالجزء الغربي من المغرب الأوسط الذي قامت فيه الدولة هو عبارة عن منطقة ملائمة للحياة الرعوية .
- د- عدم وجود مساحات زراعية واسعة يمكن أن تشكل قاعدة لاقتصاد زراعي هام يدعم الدولة ، فالمساحات الزراعية كانت محدودة وغالباً ما كانت تتعرض لغارات الجوار .

هـ- دخول بغمراسن مؤسس الدولة ومنذ البداية في صراع مع جيرانه المرينيين في الغرب والحفصيين في الشرق ، وكذلك مع أقاربه من بطون زناته كآل توجين وآل منديل ، الأمر الذي انعكس على الدولة في النهاية وجعلها محصورة بين فكي كماشة من الغرب المرينيين ومن الشرق الحفصيين ، فالصراع مع هاتين الدولتين من جهة ، ومع بطون زناته من آل توجين وآل منديل من جهة أخرى ، كان يحدد الخطوط العامة لهذه الدولة ولتاريخها منذ تأسيسها وحتى سقوطها (٩) .

مرت دولة بني عبد الواد بمرحلتين يفصل بينهما الاحتلال المريني (١٣٣٧ - ١٣٥٩ م) . تميزت المرحلة الأولى بالصراع مع الحفصيين في

تونس الذين تحالفوا مع آل توجين وآل منديل أعداء يغمراسن ، وقد هاجم الحفصيون مركز دولة عبد الواد في تلمسان مما دفع حاكم الدولة للهروب إلى الصحراء ، عندئذ اضطر بنو عبد الواد إلى الاعتراف بالسيادة الحفصية على البلاد . وفي المرحلة الثانية : حدث صراع في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بين بني عبد الواد والمرينيين ، حيث استطاع هؤلاء السيطرة وبقوا فيها حتى عام ١٣٥٩ م .

إن الصراعات والحروب مع هذه الدولة الضعيفة نسبياً مقارنة مع جيرانها، طبع تاريخها بكل جوانبه بطابع سيء ، فكلتا الدولتين الحفصية والمرينية كانت تتنازع في السيطرة على المغرب الأوسط وتحاولان القضاء على هذه الدولة .

عمل أبو سعيد عثمان (١٢٨٣-١٣٠٤ م) على توقيع هدنة مع المرينيين لكي يصفو له الجو في محاربة أعدائه من آل توجين وآل منديل ، إلا أن المرينيين نقضوا المعاهدة الموقعة معهم من قبل بني عبد الواد ، وهاجموا تلمسان عاصمة الدولة ، وأحاطوها بسياج من الأسوار وأقاموا على مقربة منها مدينة أسموها المنصورة .

عمل سلاطين دولة بني عبد الواد الذين خلفوا أبا سعيد عثمان - وهم : أبو زيان ١٣٠٤-١٣٠٨ م ، وأبو حمو موسى ١٣٠٨-١٣١٨ م ، وأبو تاشفين ١٣١٨-١٣٣٧ م ، على تطوير مركز الدولة الداخلي ضد أي هجوم محتمل ضد تلمسان، ولكن دون جدوى ، فقد تمكن المرينيون من متابعة للهجوم ، واحتلوا تلمسان عام ١٣٣٧ م ، وبقيت تحت سيطرتهم مدة عشر سنوات ، حيث تم تحريرها عام ١٣٤٨ م ، وذلك بعد أن فشل المرينيون بالمغرب الأدنى على حساب الحفصيين ، ثم عادوا واحتلوا احتلال تلمسان بين عامي ١٣٥٢ - ١٣٥٩ م حتى استطاع بنو

بعد الوالد من تحريرها للمرة الثانية من الاحتلال المريني .
أعاد أبو حمو الثاني تأسيس الدولة بعد تحريرها ، وأطلق عليها اسم الدولة
الزيرية . وظلت هذه الدولة تتحمل ثقل الضغط المريني الذي أخذ يتبع سياسة
جديدة تقوم على ما يلي :

أ- الإيقاع بين أفراد الأسرة الزيرية الحاكمة .

ب- التقرب من بعض أمراء هذه الأسرة ومحاولة تنصيبه على العرش .

بمعنى آخر اتبع المرينيون سياسة الفتنة بين أفراد الأسرة الزيرية الحاكمة ،
وذلك من أجل إضعافها وتنصيب أمير مولى لهم وينور في تلك السياسة المرينية .
ولم تتخلص الدولة الزيرية من الخطر المريني إلا في أوائل القرن الخامس عشر
لميلادي . وذلك عندما نجح السلطان الزياني أبو مالك عبد الواحد (١٤١١-١٤٤٠ م)
بمطاردة المرينيين حتى فاس ، ولكن توسيع دولته في الجزائر الشرقية أثار حفيظة
الحفصيين الذين كانوا يسيطرون على جزء من مناطقه . الأمر الذي دفعه إلى فتح
باب الصراع معهم . هاجم الحفصيون تلمسان - بقيادة أبو فارس الحفصي
(١٣٩٤ - ١٤٣٤ م) - ودخلوها عام ١٤٢٤ م ، ونصبوا عليها أميراً زينياً مولياً
لهم (محمد المعروف بابن الحمرة) الذي ما لبث بعد أن وطد قدمه في تلمسان
رفض النفوذ والسيادة للحفصية .

نلاحظ هنا أن الحفصيين اتبعوا الأسلوب المريني القائم على إثارة
للدسائس والمنافسات بين أفراد البيت الزياني الحاكم ، الذي نتج عنه الكثير من
الفوضى والفتن داخل الدولة . واستمر الأمر على هذا المنوال حتى ظهور
الإسبان والأتراك في بداية القرن السادس عشر . حيث دخلت البلاد في دوامة
للصراع الأجنبي حتى تمكن الأتراك من القضاء على الدولة الزيرية الحاكمة في
تلمسان في عام ١٥٥٤ م .

هوامش المقدمة العامة (تمهيد تاريخي)

- ١- فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث ، من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ٥ .
- 2- Julien . Charel André : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1952, p: 132.
- ٣- رافق ، عبد الكريم : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، طبعة جديدة ومنقحة ، دمشق ١٩٩٣م ، ص ٧٤ .
- ٤- ابن خلدون : كتاب العبر والخبر في أيام العجم والبربر ومن نوي السلطان الأكبر، بيروت ١٩٨٣م ، الجزء السابع ، ص ٤ .
- ٥- ابن غانية : هو علي ابن غانية حاكم جزر البليار ، كان كأسلافه موالياً للمرابطين . بدأ هجومه على المغرب الأوسط عام ١١٨٤ م واحتل غالبية مدنه الكبرى ، ولكن الموحدين هزموه عام ١١٨٨ م . وبعد وفاته استلم الحكم أخوه يحيى الذي استأنف الهجوم على المغرب الأوسط في عام ١٢٠٠م . وذلك بالتعاون مع عرب هلال وسليم ، ودمر عدداً كبيراً من مدنه، واستمر الدمار والاحتلال حتى عام ١٢٢٣ م .
- ٦- فارس ، محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، مطبوعات جامعة دمشق ٢٠٠٢-٢٠٠٣م ، ص ١١٥ .
- ٧- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ٨ .
- ٨- ابن خلدون : المصدر نفسه ، ص ١٦٢ .
- ٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ٩ .
- ١٠- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ١١٧ .



الفصل الأول التدخل الأجنبي في المغرب العربي

١ - التدخل الإسباني

ارتبط التدخل الإسباني في المغرب العربي بالأوضاع العامة التي كانت تعيشها إسبانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، والأوضاع التي كانت تعيشها الدويلات التي قامت في المغرب العربي على أنقاض دولة الموحدين، والصراع الدامي الذي حدث فيما بينها من أجل توسيع ممتلكات كل منها على حساب الأخرى، وما رافق ذلك من خراب للمؤسسات والبنية التحتية في كل دولة من هذه الدول .

ساعدت الحرب التي خاضها الإسبان مع العرب المسلمين على ظهور الروح القومية الإسبانية، واتسمت هذه الروح بالسمة الدينية، الأمر الذي انعكس على السياسة الإسبانية الخارجية تجاه المغرب العربي .

كان تدخل الإسبان في هذه المنطقة - بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢م - امتداداً لحربهم ضد العرب المسلمين، وأطلق عليها الإسبان اسم حرب الاسترداد، ففي نظر هؤلاء كان المغرب العربي نقطة انطلاق العرب المسلمين لاحتلال إسبانيا، وسنداً عسكرياً قوياً ساعد المسلمين في تأخير إسبانيا عن قيامها بحرب الاسترداد لقرون عديدة، وذلك على الرغم من حالة التمزق والضعف التي كان يعيشها العرب المسلمون في إسبانيا .

كانت إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تتألف من مملكتي قشتالة وأرغون، وكانت الأولى بحكم موقعها الجغرافي تتجه نحو المحيط الأطلسي، أما بحكم صراعها مع العرب المسلمين كانت تهتم بالأحداث التي تجري في المغرب العربي .

أما مملكة أرغون فبحكم سيطرتها على جزر الباليار وصقلية فكانت تتجه نحو البحر المتوسط، وكانت تسعى إلى الحصول على طريق بحري آمن بين اشبيلية وصقلية الغنية بالحبوب، ولتحقيق هذا الهدف كان لابد لها من السيطرة على نقاط ارتكاز على سواحل إفريقيا الشمالية^(١١).

ساعد زواج فرديناند ملك أرغون من ايزابيل ملكة قشتالة على تحقيق الوحدة الإسبانية، وخاصة في مجال السياسة الخارجية للبلاد. وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي أصبح لدى إسبانيا الموحدة مشاغل خارجية عديدة وفي أكثر من منطقة في العالم وخاصة في: المغرب العربي، القارة الأمريكية، إيطاليا وكذلك في القارة الأوروبية وخاصة بعد تسلم ملك إسبانيا شارل حفيد فرديناند وايزابيل تاج الامبراطورية الجرمانية المقدسة باسم شارلكان.

أما على صعيد المغرب العربي فقد ساعدت الظروف السائدة هناك - إلى حد بعيد - على رسم السياسة الإسبانية الخارجية، وخاصة فيما يتعلق بتدخلها في هذه المنطقة.

فألضعف الشديد للدول الثلاث الحاكمة في المغرب العربي، ساعد على انهيار السلطة السياسية وانتشار الفوضى في هذه الدول، وبشكل خاص في المغرب الأوسط حيث تقلصت سلطة بني عبد الواد، وخرج المغرب الأوسط من يدهم، وتمزقت دولتهم بسبب المنافسات بين أفراد الأسرة الحاكمة ودسائس البلاط، وتدخل الجوار - الحفصيون في تونس والمرينيون في المغرب الأقصى - في شؤون هذه الأسرة الحاكمة، واستقلت المناطق الواقعة بين مملكة بني عبد الواد والممتلكات الحفصية وتجزأت بفعل الأحداث الداخلية، كضعف السلطة الزيرية والحفصية، وفوضى القبائل المحلية، ونشاط الطرق الصوفية، فاستقلت واحات فكك، وخضعت بلاد القبائل لسلطان كوكو، وسيطر حاكم قسنطينة الحفصي على المنطقة الواقعة بين عنابة والقل؛ وذلك بعد أن تخلص من

السيطرة الحفصية . وعرفت الموانئ الواقعة بين جربه والمغرب الأقصى نوعاً من الجمهوريات المستقلة اختلفت بالنشاط التجاري وممارسة (القرصنة) في البحر المتوسط وضد السواحل الأوربية . ويرجع نشاط (القرصنة) على سواحل المغرب العربي إلى الأسباب التالية :

١- الأزمة السياسية والاقتصادية التي نجمت عن هجرة قبائل بني هلال وسليم من الجزيرة العربية والفوضى التي رافقتها , وقد اشتدت هذه الأزمة في القرن الرابع عشر الميلادي .

٢- هجرة العرب المسلمين إلى المغرب العربي واستقرارهم في مولته وتشجيعهم للجهاد (القرصنة) لسببين : تحقيق الربح , والانتقام من الإسبان الذين طردوهم من الأندلس (١٢).

ويمكننا أن نلخص أسباب التدخل الإسباني في المغرب العربي في النقاط التالية:

١- الأسباب الدينية: يظهر الطابع الديني للتدخل الإسباني في المغرب العربي في وصية الملكة إيزابيل لابنتها التي قالت بها " إنني أرجو الأميرة ابنتي جين والأمير زوجها فيليب وأمرهما بإطاعة وصايا أمنا المقدسة للكنيسة طاعة تامة , وأن يكونا حماة والمدافعين عنها حسبما يقتضي واجبهما , وألا يكفا عن متابعة فتح شمال إفريقيا ومحاربة الكفار في سبيل الإيمان " (١٣) . وقد ولدت هذه الأسباب مع الصراع بين الإسبان والمسلمين وذلك خلال حروب الاسترداد , واشتدت مع دعوات الباباوات المتكررة إلى محاربة المسلمين , وذلك بعد سقوط القسطنطينية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلادي , ووصول الأتراك إلى أسوار البندقية في أواخر القرن نفسه .

لعب بعض رجال الدين الإسبان من المتعصبين وعلى رأسهم الكاردينال كزيمينيس دوراً هاماً في إعداد هذه الحملات الإسبانية , وكان لثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٠١ م وهجمات البحارة المسلمين (القراصنة) على الجزر

والسواحل الإسبانية ، دور هام في تزويد المتعصبين الإسبان بالحجج اللازمة ، خاصة وأن هذه (القرصنة) كان يشجعها ويسهم بها مسلمو الأندلس المطرودون أو المهاجرون من إسبانيا (١٤) ، للتدخل المباشر وإعداد الحملات العسكرية لاحتلال المغرب العربي .

٢- الأسباب الاستراتيجية: وتتلخص برغبة إسبانيا في تأمين اتصال بحري بين سواحلها والسواحل الإيطالية والجزر التابعة لها في البحر المتوسط ، وذلك لضرورات أمنية وسياسية، الأمر الذي دفع الإسبان إلى توسيع عملياتهم العسكرية والانقضاض للسيطرة على سواحل المغرب العربي ذات الموقع الاستراتيجي وللهام للمشاريع الإسبانية المستقبلية (١٥) .

٣- أسباب تتعلق بالأوضاع الداخلية لدويلات المغرب العربي ، والتي شجعت المطامع الإسبانية للبدء بالهجوم ، ونستشهد هنا بما كتبه سكرتير ملك إسبانيا عام ١٤٩٥ م إذ قال : "إن البلاد ، يقصد المغرب العربي ، في حالة يئس وكأن الله يريد أن يمنحها لجلالتكم ... " (١٦) .

٤- يرى البعض أن التدخل الإسباني ومهاجمة المغرب العربي هو رد فعل على الهجمات البحرية التي كان يقوم بها البحارة (القرصنة) الأندلسيون المطرودون، وذلك ضد السفن والسواحل الإسبانية ، الأمر الذي دفع الإسبان إلى العمل على مد حروبهم نحو المغرب العربي ومتابعة العرب المسلمين المطرودين من الأندلس ، وذلك للحد من هجماتهم وإحاقهم بالأضرار بالسفن والسواحل الإسبانية ؛ وكذلك بالسكان القاطنين على هذه السواحل (١٧) ، الأمر الذي دفع هؤلاء السكان إلى رفع شكوى للملكة أعلنوا فيها عدم قدرتهم على دفع الضرائب، وذلك لأنهم لا يستطيعون القيام بالتجارة مع الخارج أو العمل على زراعة أراضيهم بسبب هجمات المسلمين المتكررة والقادمة من سواحل المغرب العربي (١٨) .

٥- يضاف إلى هذه الأسباب بعض الحجج التي اعتمد عليها المؤرخون الأوروبيون ونلخصها بما يلي : إن العرب المسلمين لا يعدون خروجهم من إسبانيا نهائياً ، وقد أخفوا سلاحهم ، وتظاهروا بالهزيمة ، وأخذوا ينتظرون الفرصة المواتية لينقضوا من جديد من شمال المغرب العربي على إسبانيا ، ويعملوا حرباً جديدة ضد المسيحية ، لذلك لا بد من التدخل الإسباني في المغرب العربي من أجل القضاء على ما يسمى (عش القرصنة) القائم هناك (١٩) .

تركز التدخل الإسباني في المغربيين الأكنى والأوسط ، بعد معاهدة تورديسيلاس عام ١٤٩٤ م التي عقدت بين إسبانيا والبرتغال برعاية البابا ، حيث كان من نصيب إسبانيا المناطق الواقعة إلى الشرق من بنون دوفيليز (حجر بانيس) للمدينة المغربية على ساحل البحر المتوسط .

وكانت عملية التدخل الإسباني في المغرب العربي من تصميم الملكة إيزابيل والكاردينال المتعصب كزيمينس ، حيث كلفت الملكة اثنين من أتباعها للقيام بمهمة استطلاعية سرية في مملكة تلمسان ، ونجحا في مهمتهم ، وجمعا المعلومات اللازمة لمشروع الغزو الإسباني الذي كان يجري الإعداد له ، وقام الكاردينال كزيمينس بإرسال أحد البنادقة العارفين بالسواحل الجزائرية ، حيث جمع معلومات مهمة عن الساحل الجزائري وبيّن مواطن الضعف فيه .

وبناء على المعلومات المتوفرة قررت الملكة مهاجمة تلمسان ، وأعدت قوة كبيرة بقيادة حاكم غرناطة الذي تعهد بتمويل الحملة بنفسه ، إلا أن موت الملكة عام ١٥٠٤ م أخر الحملة التي كانت حلم حياتها ، ولكنها لم تنس أن تطالب بوصيتها، لابلتها جين وزوجها فيليب . متابعة احتلال المغرب العربي كما ذكرنا فيما سبق.

كان فرديناند زوج إيزابيل يرغب في تأجيل الحملة حتى تنتهي الحرب الإيطالية ، ولكن انتصاره على الفرنسيين من جهة ، ومهاجمة بحارة المرسى

الكبير في الجزائر عام ١٥٠٥م لعدد من الموانئ الإسبانية من جهة أخرى ، دفع فرديناند إلى التراجع عن قرار تأجيل الحملة وإعلان تنفيذها فوراً .

اختار فرديناند دون ديبجو فرنانديز دو كور دوقاً قائداً للحملة ، ووضع تحت تصرفه جيشاً قدر بأكثر من عشرة آلاف رجل . ولعبت الظروف الطبيعية دوراً هاماً في نجاح الحملة ، فقد أخرجت الرياح إنطلاق الأسطول الإسباني نحو الجزائر لأكثر من أسبوع ، وكان هذا التأخير في مصلحة الحملة لأن الجزائريين كانوا على علم بقدمها ، وجاؤوا من جميع القرى المجاورة ، واتخذوا الاستعدادات اللازمة لمواجهتها ، ولما تأخر الأسطول الإسباني ظنوا أن العدو عدل عن مشروعه ، الأمر الذي جعلهم يعودون إلى قراهم بعدما تركوا قوة صغيرة فقط على الساحل .

بالمقابل استفاد قائد الحملة الإسباني من هذه الظروف الطبيعية لاستكمال استعداداته ، وانطلقت الحملة بعد هدوء الأحوال الجوية ، ووصل الأسطول الإسباني في العاشر من أيلول من عام ١٥٠٥ م ورسا على بعد فرسخ من ميناء المرسى الكبير الجزائري.

قاومت حامية الميناء الأسطول الإسباني مقاومة ضارية ولكن دون جدوى وقتل قائدها ، ولم تستطع الهجمات التي شنها الأهالي الذين جاؤوا من القرى المجاورة وقف العدوان ، الأمر الذي دفع حامية الميناء إلى الاستسلام . فقد استسلمت للمدينة وتوقف بعدها النشاط المعادي وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين فرديناند وصهره فيليب (٢٠) . بعد وفاة فيليب في أواخر أيلول من عام ١٥٠٦ م استأنف الإسبان نشاطهم العسكري ضد الجزائر ، وفي عام ١٥٠٧ م وقعت حادثة كادت أن تقضي على الوجود الإسباني في المغرب الأوسط ، فقد قام قائد الحامية الإسبانية في المرسى الكبير ، ومعه عدداً كبيراً من رجال الحامية ، بمهاجمة قرية مسرخين ، فهزعت القرى المجاورة وحامية

وهران الجزائرية لإنقاذ البلدة ، وكان السحاب القوة الإسبانية صعباً للغاية ، ولم ينج إلا عدد قليل من أفرادها ومن بينهم قائد الحامية، ولم يستغل الجزائريون هذا النصر الكبير وفشلوا في استرداد المرسى الكبير (٢١).

استأنف الإسبان نشاطهم بعد هذه الهزيمة عام ١٥٠٨ م بقيادة بدرو نافارو الذي استطاع الاستيلاء على بنون دوفيليز (حجر باديس) الواقعة على سواحل المغرب الأقصى الشمالية ، وفي عام ١٥٠٩ م هاجم وهران ونجح في اقتحام أسوارها بسهولة ، وذلك لخيانة القائدين المسؤولين عن حراستها (٢٢) .

وقد ارتكب الإسبان أعمالاً وحشية في المدينة ، وتحت إشراف الكاردينال كزيمينيس نفسه ، حيث قتلوا ما يقارب أربعة آلاف ، وأسروا ثمانية آلاف آخرين وتمت إبادة جماعية للأطفال والنساء والشيوخ ، وقد تركت هذه المجزرة صدى عميقاً في المغرب الأوسط ، حيث طلب العلماء والشعراء والأدباء النجدة من ولاية ورؤساء وأمرأه القبائل للتقدم لإنقاذ وهران (٢٣) . وتم تعيين دون ديجو قائدأ عاماً على وهران والمرسى الكبير وتلمسان ، وبدل ذلك على تصميم الإسبان على احتلال تلمسان ، إلا أن النفقات الباهظة التي يتطلبها الاحتلال حالت دون ذلك ، واضطرت إسبانيا في حينها إلى الاكتفاء بوهران والمرسى الكبير .

استولى الإسبان في عام ١٥١٠ م على بجاية ونهبوها ونقلوا جميع ما فيها من تحف وهدايا إلى إسبانيا ، ودمروا ما تحتويه المدينة من قصور رائعة ومعالم عمرانية تاريخية ، وفي العام نفسه احتلوا طرابلس ، وخضعت موانئ عديدة للسيادة الإسبانية ودفعت الجزية لهم مثل : تكيس ، نلس ، شرشال ، ومستغالم ، وفي عام ١٥١١ م تبعتها مدينة الجزائر نفسها ، فقد توجه وفد من المدينة بزعامة شيخها سالم التومي إلى بجاية التي جعلها بدرو نافارو مركزاً لقيادته ، وأبرم صلحاً تعهد فيه الخضوع للنفوذ الإسباني والإفراج عن جميع

الأسرى الأوربيين . وفي عام ١٥١٢ م توجه الوفد إلى إسبانيا لتقديم الولاء والخضوع للملك الإسباني فرديناند ، وقدم الوفد إحدى الجزر هدية للعدو وهي عبارة عن صخرة مواجهة لميناء الجزائر ، وأصبحت منذ ذلك التاريخ شوكة تهدد الجزائر .

كان فرديناند يفكر بالاستيلاء على تونس لإغلاق المتوسط بوجه الأتراك . إلا أنه لم يستطع تحقيق أهدافه في هذه الفترة وذلك للأسباب التالية :

١- عدم إمكانية التوسع الإسباني في المغرب العربي إلا في فترة السلم في القارة الأوربية .

٢- معاداة الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا للمشاريع الإسبانية .

٣- أدى اندلاع الحرب الإيطالية عام ١٥١١ م إلى توقف النشاط الإسباني في المغرب العربي .

وأضاعت إسبانيا بذلك فرصة توطيد قدمها في المغرب العربي (٢٤) . وهكذا استطاع الإسبان بفترة قصيرة أن يحتلوا المراكز الساحلية الرئيسية للمغرب الأوسط ، مستغلين حالة التمزق والضعف السائدين فيه ، لكن احتلالهم لهذه المراكز كان ناقصاً لأنه اقتصر على الساحل . ولم يتوغلوا في الداخل لدعم هذا الاحتلال للأسباب التالية :

أ- اهتمام السياسة الاستعمارية الإسبانية بمناطق أخرى من العالم .

ب- انشغال إسبانيا بحرب إيطاليا ، وخاصة بعدما انتخب ملك إسبانيا شارل إمبراطوراً للإمبراطورية الجرمانية المقدسة .

ج- تدخل العثمانيون بزعامة آل بربروس لإنقاذ المغرب الأوسط من التهديد الإسباني (٢٥) ، حيث جاء هذا التدخل لصالح المغرب الأوسط ، وذلك في الوقت نفسه الذي شكل فيه ضربة شديدة عقدت موقف المراكز الإسبانية ووضعت حداً للتدخل الإسباني .

٢ - التدخل العثماني:

لم يكن التدخل العثماني في شمال إفريقيا أمراً متوقفاً أبداً ، ولم يكن في حسيان أحد حتى الدولة العثمانية نفسها ، يضاف إلى ذلك أن هذا التدخل لم يكن نتيجة خطة وتصميم عثمانيين ، بل كان نتيجة مبادرة اشترك فيها أهل الجزائر والأخوان عروج وخير الدين بربروس ، كرد فعل منهما على التدخل الإسباني.

كانت إمارات الغزاة على الساحل الجنوبي الغربي للأناضول قد وجهت نشاطها ضد الممالك المسيحية في جزيرة قبرص وروموس ، وضد جزر بحر إيجه وشبه جزيرة المورة ، وتقدم هؤلاء الغزاة بعد ذلك في مياه البحر المتوسط حتى وصلوا إلى الجزائر وتونس ، وحولوها إلى قواعد بحرية لانطلاق حملاتهم ضد الإسبان الذين طردوا العرب المسلمين بعد سقوط غرطانة آخر معاقلهم في إسبانيا عام ١٤٩٢ م . وضد الممتلكات الإسبانية في إيطاليا ، وعرف هؤلاء في التاريخ الأوربي باسم (القراصنة)^(٢٦) .

عروج:

كان بحاراً تركياً ويشار إليه ، أحياناً ، بلقب بربروس ، أي ذو (اللحية الحمراء) ، وهناك اختلاف حول أصل عروج وإخوته الثلاث خير الدين ، اسحق ، والياس ، حيث قيل : إن والدهم كان جندياً تركياً في قوة الاحتلال العثماني في جزيرة منبلي (منبليين) فهم مسلمون بالأصل^(٢٧) ، وقيل : إن والدهم كان خزافاً يونانياً ، وأنهم اعتنقوا الإسلام في وقت متأخر^(٢٨) .

وقد نشط عروج في الغزو منذ سن مبكرة ، وكان (للقراصنة) في منطقة الأرخبيل تقاليد عريقة طبعت بالعلابع الديني ، وخاصة بعد الاستيلاء على القسطنطينية من قبل العثمانيين في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ،

ووصولهم إلى أبواب البندقية في أواخر القرن نفسه ، وقتل الياس في أحد المعارك البحرية ضد الأوربيين ، وأسر عروج ، وعمل مجدفاً على سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا ومركزهم في جزيرة رودس ، وتحرر عروج من الأسر (٢٩) .

وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي تنتقل نشاط عروج وأخويه من المتوسط الشرقي إلى المتوسط الغربي فجأة ، وربما يعود سبب هذا الانتقال إلى مضايقة السلطات العثمانية لهم ، وإلى ضعف التجارة الأوربية في تلك المنطقة ، وذلك بعد سقوط أغلب المراكز التجارية الإيطالية البندقية والجنوية بيد العثمانيين ، الأمر الذي دفع (القراصنة) إلى البحث عن مسرح آخر لنشاطهم ، وبدا المغرب العربي ، حيث الفوضى في الداخل ، وتمر عبره تجارة البحر المتوسط ، المكان المفضل لنشاط (القرصنة) (٣٠) .

عندئذ مارس عروج نشاطه البحري على شواطئ المغرب ، وأصبح له ولأخوته ثماني سفن في عام ١٥١٠ م ، واتفق عروج مع حاكم تونس الحفصي على جعل جزيرة جربة قاعدة له ، وقبل الحاكم الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن (١٤٩٤ - ١٥٢٦ م) هذا العرض مقابل خمس الغنائم ، وسمى عروج نفسه قائد الجزيرة (٣١) .

بدأت سمعة عروج تكتشر بسبب شجاعته وجراته ، حيث عمل على نقل عدد كبير من الأندلسيين إلى المغرب العربي فكثر أتباعه وتضخم أسطوله بسبب الغنائم الكثيرة التي حصل عليها نتيجة النشاط البحري (القرصنة) .

لفت عروج بشجاعته أنظار سكان الموانئ الجزائرية المحتلة من قبل الإسبان أو الواقعة تحت تهديدهم ، ففي عام ١٥١٢ م استنجد به حاكم بجاية الحفصي وطلب مساعدته لطرد الإسبان من المدينة ، فلبى عروج النداء ، وحاصر المدينة من جهة البحر ، في حين حاصرها حاكم المدينة من جهة البر ،

لكن عروج فشل في إخراج الإسبان من المدينة وقطعت يده ، فاضطر أخوه خير الدين إلى إعادته إلى تونس .

أعاد عروج حصار المدينة ثانية عام ١٥١٤ م ولكنه فشل للمرة الثانية ، واضطر إلى فك الحصار بسبب عدة ظروف محلية وخارجية ، لكنه لم ييأس وعرض عن فشله في بجاية باحتلال جيجل على الساحل الجزائري ، حيث اتخذها قاعدة له بدلاً من جريه بسبب خلاف حدث بينه وبين السلطان الحفصي الذي امتنع عن إمداده بالبارود عندما كان يحاصر بجاية ^(٣٢) ، وكان معظم سكان جيجل يمارسون النشاط البحري (القرصنة) ضد السواحل والسفن الأوروبية وبشكل خاص الإسبانية.

استفاد عروج من نقل مقر إقامته إلى جيجل في الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط ، ولا سيما الصراع بين سلاطين القبائل من بني العباس وآل القاضي سلاطين كوكو . اتبع عروج سياسة حكيمة لجمع الأنصار من سكان المنطقة حوله ، حيث بدأ يمد القبائل المجاورة لجيجل بالحبوب وخاصة وقت المجاعة ، وأخذ يتدخل في الصراع بين هذه القبائل ، ووقف إلى جانب بني العباس المنتصرين في هذا الصراع وذلك عام ١٥١٦ م .

خلق موت الملك الإسباني فرديناند موقفاً جديداً في المغرب الأوسط ، واضطرب وضع المراكز الإسبانية ، وبدأ سكان الموانئ الخاضعة لنفوذ الإسبان يفكرون بأن الوقت قد حان للتحرر من نفوذهم ، في وقت كان وجود الإسبان في القلعة المواجهة لمدينة الجزائر يحول دون قيامهم بالنشاط البحري (القرصنة) أو استقبال السفن.

استغل أهل مدينة الجزائر - بزعامة سالم التومي - وفاة ملك إسبانيا وطلبوا مساعدة عروج ليخلصهم من القلعة وذلك في عام ١٥١٦ م ^(٣٣) . فلبى عروج نداء أهل المدينة بشكل سريع واحتل في طريقه إليها شرشال ، واستقبل

لدى وصوله إلى مدينة الجزائر استقبال الفاتحين ولكنه فشل في تحرير القلعة الإسبانية المنيعه ، لذلك زال في نظر أهالي المدينة سبب وجوده بينهم ، بعد أن نقلت وطأة جلوده وبدؤوا يتصرفون كأنهم في بلد أجنبي (٢٤).

بدأت المؤامرات تحاك لطرده عروج من الجزائر ، واشترك فيها زعيم المدينة سالم التومي وأهل المدينة الذين تحالفوا مع الإسبان ، لكن عروج كشف المؤامرة وسبقهم ، وقتل سالم التومي ، فنادى الجند به سلطاناً .

احتفظ عروج بالجزائر على الرغم من المؤامرات التي حاكها أولاد سالم التومي الذين لجؤوا إلى الإسبان ، واستخدم أقصى الوسائل لتوطيد مركزه في الجزائر ، وأحبط حملة إسبانية جاءت لتحرير الجزائر عام ١٥١٦ م وقضى على معظم أفرادها ، وبعد أن وطد مركزه تابع توسعه على حساب الإمارات المجاورة لها ، فاستولى على مليانة والمدية وتونس (٢٥) .

في عام ١٥١٧ م نظم عروج المناطق التي استولى عليها في المغرب الأوسط ، وتقاسم حكمها مع أخيه خير الدين ، فأخذ عروج مدينة الجزائر والمناطق الواقعة إلى الغرب منها ، وأعطى لأخيه مناطق للغرب الأوسط للشرقية (٢٦) .

استغل عروج ضعف السلطة الزيانية بسبب المنازعات الأسرية ، ونقمة أهل تلمسان على السلطان أبو حمو لخضوعه للنفوذ الإسباني ، فقرر احتلالها بحجة القضاء على هذا النفوذ فيها ، واحتل في طريقه إليها قلعة بني راشد ، ووضع فيها أخاه اسحق على رأس فرقة من الجند ليحفظ مؤخرته وخط رجعتة . نجح عروج في احتلال تلمسان عام ١٥١٧ م (٢٧) ، وبدلاً من أن ينسب عليها أميراً زيانياً أعلن نفسه سلطاناً عليها واحتفظ بالسلطة ، وحاول القضاء على الأسرة الزيانية فقتل مايقارب سبعين شخصاً من أفرادها (٢٨) .

لم يكتب عروج من التوسع في المغرب الأوسط ، بل توغل في الجزء الشرقي من المغرب الأقصى حتى وصل إلى وجدة ، وبدأ مباحثات مع الأسرة

الوطاسية الحاكمة في فاس للتعاون معهم ضد الإسبان ، وهناك اختلاف بين المؤرخين حول صحة قيام هذا التحالف ، ففي حين يؤكد المؤرخون الإسبان عقد هذا التحالف ، فإن المؤرخ الفرنسي دي غرامون ينفيه (٣٩) .

أقلقّت النجاحات التي حققها عروج الإسبان ، الأمر الذي دفعهم إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة دون مارتين نجحت في قطع الطريق بين تلمسان والجزائر ، وقتلت اسحق أخ عروج ، ثم توجه حاكم وهران الإسباني المركزي دوكو ماريس على رأس حملة عسكرية نحو تلمسان بمساعدة جماعة من أنصار الزيانيين وحاصر عروج في تلمسان .

قاوم عروج الحملة الإسبانية مقاومة ضارية وكان يأمل الحصول على مساعدة من الوطاسيين في فاس ، لكن أهالي تلمسان ثاروا ضده ، وأجبروه على اللجوء إلى المشور ، فهرب عروج من تلمسان مع عدد قليل من جنوده حاملاً معه كنوز آل زيان ، واخترق صفوف الإسبان ، ووصل إلى الساحل على أمل وصول المساعدات من أخيه خير الدين . فاكشف الإسبان ذلك وأرسلوا قوة عسكرية لمطارنته ، لكنه عمل على نثر الكنوز التي كانت معه على الطريق كي يشغل مطارديه ، لكن سياسته لم تجديه نفعاً ، ولحق الإسبان به وحاصروه في قلعة قديمة ، حيث قتلوه وجميع الرجال الذين كانوا معه عام ١٥١٨ م عن عمر يناهز الأربعة والأربعين عاماً (٤٠) .

لم يؤد مقتل عروج إلى انهيار البناء الذي وضع أساسه ، لأنه عرف في حياته يستغل الانقسامات التي كان يعيشها المغرب الأوسط ، ونجح في توجيه ضربة أدت إلى وقف النفوذ الإسباني ، وأضعفت الأسرة الزيانية ، ونجح في رسم الطريق لخلفائه من بعده من أجل إقامة نظام جديد في المغرب الأوسط ، ولُتبت عروج بسياسته التي اتبعها أنه أبعد نظراً من الإسبان ، لأنه احتل أكبر قسم من داخل البلاد ، في الوقت الذي ركز فيه الاحتلال الإسباني في الاستيلاء على المناطق الساحلية ، أي ما يعرف في التاريخ «سياسة الاحتلال الناقص» .

هوامش الفصل الأول

1- Maura , G., : La question au Maroc au point du vue espagnole , Paris 1911, p. 1.

٢- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٤ .

٣- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٢١ .

٤- فارس : المرجع نفسه , ص ١٢٢ .

٥- صبحي , حسن : محاضرات في تاريخ إفريقيا الشمالية الحديث والمعاصر , الإسكندرية ١٩٧٥م , ص ١٠ .

٦- الجيلالي , عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام , الجزء الثاني , بيروت ١٩٨٣م , ص ١٩٥ .

٧- ابن خلدون : المصدر نفسه , ص ١٠ .

8- Grammont, H.- D., M Histoire d'Alger sous la domination turque , Paris 1931 , p. 3-4 .

٩- الميللي , مبارك بن محمد الهلالي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث , الجزء الثالث , بيروت ١٩٦٤ , ص ٢٠ .

10- Martin , Claud : Histoire de l'Algérie française , Paris 1963 , p. 43.

١١- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٩ .

١٢- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ١٩٨ .

١٣- المرجع نفسه , ص ١٩٩ .

14- Martin : op, cit., p. 44.

١٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٢٧ .

١٦- رافق : المرجع نفسه , ص ٧٦ .

١٧- غزوات خير الدين ، تصحيح نور الدين عبد القادر ، تونس ١٩٣٤ ، ص ١.

18- Haëdo , D., : Les rois d'Alger , Tunis 1968 , p. 3-4.

١٩- نور الدين ، عبد القادر : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ، قسنطينة ١٩٦٥م ، ص ٤٢ .

٢٠- ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الجزء الثاني ، تونس ١٩٦٣ ، ص ١٠ .

٢١- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٣-٢٤ .

٢٢- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ١٣٢ .

٢٣- رافق : المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

24- Moulaud, Goud : L'Algérie sous les turques , Paris . sans date , p. 38.

٢٥- فارس : تاريخ الجزائر ، ص ٢٦ .

٢٦- رافق : المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

٢٧- يذكر الدكتور محمد خير فارس في كتابه تاريخ الجزائر أن عروج استقبل عدداً من أعيان تلمسان ، حيث طلبوا مساعدته ضد أبي حمو ، وكان على رأس الناقمين أخوه أبو زيان الذي سجن في المشور ، وأرسل من سجنه يستنجد بعروج .

٢٨- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ١٣٤ .

29- Grammont : op, cit.; p. 25.

30- Grammont : op, cit.; p. 28.



الفصل الثاني

الحياة السياسية للجزائر في العهد العثماني

إن وصول العثمانيين إلى المغرب العربي عامة ، والجزائر بشكل خاص ، تم عن طريق رجال البحر من آل بربروس ، فلم يخض العثمانيون أية معركة حاسمة في سبيل إخضاع هذه البلاد ، على عكس المعارك الفاصلة التي خاضوها لإخضاع المشرق خاصة : معركة مرج دابق في سورية عام ١٥١٦م ، ومعركة الريدانية في مصر عام ١٥١٧م .

كانت الجزائر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي دولة ضعيفة وممزقة داخلياً ، وتعاني من الخطر الإسباني الذي عمل بدوره على زيادة التمزق الداخلي باحتلاله عدداً من الموانئ الساحلية الواقعة على البحر المتوسط ، لكن وصول عروج إلى الجزائر ، وإعادة تنظيم البلاد ووضع أسس جديدة لإدارتها أعطاهما شيئاً من القوة . تابع خير الدين بربروس سياسة أخيه ، بعد وفاته في إحدى المعارك التي خاضها ضد الإسبان ، وقامت هذه على عاملين أساسيين شكلا قوة الجزائر ومنعتها في المستقبل وهما :

١- القضاء على الفوضى الداخلية التي كانت سائدة على أغلب مناطق الجزائر .

٢- توحيد القوى الأجنبية لمواجهة الخطر الأجنبي .

وكان لابد من الاستعانة بالدولة العثمانية لتحقيق هذين الهدفين ، وبذلك دخلت الجزائر وبمبادرة من خير الدين بربروس فلك الامبراطورية العثمانية دون أي جهد حربي أو دبلوماسي ، ولهذا السبب اعتبرت الجزائر ولاية ممتازة ، ومنح خير الدين - أول حاكم عثماني - لقب بكربك وهو لقب عظيم في الدولة العثمانية ، ويعني آخر أصبح خير الدين نائباً للسلطان العثماني ، من هنا أطلق على الجزائر اسم نيابة .

تعاقب رجال البحر على إدارة هذه النيابة أكثر من نصف قرن ، وطبعوا بطابعهم تاريخ الجزائر العثمانية ، وبقيت طيلة فترة الوجود العثماني التي امتدت على ثلاثة قرون ونيف ، وظلت تشكل قوة بحرية يتوقف نشاطها وموردها الأساسيين على البحر .

أعطى الحكم العثماني للجزائر اسمها الحديث الذي بدأت تعرف به منذ ذلك التاريخ ، بعدما كان يقتصر فقط على المدينة التي أصبحت مركز الحكومة العثمانية ، وأدخل العثمانيون مفهوم الحدود السياسية إلى المغرب العربي ، كما ورسموا لدولها التي احتلوها حدودها الحالية ، والتي لم تخضع للتغيير منذ ذلك الوقت .

كانت إيالة الجزائر متجاوبة مع سياسة الأتراك العامة تجاه البلدان التي دخلت تحت حكمهم ، والتي كانت تتصف بعدم تدخل الأتراك في الحياة الخاصة لهذه البلاد الخاضعة لهم ، الأمر الذي جعل للحكم التركي ظاهرياً أكثر منه حقيقياً ، ولا سيما في المناطق البعيدة عن مركز الحكم ، بحيث كانت السلطة المركزية للدولة شبه معدومة تقريباً ^(١) . فالجزائر لم تشذ عن قاعدة الحكم الظاهري ، نظراً لبعدها عن مركز الامبراطورية العثمانية ، والتي كانت تزداد ضعفاً مع مرور الزمن ولا سيما إثر معاهدتي كارلوفيتش عام ١٦٩٩ م التي وقعتها مع النمسا والبندقية وبولونيا ، ومعاهدة استانبول التي وقعتها الدولة العثمانية مع روسيا عام ١٦٧٠ م ، حيث أجبرت الدولة العثمانية فيهما على للتخلي عن جزء هام من أراضيها ^(٢) .

أمام هذا الوضع الدولي أصبحت إيالة الجزائر شبه دولة عسكرية ، ولا يربطها بالسلطنة العثمانية سوى رباط ديني ^(٣) ، واعتبر حكامها الدايات أنفسهم حلفاء للباب العالي ، أصبحوا لا يتعاملون مع الدول الأوروبية باسم السلطان العثماني ، وإنما كانوا يتصلون مباشرة معها ^(٤) . وتبلور استقلال إيالة الجزائر

سياسياً عن الدولة العثمانية في إلغاء منصب الباشا عام ١٧١١ م الذي فرضه فيما مضى سلاطين الباب العالي على الدايات ، وذلك عندما ما منع الداي علي شاوش مبعوث الباب العالي إبراهيم باشا من دخول الجزائر (٥) .

مر الحكم العثماني في إيالة الجزائر بتقلبات وتغيرات عديدة ، وذلك بسبب الصراع الداخلي بين طائفة الرياس والانكشارية ، وكان للوضع الدولي والحروب التي خاضتها الدولة العثمانية أثرهما السلبي على إيالة الجزائر ، لكننا لا نعرف إلا القليل عن هذه التقلبات بسبب ندرة المصادر التي تناولتها ، باستثناء فترة حكم الدايات وخاصة السنوات الأخيرة من حكمهم .

يقسم تاريخ الحكم العثماني لإيالة الجزائر إلى أربع مراحل ، وتتميز كل مرحلة بسمات خاصة فيها وذلك حسب قوة حكمها وعلاقتها مع الدولة العثمانية ، ويمكن توضيح هذه المراحل وفق ما يلي :

١- مرحلة حكم البلربايات (١٥١٨-١٥٨٧م):

وتسمى أيضاً مرحلة حكم البكلربكوات ، وكلمة بكلربك تعني بك البكوات ، أي أمير الأمراء ، وتعتبر من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية .

وعندما منح السلطان العثماني سليم الأول هذا اللقب لخير الدين بربروس ، أراد أن يجعل منه دلالة مميزة لخير الدين وللولاية التي يحكمها ، والتي أصبحت قاعدة للعثمانيين في غرب البحر المتوسط أشرفت على إخضاع باقي شمال المغرب العربي ؛ ما عدا المغرب الأقصى ، وظلت مسؤولة عن حكم إيالة تونس وطرابلس الغرب حتى نهاية عهد البكلربكوات عام ١٥٨٧ م .

وقد تميزت هذه المرحلة من الحكم العثماني في الجزائر بما يلي :

١- عاصرت هذه المرحلة حكم سلاطين الإمبراطورية العظام مثل : سليم الأول وسليمان القانوني ، وعصر قوة الدولة العثمانية وعنفوانها ، ولعب حكمها

دوراً هاماً ومميزاً في قوة الدولة العثمانية كرجال بحر مرهوبي الجانب في القسم الغربي من الامبراطورية (المغرب العربي) .

٢- نظم هؤلاء الحكام (البكربكوات) ، بحكم كونهم من كبار رجال البحر ، القوة البحرية العثمانية ، وكانوا سبباً في تفوقها البحري في غرب البحر المتوسط .

٣- تميزت العلاقة التي تربط هؤلاء الحكام بالسلاطين العثمانيين بأنها علاقة تحالف وليست علاقة تبعية ، وقد رسموا السياسة العثمانية في غرب المتوسط وعملوا على تنفيذها (١) .

٤- عمل هؤلاء الحكام على إدخال ولاية طرابلس لغرب وتونس في فلك الامبراطورية العثمانية ، وبقيت تحت إدارتهم حتى نهاية عهدهم في عام ١٥٨٧م .

٥- جمع أغلب البكربكوات بين منصب البكربك ومنصب قبطان باشا ، الذي كان يتولى أمر الاتصال بين السلطان العثماني والنيابات الثلاث في المغرب العربي (٢) .

٦- حكم البلربايات إيالة الجزائر بصورة مباشرة دون التقيد بأوامر الديوان العسكري الذي أصبح بعدهم الحاكم الفعلي للجزائر .

٧- سيطر البلربايات على الفرقتين العسكريتين الأساسيتين في الجزائر ، وهما فرقة الانكشارية (القوات البرية) وطائفة الرياس (القوات البحرية) .

٨- وصل الحكم العثماني في هذه المرحلة إلى حدود دول الجوار ، المغرب الأقصى (مراكش) من جهة الغرب وتونس من جهة الشرق ، كما توغل الأتراك في عهد صالح ريس جنوباً في الصحراء حتى واحات ورقلة ونقرت (٣) .

٩- بدأ حكم البلربايات بحكم خير الدين بربروس منذ إعلان تبعيته للدولة العثمانية عام ١٥١٨ م ، وانتهى بمغادرة العلي إيالة الجزائر إلى استانبول عام ١٥٨٧ م ، حيث أصبح قائداً عام للأسطول العثماني (٤) .

أهم حكام مرحلة التهربات

١- خير الدين بربروس :

لم يكن خير الدين بربروس مجرد قبطان بحري عثماني ، بل كان مؤسس دولة، وشخصية قوية من أبرز شخصيات التاريخ العثماني ، بوصفه مؤسس إيالة الجزائر ومنظم القوة البحرية العثمانية ، وقبطانها في القرن السادس عشر الميلادي^(١٠).

ولتأكيد ذلك نستشهد بما قاله جون وولف في كتابه الجزائر وأوروبا... إذا كان عروج هو المؤسس الحقيقي لجماعة (القراصنة)، فإن خير الدين هو السياسي والمنظم العسكري والقلاد الذي أسس الإيالة الجزائرية العثمانية...^(١١). كان خير الدين نائباً لأخيه عروج في مدينة الجزائر ، عندما كان الأخير يخوض المعركة ضد الإسبان في نلمسان عاصمة الزيبانيين ، ولما وصل نبأ وفاة عروج نادى الجند بأخيه خير الدين خلفاً له ، فأصبح وضع خير الدين حرجاً للأسباب التالية :

- أ- مقتل أفضل المحاربين الذين ذهبوا مع أخيه عروج لمحاربة الإسبان .
 - ب- ابتعاد حلفاء خير الدين عنه إثر وفاة أخيه وفشله أمام الإسبان .
 - ج- خوف خير الدين من ثورة المناطق المجاورة لمدينة الجزائر .
 - د- تخوفه من الإسبان الذين تحالفوا مع الأهالي في المناطق التي احتلوها في الجزائر الأمر الذي شكل خطراً على وجود خير الدين .
- بعد هذا الموقف الحرج فكر خير الدين بالعودة إلى استانبول عاصمة السلطنة العثمانية ، لكن الظروف كانت تعمل لمصلحته حيث أكتفى الإسبان بهذا النصر على قوات عروج ، وعادت قواتهم إلى إسبانيا .
- وإذا كان الخطر الخارجي قد زال فإن الخطر الداخلي ظل قائماً (١٢) ، وتمثل في انتفاضات المدن الساحلية الجزائرية مثل : تنيس وشرشال وغيرها

ضد الوجود العثماني ، كما ثارت بلاد القبائل بزعامة أحمد القاضي ، عندئذ أدرك خير الدين أنه ليس باستطاعته مجابهة الخطر الداخلي والخارجي بقواه الخاصة ، الأمر الذي دفعه إلى إعلان تبعيته للدولة العثمانية ، وذلك للأسباب التالية:

- ١- خوفه من أهالي الجزائر الميالين للإسبان .
 - ٢ حاجة خير الدين للبارود والسلاح .
 - ٣- نقل الصراع من نطاق ضيق إلى نطاق أوسع وأشمل ، بمعنى نقل الصراع إلى نطاق دولي ، حيث كان يسيطر على عالم البحر المتوسط في تلك الفترة قوتان هما الدولة العثمانية وإسبانيا (١٣) .
 - ٤- أدرك خير الدين بأنه سيواجه مشكلات صعبة في إدارته للبلاد ، نظراً لسيطرة النظام القبلي على حياة السكان .
- كان إعلان خير الدين التبعية للدولة العثمانية عام ١٥١٨ م مفاجأة سارة للسلطان العثماني سليم الأول الذي لم يتردد في قبوله ، لأنه سيضع بين يديه ، ودون عناء أو كلفة ، شواطئ البحر المتوسط الغربية . واعترافاً منه بهذا الجميل منح السلطان سليم الأول خير الدين لقب بلرباي ، وهو أعظم ألقاب السلطة العثمانية ، إذ لم يكن يتمتع به حتى تاريخه سوى ثمانية أشخاص فقط في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وأرسل السلطان سليم لخير الدين قوة عسكرية مؤلفة من ٢٠٠٠ جندي انكشاري ، وكلفه بتجنيد عدد مماثل من المتطوعين وملحهم امتيازات الانكشارية.

كانت هذه القوة بمثابة أول جيش نظامي لإيالة الجزائر العثمانية يشكل قوة الأوجاق . استفاد خير الدين من الدعم المعنوي للسلطنة العثمانية أكثر من الدعم المادي ، فاستطاع بذلك توطيد مركزه في المغرب الأوسط ، وتغلب على المشكلات الداخلية والخارجية التي واجهته ، واستفاد أيضاً من الوضع الدولي

العام المتمثل بانشغال الإسبان في ممتلكاتهم الإيطالية ودخولهم الحرب ضد فرنسا، ومن مشكلات الإصلاح الديني في ألمانيا ، بالإضافة إلى نجاح الزحف العثماني باتجاه أوروبا وتهديده لأسوار فيينا عاصمة النمسا عام ١٥٢٩ م . ونظراً للدور الهام الذي لعبه خير الدين في تأسيس إيالة الجزائر العثمانية ورسم سياستها الداخلية والخارجية ، وجعل منها دولة مرهوبة الجانب في نظر الدول الأوروبية ، لا بل في نظر السلطنة العثمانية نفسها ، لذلك لابد من عرض أهم الأعمال الداخلية والخارجية التي قام فيها ، وانعكاساتها على الوضع الداخلي والخارجي لإيالة الجزائر والسلطنة العثمانية .

٢- أعمال خير الدين الداخلية والخارجية :

أ- أعماله الداخلية :

تمكن خير الدين بربا روس بفضل القوة العسكرية المنظمة ، التي أرسلها له السلطان العثماني سليم الأول ، من القضاء على الفتن والمخاطر الداخلية التي تعرض لها بعد مقتل أخيه عروج على يد الإسبان ، ويمكننا أن نلخص هذه الأعمال بالنقاط التالية :

١- نجح خير الدين في إحباط مؤامرة دبرها سكان مدينة الجزائر بالتعاون مع أحمد ابن القاضي سلطان كوكو أحد زعماء بلاد القبائل ، وكان هدف هذه المؤامرة حرق أسطول خير الدين وقتل الأتراك .

٢- هزم خير الدين الحملة الإسبانية التي قادها هوجو دومونكاد نائب الملك في صقلية ، والتي نجحت في النزول قرب مدينة الجزائر عند مصب الحراش . وكان قوام الحملة يتألف من ٤٠ سفينة و ٥٠٠٠ جندي .

٣- حارب خير الدين سلطان تونس الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن (١٤٩٤-١٥٢٦ م) الذي يعتبر مدينة الجزائر تابعة له ، وأن (عروج وخير الدين) كانا مجرد حكام لهذه المدينة باسمه . حيث استغل السلطان

الحفصي موت عروج وأرسل قوة لاسترجاع الجزائر ، عندئذ خرج خير الدين على رأس قوة تركية لمواجهة قوات السلطان الحفصي المتحالفة مع رجال ابن القاضي سلطان كوكو ، حيث كان هؤلاء ينتظرون الوقت المناسب للقضاء على خير الدين .

وجد خير الدين نفسه بين نارين : السلطان الحفصي من جهة ، وقوات ابن القاضي من جهة أخرى ، فخسر خير الدين الحرب وتعرضت قواته لمجزرة حقيقية ، ولم ينج منها إلا هو وقلة من رجاله من الموت ، واضطر خير الدين إثر هذه الهزيمة ، وبخاصة عندما وجد الطريق إلى الجزائر مغلقاً في وجهه ، للذهاب إلى جيجل، وقد تبع هذه الهزيمة إغارة رجال ابن القاضي على مدينة الجزائر وإحراقها .

كما استغلت بعض المدن الجزائرية مثل : تيبس وشرشال هذه الفوضى وثارَت ضد الحاميات العثمانية المقيمة فيها عام ١٥٢٠ م (١٤) .

٤- استأنف خير الدين نشاطه البحري (كقرصان) في جيجل بين عامي ١٥٢٠ - ١٥٢٥ م معتمداً في ذلك على ما تبقى معه من قوات انكشارية لحقته إلى جيجل بعد هزيمته أمام السلطان الحفصي . فجمع خير الدين من نشاطه البحري ثروة كثيرة ، وأصبح لديه عدداً من الأنصار تمكن بهم من احتلال غابة وقسنطينة ، كما عقد تحالفاً مع القبائل الصغرى وزعيمهم عبد العزيز الذي ساعده ضد ابن القاضي .

بعد أن تأكد خير الدين من قوته ، ومن استياء أهل مدينة الجزائر من عدوه ابن القاضي ، قرر مهاجمة الجزائر واستطاع هذه المرة هزيمة ابن القاضي ، ودخل المدينة عام ١٥٢٥ م . ثم قمع ثورات المناطق الثائرة في الجزائر وحولها .

٥- استولى خير الدين على القلعة الإسبانية المواجهة لمدينة الجزائر ، وذلك بعد أن حاصرها وقصفها لمدة ثلاثة أسابيع .

٦- أقام خير الدين ميناءاً لمدينة الجزائر ، يصل ما بين الصخرة التي كانت تقوم عليها القلعة الإسبانية مع البر ، واستخدم في سبيل ذلك أنقاض القلعة ، واتخذها ملجأ للأسطول الجزائري . عندئذ أصبح خير الدين قادراً ، من هذا الموقع الاستراتيجي ، أن يراقب أقرب الطرق المباشرة ما بين مضيق جبل طارق والمتوسط الشرقي ، وبين جنوب إسبانيا وجنوب إيطاليا .

٧- هزم خير الدين حملة عسكرية إسبانية بقيادة الأميرال أندريه دوريا ضد شرشال في عام ١٥٣١ م .

٨- تحالف خير الدين مع زعماء القبائل والمرابطين الذين ساعدوه في السيطرة على المدن الداخلية للجزائر ، لأن الداخل هو العمق البشري والاقتصادي للساحل .

٩- شكل خير الدين قوة عسكرية من أهل البلاد الأصليين ، ووضع عليها قواداً من أحواله (١٥) . وبناء عليه يصح القول إن خير الدين بربروس ، هو مؤسس دولة الجزائر الحديثة وباني أركانها .

ب- أعماله الخارجية :

١- احتلال تونس من قبل خير الدين

فكر خير الدين بربروس بالعمل على توحيد المغرب العربي لتحقيق الأهداف التالية :

أ- تأمين الاتصال بالدولة العثمانية عن طريق البر .

ب- تحقيق التفوق العثماني في الحوض الغربي للمتوسط .

ج- محاولة استعادة الأندلس ، وهذا ما عبر عنه جون وولف بقوله " ... إن

هؤلاء اللاجئين (الأندلسيين) كانوا يحيون خير الدين على أنه بطل مسلم

يمكن أن يقود يوماً جيشاً منصوراً إلى إسبانيا نفسها ... " (١٦) .

كان خير الدين يدرك أن إعادة فتح إسبانيا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أصبح المغرب العربي تحت سلطة إسلامية واحدة ، فتدخل خير الدين في تونس واحتلالها كان بداية هذا المشروع ، ونظراً لعدم ثقته بالانكشارية ، قرر إنشاء قوة جديدة إلى جانبهم قوامها فرقة من الحرس مؤلفة من ٥٠٠ من العلوج ، وجيشاً عدده ثمانية آلاف من اليونان والألبان ومن سكان الجزائر المحليين ، وأوكل أمر قيادته إلى قبطان من رفاقه القدامى الذين يثق بهم .

٢- أسباب الاحتلال

يمكن أن نجمل هذه الأسباب في النقاط التالية :

- ١- ضعف الأسرة الحفصية الحاكمة والخلافات الداخلية بين أفرادها ، وتعاونها مع الإسبان أعداء خير الدين .
- ٢- أهمية موقع تونس الاستراتيجي على المضيق الصقلي الذي يفصل القسم الغربي للبحر المتوسط عن قسمه الشرقي .
- ٣- العمل على تأمين اتصال بري مع استانبول عاصمة السلطنة العثمانية .
- ٤- تهديد وقطع المواصلات بين شرق المتوسط وغربه وتهديد إيطاليا الإسبانية .
- ٥- موافقة السلطان العثماني على مشروع خير الدين في احتلال تونس وإرسال النجيدات البرية والبحرية لمساعدته ، لأن حكام الجزائر من البلربايات كانوا يرسمون سياسة الدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط .
- ٦- إن اهتمام شارلكان وابنه فيليب بتونس نبه خير الدين إلى خطورتها ، فقام باحتلال تونس ، نظراً لخشيته من قيام الإسبان باحتلالها قبله ، مما يؤدي إلى إغلاق المتوسط الغربي في وجه الأسطول العثماني ، وبالتالي عزل الجزائر من قبل إسبانيا مما يسهل سيطرتها عليها براً وبحراً (١٧) .

تحرك الأسطول الجزائري في عام ١٥٣٤ م بقيادة خير الدين من بنزرت، وخرج السكان لاستقباله ، ودخل خير الدين تونس دون أن يلقى مواجهة تذكر ، ويعود ذلك إلى كراهية الشعب لسلطانهم الحفصي ، حيث أعلن خير الدين نهاية الحكم الحفصي وتبعية تونس للسلطنة العثمانية .

أدى احتلال تونس من قبل خير الدين إلى إثارة الدول الأوروبية عليه عامة، وإسبانية بشكل خاص ، نظراً لأهمية موقع تونس كما رأينا ، وشكل هذا الاحتلال تهديد مباشر لإسبانيا ومستعمراتها في صقلية وإيطاليا ، والبابوية والأمراء الإيطاليين ، فكان الرد الإسباني سريعاً وحاسماً ، وأعطى ثماره ، وهذا ما حققته حملة شارلكان^(١٨) عام ١٥٣٥ م .

٣- حملة شارلكان على تونس عام ١٥٣٥ م :

١- أسباب الحملة:

يمكننا أن نلخص أسباب حملة شارلكان على تونس بالنقاط التالية :

١- أهمية موقع تونس الاستراتيجي كمفتاح يفصل المتوسط الشرقي عن الغربي، وقد تنبه خير الدين إلى ذلك وسبق الإسبان في السيطرة عليها قبل عام واحد فقط.

٢- شكل احتلال تونس من قبل خير الدين خطراً على إسبانيا والبابوية والأمراء الإيطاليين .

٣- شكل احتلال تونس من قبل الجزائر قاعدة عسكرية عثمانية هامة لمهاجمة أوروبا من الجنوب ، ولا سيما أن السيطرة البحرية في المتوسط كانت للإمبراطورية العثمانية .

٤- وصلت معلومات إلى شارلكان عام ١٥٣٢ م تتحدث عن استعدادات تركية برية وبحرية للقيام بعمل ضد صقلية ، وهذا العمل يحظى بتأييد فرنسا عدوة

إسبانيا وحليفة الدولة العثمانية ، وربما كان احتلال تونس تمهيداً لهذا العمل العسكري .

٥- كان الصراع في المتوسط وفي أوروبا صراعاً بين قوتين عظيمتين هما :
الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، والامبراطورية العثمانية ، وحاولت كل
منهما أن تثبت وجودها ، فاعتبر احتلال تونس من قبل خير الدين انتصاراً
للدولة العثمانية ، ولهذا السبب أعلن شارلكان الحرب على الدولة العثمانية ،
وتحرك بقواته لاحتلال تونس وانتزاعها منها ^(١٩) .

٢- الظروف الدولية التي ساعدت إسبانية على احتلال تونس

كان الموقف الدولي ملائماً لقيام شارلكان بحملته على تونس ، ويمكننا أن
نلخص هذا الموقف بالنقاط التالية :

أ- انشغال الدولة العثمانية في الصراع والحرب مع الفرس .

ب- توقف الصراع بين الدول الأوروبية على قارتها .

ج- الوعد الذي أخذه شارلكان من عدوه فرانسوا الأول ملك فرنسا وحليف
الدولة العثمانية بعدم التدخل والوقوف على الحياد ^(٢٠) .

د- لجوء السلطان الحفصي حسن إلى بلاط شارلكان ، وطلب مساعدته للعودة
إلى حكم بلاده .

هـ- ضعف موقف خير الدين في تونس على الرغم من انتصاره مرتين على
قوات السلطان الحفصي ، لأن الأهالي فضلوا حكم بني حفص الظالم على
حكم العثمانيين ^(٢١) .

و- تشجيع البابا لشارلكان بالزحف على تونس ، للحد من النفوذ العثماني في
المغرب العربي وتهديده للقارة الأوروبية .

استغل شارلكان هذه الظروف الدولية والمحلية وتأييد ملك فرنسا ، لكنه تردد في اختيار المكان الذي سيوجه فيه ضربته للعثمانيين في المغرب العربي ، بين الجزائر وتونس . لكنه حسم الأمر أخيراً ، وفضل ضرب تونس ، وذلك لعزل الجزائر العثمانية عن استانبول ، وإضعاف موقف العثمانيين في المغرب العربي.

٣- انطلاق الحملة

أعد شارلكان حملة عسكرية كبيرة من أجل احتلال تونس فدرت بحوالي (٣٠) ألف رجل ، وأسطول كبير مؤلف من ٤٠٠ سفينة حربية ، قادها الإمبراطور شارلكان نفسه .

وصلت الحملة في صيف ١٥٣٥ م إلى الشاطئ التونسي ، ونجح الإسبان بالسيطرة على حلق الوادي (٢٢) . فأصدر شارلكان الأوامر لجيشه بالنزول إلى البر عند برج العيون ، وحاولت حامية القصر إعاقة إنزال القوات الإسبانية لكنها فشلت ، عندها اضطر خير الدين للقيام بمواجهة شارلكان على رأس قوة قوامها ١٢ / ألف جندي ، حيث دارت بين الطرفين معارك دامية انتصر على إثرها شارلكان (٢٣) ، ونجح في السيطرة على تونس للأسباب التالية :

- أ- استهتار خير الدين بالقوات الإسبانية وقائدها الإمبراطور شارلكان .
- ب- لبقى خير الدين أسطوله بعيداً عن المياه التونسية ، وبالتالي لم يشارك في المعركة.
- ج- مساعدة أهالي تونس في إرشاد الجيش الإسباني إلى مواطن الضعف في التحصينات العسكرية التونسية ، وإلى مواقع جيش خير الدين (٢٤) .
- د- هروب الأسرى الأوربيين في تونس واستيلائهم على القصبة ، عندئذ خشي خير الدين أن يصبح بين نارين ، فأمر ما بقي من جنوده بالانسحاب إلى صنهاة ، حيث كان يربط أسطوله .

هنا يتبادر إلى الذهن عدد من الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة واقعية كي نفهم الظروف التي جعلت شارلكان يحقق النصر على خير الدين ، وأول هذه الأسئلة : لماذا لم يعد خير الدين الجيش المناسب لمواجهة عدو قوي مثل شارلكان للدفاع عن تونس ، خاصة وأنه ألحقها بالدولة العثمانية قبل عام ؟ ثم لماذا ترك خير الدين أسطولاً بعيداً عن أحداث المعارك التي جرت بينه وبين الإسبان ؟ هل خوفاً على أسطولته من الخسارة أمام أسطول عدوه ؟ أم أن تونس لا تهمه ولا يريد أن يضيع أسطولته من أجلها ؟ وأخيراً ما موقف الدولة العثمانية من هذه الأحداث ولا سيما أن هذه الحملة كانت موجهة ضدها بطريقة غير مباشرة ؟ من الصعب أن نجد جواباً شافياً على كل هذه الأسئلة ، نظراً لعدم وجود وثائق يمكن الاعتماد عليها ، وثمة شيء واحد معروف لدى الجميع هو أن الدولة العثمانية ورجالتها لم يكن يهمهم ألم السكان المحليين بقدر ما تهمهم مصالحهم الخاصة ، ولهم في التاريخ مواقف شبيهة ليس هناك مجال للحديث عنها.

٤- نتائج الحملة

- ١- توطيد مركز الإسبان في البحر المتوسط بالاستيلاء على تونس عام ١٥٣٥م.
- ٢- بعد انتصار شارلكان على خير الدين واستيلاءه على تونس خسارة للدولة العثمانية في أحد مراكزها الهامة في غرب المتوسط .
- ٣- أقام شارلكان قلعة في حلق الوادي على الطرف الجنوبي للمضيق الصقلي ، لمراقبة مدخل البحر المتوسط من جهة الغرب .
- ٤- كفلت قاعدة حلق الوادي في تونس ، إضافة إلى جزيرة مالطة وطرابلس الغرب حيث يقيم فرسان القديس يوحنا منذ ست سنوات ، وكذلك قاعدة صقلية و نابولي لشارلكان السيطرة على البحر المتوسط .

٥- حقق احتلال تونس هدف شارلكان في عزل الجزائر ، وأصبحت هدف إسبانيا التالي .

٦- هاجم خير الدين جزر البليار وذلك ليعوض عن فشله في تونس ، واصطحب معه ستة آلاف أسير كغنائم حرب .

كانت عملية خير الدين ضد جزر البليار آخر أعماله العسكرية البحرية كبكلربك وقبطان (قرصان) في إيالة الجزائر ، فقد استدعاه السلطان العثماني إلى استانبول ليتولى قيادة الأسطول العثماني ومنحه لقب قبطان باشا ، مع احتفاظه بمنصبه السابق كبكلربك الجزائر وبكل امتيازات هذا اللقب . وهكذا يسدل الستار عن أول حاكم عثماني لإيالة الجزائر ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة .

ترك خير الدين الجزائر ، وبدأ منذ وصوله إلى استانبول عام ١٥٣٦ م في إعادة تنظيم الأسطول العثماني وقيادة العمليات الحربية البحرية ضد خصوم الدولة من البنادقة والإسبان ، وحقق انتصارات هامة زادت من احترام الدولة العثمانية له ، وأصبح بذلك محط أنظار القوى المتصارعة في البحر المتوسط . وسعى كل من فرانسوا الأول ملك فرنسا وشارلكان ملك إسبانيا لكسبه إلى جانبه . لكن خير الدين كان ميالاً إلى التعاون مع فرنسا وتربطه بها علاقات صداقة ومودة ، فحصل السفير الفرنسي في استانبول على وعد من خير الدين بالتعاون الفرنسي العثماني ضد إسبانيا ، وبدأت السفن الجزائرية الفرنسية ، منذ عام ١٥٣٦ م ، تشارك في مهاجمة جزر البليار والشواطئ الإسبانية (٢٥) .

٢- حسن آغا:

حكمت الجزائر بعد استدعاء خير الدين إلى استانبول لقيادة الأسطول العثماني من قبل حسن آغا السرديني الأصل . حيث أسر وهو طفل وذلك في

إحدى غزوات البحارة الجزائريين (القراصنة) على الجزيرة ، وعندما وزعت الغنائم كان من نصيب خير الدين ، وعندما شب حربه خير الدين وأدخله في الإسلام ، وأوكل إليه قيادة عسكرية لما كان يتميز به من إقدام وشجاعة ، فقد أثبت ذلك عندما قاوم حملة شارلكان على الجزائر ، التي تعتبر من أكبر الحملات العسكرية في ذلك العصر .

حملة شارلكان على الجزائر ١٥٤١ م

أغار الإمبراطور شارلكان ملك إسبانيا على مدينة الجزائر في تشرين الأول من عام ١٥٤١ م . وكانت الحملة الإسبانية الثالثة في القرن السادس عشر الميلادي ، فالغارة الأولى كانت في عهد عروج عام ١٥١٦ م وقادها ديا فودي فارا (Diego de Vara) وانهزمت الحملة ، والثانية هاجمت الجزائر في عهد خير الدين عام ١٥١٨ م بقيادة غودي مونكاد (Hugo de Moncada) ، واستطاع خير الدين أن يهزمها .

كانت حملة شارلكان في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني ، ولم يتخذ مؤرخو حملة شارلكان على الجزائر موقفاً نزيهاً يصفون فيه فشل حملته ، حيث أهملوا الحديث عن غارته على الجزائر ، في حين أسهبوا في الحديث عن نجاح حملته على تونس عام ١٥٣٥ م (٢٦) . وكان يحكم إيالة الجزائر حسن آغا (٢٧) الذي عينه خير الدين نائباً له في حكم الجزائر .

ولإعطاء فكرة واضحة عن هذه الحملة لا بد لنا من معرفة أسبابها وأحداثها ونتائجها على الصعيدين المحلي والدولي .

١ - أسباب الحملة :

تعددت الأسباب التي دفعت شارلكان للقيام بحملته العسكرية على الجزائر ، ويمكننا أن نوجزها فيما يأتي :

١- القضاء على النفوذ العثماني في البحر المتوسط , فقد شهدت الجزائر العثمانية نشاطاً لامثيل له بعد القضاء على الحامية الإسبانية وتدمير قلعة البنون , واكتسبت الجزائر قوة بحرية عظيمة فاقت القوى البحرية المتوسطية الأوربية , وأصبحت مقراً لأسطول قوي زرع الرعب في قلوب سكان السواحل الأوربية (٢٨) .

٢- كان الجزائريون يهاجمون السواحل الأوربية رغم احتلال شارلكان وإقامة حصن حلق الوادي, وتعددت غارات المسلمين على إسبانيا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط. ولهذه العوامل جميعها فكر شارلكان بالقضاء على نشاط البحارة الجزائريين ضد السواحل الأوربية, بصفته صاحب أكبر إمبراطورية في العالم في تلك الفترة ويسيطر على أجزاء كبيرة من أوروبا (٢٩) .

٣- تحقيق المخطط الإسباني في السيطرة على البحر المتوسط وجعله بحيرة إسبانية :

استطاع شارلكان أن يضم إلى ملكه أجزاء كثيرة من أوروبا مثل جنوب إيطاليا وشمالها , وصقلية وجزر الباليار , وجزء من أوروبا الوسطى وشمالها , فأصبحت فرنسا محاصرة , والمغرب العربي مهدداً خاصة بعد احتلال سواحلها بدءاً من احتلال الإسبان المرسى الكبير في عام ١٥٠٥ م وحتى احتلالهم تونس عام ١٥٣٥ م .

كما وصلت الدولة العثمانية إلى المغرب العربي عن طريق الأخوين عروج وخير لسي , وتمكنت من ضم المغرب الأوسط رسمياً بعد إعلان خير الدين تبعيته للإمبراطورية العثمانية عام ١٥١٨ م , فازداد بذلك التنافس بين الدولتين الكبيرتين في تلك الفترة (الإسبانية والعثمانية) , وأخذت كل منهما تسعى إلى السيطرة على البحر المتوسط .

استفاد الامبراطور شارلكان من ظروف عام ١٥٤١ م للهجوم على الجزائر المركز الوحيد للعثمانيين في المغرب العربي ، فأخرجهم من الجزائر يعني أن البحر المتوسط الغربي أصبح إسبانياً من جهة ، ويتحقق الحلم الإسباني في محاصرة فرنسا حليفة الدولة العثمانية من جهة أخرى (٢٠) .

٤- العمل على تخفيف ضغط الهجوم العثماني على النمسا وألمانيا :

يعتقد بعض المؤرخين أن حملة شارلكان ضد الجزائر كانت ترمي إلى مراعاة الوضع السياسي على أرض القارة الأوروبية (٢١) ، وحملته الموجهة ضد المصالح العثمانية في المغرب العربي يدفع المسؤولين عنها إلى إرسال قواتهم إلى الجبهة الإفريقية، مما يؤدي بالتالي إلى تخفيف الضغط على النمسا وألمانيا ، التي ربما كان لشارلكان مطامع في ضمهما إلى إمبراطوريته الأوروبية (٢٢) .

٥- يمكن القول إن حملة شارلكان شكلت انتقاماً لأوربا ضد توسع الامبراطورية العثمانية واحتلالها عدداً من المواقع والدول على الجبهة الأوروبية الشرقية مثل : المجر وجزيرة رودوس عام ١٥٢٢ م ، ومحاصرة فيينا في عام ١٥٢٩ م .

في الحقيقة كانت الدولة العثمانية تشكل خطراً وتهديداً مباشراً لأوربا بكاملها ، فاستغل شارلكان هذا التهديد لإنقاذ أوربا ، بتوجيه ضربة موجعة للعثمانيين في الجزائر لتخفيف الضغط من استمرار الزحف العثماني على الدول الأوروبية .

٦- ربما تشكل المفاوضات التي جرت بين خير الدين وشارلكان ، (والتي لم تذكرها المصادر الإسلامية) ، سبباً لهذه الحملة . وتشير المصادر الغربية إلى أن شارلكان أراد اللجوء إلى الحيلة ، بعدما فشل بالقضاء على نشاط البحرية الجزائرية (القرصنة) ، واقترح على خير الدين أن يكون له حكم الجزائر والقواعد الإسبانية آنذاك مثل : بجاية وعقابة وتونس ، بشرط أن

يبقى في خدمة الامبراطورية الإسبانية ، وأن يجعل الأسطول العثماني الذي يتولى قيادته تحت تصرف شارلكان وامبراطوريته (٣٣) .

٧- ربما يكون فشل المفاوضات التي جرت بين حاكم الجزائر حسن آغا وحاكم وهران الإسباني السبب غير مباشر للحملة ، فقد تناولت المصادر الغربية هذه المفاوضات ، التي يمكن تلخيص نتائجها بقبول حسن آغا تسليم الجزائر إلى الإسبانين ، لكن احتجاج أهالي المدينة عطل المشروع (٣٤) .

وهنا يطرح السؤال التالي : هل جرت مفاوضات بين خير الدين وشارلكان لضم خير الدين إلى صف الإسبان واعتباره تابعاً لهم في المغرب العربي ؟ ثم ، لماذا ذكر المؤرخون الأوروبيون هذه المفاوضات ولم يذكروها العرب والعثمانيون ؟ . ربما تكون المصادر الإسلامية أخفت هذه المفاوضات ، لأن خير الدين كان يتمتع بسمعة كبيرة لدى الأوساط العثمانية ويقود أقوى الأساطيل في تلك الفترة ، وهو الذي أخضع الجزائر إلى الدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه ربما تكون المصادر الغربية قد زعمت إجراء هذه المفاوضات لدعم الموقف الإسباني ، لتبرير فشل الحملة ، على أن خير الدين قبل في البداية ثم نكث عهده ، والشيء نفسه يقال عما أوردته المصادر الغربية عن مفاوضات جرت بين حاكم الجزائر حسن آغا وحاكم وهران الإسباني .

٢ - الاستعدادات العسكرية والمعنوية للحملة

أ- الاستعدادات الإسبانية:

فكر شارلكان بمتابعة زحفه على الجزائر بعد احتلاله تونس عام ١٥٣٥م، إلا أن ظروفًا دولية أجبرته على التخلي عن هذا المشروع في ذلك الوقت . وبقيت في مخيلته فكرة إرسال حملة لاحتلال الجزائر . بدأ شارلكان استعداداته العسكرية والمعنوية اللازمة للحملة ما يقارب الخمس سنوات ، وأرسل الجواسيس إلى الجزائر للاطلاع على أوضاعها ،

ومعرفة نقاط الضعف في تحصيناتها العسكرية ، التي تشكل القاعدة الأساسية لإنزال القوات الإسبانية عند وصولها . كما طلب شارلكان دعماً معلوياً من البابا بمباركة الحملة وإعانة مادية وذلك في عام ١٥٣٩ م .

دخلت الاستعدادات مرحلتها الأخيرة في أواخر عام ١٥٤٠ م (٣٥) ، وتولى شارلكان نفسه الإشراف على إعداد الحملة وقيادتها . وتعد من الحملات الكبرى في القرن السادس عشر الميلادي ، واتخذت طابعاً دولياً أوربياً فقد اشترك فيها نبلاء من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا ، كما اشترك فيها أخو البابا وفرسان القديس يوحنا ، الأمر الذي أعطاهما طابعاً دينياً وأمن لها للدعم المعنوي اللازم (٣٦) .

كان الأسطول الإسباني أكبر أسطول يشق البحر المتوسط في تلك الفترة ، ويتألف من مراكب للنقل وأخرى للحرب ، واختلفت التقديرات المتعلقة بعدد قطعه ، وأقربها إلى الصحة ما أورده دي غرامون (De Grammont) حيث قال : " إن الأسطول يضم ٥١٦ سفينة بينها ١٦ سفينة للنقل " (٣٧) . ويتفق معه هايدو (Haëdo) إذ يقول : " إن الأسطول الإسباني كان يتألف من أكثر من ٥٠٠ مركب " (٣٨) . كانت هذه السفن تحمل ١٢ ألفاً من رجال البحر و ٢٤ ألف جندي من رجال البر (٣٩) ، كما عهد إلى ٤٠ شخصاً من فرسان القديس يوحنا في مالطة بقيادة ٤٠٠ عسكري متربين تدريباً جيداً (٤٠) .

وكان يقود الإرمادة الإسبانية الامبراطور شارلكان نفسه ، وقد لقبه المسلمون في كتبهم بملك النصاري وملك إسبانيا وصاحب إسبانيا ، وكان يرافقه في حملته أكبر قواد مملكته وضباطها .

ب- الاستعدادات الجزائرية :

وصل خبر حملة الامبراطور شارلكان إلى إيالة الجزائر ، الأمر الذي دفع أهاليها - بناء على توجيهات حاكمها حسن آغا - إلى الاستعداد لصد للهجوم . واستعان حسن آغا بجماعة من أبرز زعماء المدينة ، لإعداد الخطط اللازمة لمجابهة العدو ، من بينهم شيخ المدينة سيدي سعيد الشريف وعدد من قواد العسكر مثل القائد رمضان ويوسف وصفر ، وكانت تشكيلة القوات الجزائرية

على النحو التالي :

- ٨٠٠ رجل تركي
- ٨٠٠٠ أندلسي قدموا من بلنسية وغرناطة
- ١٤٠٠ من العلوج
- ٢٠٠ من العرب

يعود السبب في قلة القوات الجزائرية إلى أن معظم جيوش الإبلالة كانت تركز آنذاك في غرب البلاد (٤١) . ويؤكد هذا العدد القليل للقوات الجزائرية التي شاركت في المعركة هايدو (Haëdo) بقوله : " لم يبق تحت أمرة حمسن آغا إلا ثلاثة آلاف رجل من أتراك وأندلسيين وأعراب (٤٢) ونرى أن هناك فارق كبير، فيما يتعلق بعدد القوات الجزائرية ، بين ما ذكره دي غرامون (Grammont) وهايدو (Haëdo) . ولا نعرف أيهما أقرب إلى الحقيقة ، لكن مع ذلك يبقى هذا العدد أقل بكثير بالمقارنة مع جيش الامبراطور الإسباني شارلكان .

٣ - أحداث الحملة

بعد أن أتم شارلكان استعداداته العسكرية والمعنوية ، أعطى أوامره للأسطول بالتحرك في ١٥ أو ١٦ من تشرين الأول عام ١٥٤١ م . ويذكر بعض المؤرخين المسلمين أن الامبراطور أبهر من قرطاجة باتجاه وهران ، وهناك انضمت إليه بقية القوات (٤٣) . في حين ذكرت المصادر الأوروبية أن الأسطول أنطلق من ماهون بجزيرة مينورقا والتحقّت به قوات أخرى قرب مدينة الجزائر (٤٤) .

كانت إخبار الحملة تصل إلى مدينة الجزائر تباعاً ، وكان المسؤول عن حراسة البحر مكلفاً برصد قدوم العدو . هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : لماذا لم يخرج الجزائريون بأسطولهم لمواجهة الحملة في عرض البحر ، طالما

كانوا يعرفون بتحريكها منذ خروجها من قواعدها وقدموها إليهم ؟ هل كان عدم خروجهم عبارة عن مخطط تكتيكي يهدف إلى جر العدو إلى الموانئ الجزائرية؟ والاشتباك معه هناك أو أن هناك أسباباً أخرى لا نعرفها ؟

على أية حال ، وصل الأسطول الإسباني إلى مياه إيالة الجزائر يوم الأربعاء ١٩ تشرين الأول عام ١٥٤١م ، وفي اليوم التالي وصل الأسطول إلى رأس خليج العاصمة أمام مصب وادي الحراش ، إلا أن الظروف الجوية كانت إلى جانب القوات الجزائرية ، حيث لعبت الرياح دوراً هاماً في إجبار الأسطول الإسباني بالتحرك نحو رأس ماتيغو (٤٥) . وبقي الإسبان ينتظرون يومي الجمعة والسبت ٢١ و ٢٢ تشرين الأول ويترقبون انحسار العاصفة للقيام بعملية إنزال قواتهم ، لكن الطقس بقي على حاله ، ولم يتمكن الجنود الإسبان من النزول إلى البر ومغادرة السفن إلا في ٢٣ من تشرين الأول ، حيث نزلوا في الطرف الشمالي من وادي الحراش ، ولم يتعرض الجيش الإسباني أثناء عملية النزول لأية صعوبات ، وفي الساعة التاسعة من صباح ٢٤ تشرين الأول نزل قائد الحملة شارلكان إلى البر الجزائري (١٦) .

أما فيما يتعلق بالموقف العثماني من الحملة ، فقد كان السلطان سليمان القانوني على علم بنوايا شارلكان الهادفة لغزو الجزائر ، وذلك عن طريق خير الدين بربروس قائد الأسطول العثماني الذي كان يعلمه عن أخبار تحرك حملة شارلكان يوم بيوم . ومع ذلك لم تحرك الدولة العثمانية ساكناً تجاه ذلك ، والسؤال الذي يبقى مطروحاً : لماذا لم يرسل السلطان العثماني قواته لإعاقة القوات الغازية من الوصول إلى الجزائر ، وخاصة أن قائد الأسطول العثماني هو خير الدين نفسه الذي ما يزال يحكم الجزائر أيضاً ؟ ألم تعد الجزائر الآن ولاية عثمانية ؟ هل نسي العثمانيون أن مصدر قوتهم في غرب المتوسط يعود إلى البحارة الجزائريين ؟ ثم ما موقف السلطنة بعد نزول الحملة ؟ ألم يكن بمقدورها

إرسال قوات لإنقاذ الجزائر من محنتها ؟ ألم يدرك العثمانيون أن الهجوم على الجزائر هو هجوم على السلطنة ذاتها ؟ ، خاصة وأن الإسبان يعتبرون الجزائر جزءاً من الدولة العثمانية ، لا بل جزءاً هاماً جداً لأن الجزائر كانت القاعدة المركزية لانطلاق الهجمات ضد السواحل والسفن الأوروبية .

إن هذه الأسئلة وغيرها بحاجة إلى أجوبة موضوعية ، وكل ما نقوله في هذا الخصوص يظل محور توقعات وتخمين ، لعدم تناول الوثائق العثمانية الحالية هذه القضية .

٤ - أحداث المعركة وتطوراتها:

قرر الجزائريون مهاجمة العدو ليلاً بقيادة الحاج باشا (١٧) ، بقوة بلغت ٢٠٠٠ من أشجع الفرسان و ٦٠٠ من المقاتلين . حيث انقضوا على العدو بسيوفهم وبنادقهم وأشاعوا الرعب والدهشة في مخيم الإسبان . ونجحت العملية الجزائرية في مهاجمة مخيم الامبراطور شارلكان ، وعاد منفذوها سالمين إلى مدينة الجزائر ، وتناقلت قوات الحملة بالنزول وكان في مقدمتهم :

الإسبان تحت قيادة فرناند دى قونزاق (Fernand de Gonzague) ، ثم الألمان ، وبعد ذلك جنود مالطة وصقلية وعدد من إسباني عنابة ، وأخيراً نزل فرسان القديس يوحنا وكان أغلبهم من الفرنسيين .

أصبح العدو الإسباني قريباً من المدينة ، فأمر شارلكان بنصب المدافع وقصف المحاصرين ، الأمر الذي دفع الجزائريين بالرد على نيران العدو بالمدافع والرصاص والسهام . استمر القتال سجلاً بين الطرفين زمناً طويلاً ، وأجبر العدو على الرجوع إلى رأس تافورة الواقعة قرب من باب عزون ، واستأنف الإسبان عمليات القصف من هذا المكان ، فرد عليهم الجزائريون بالمثل ، عندئذ شعر شارلكان بخيبة أمل في إمكانية احتلال المدينة ، وذلك بسبب ما تعرض له من مقاومة شرسة وقوية من الجانب الجزائري منذ الساعات الأولى للمعركة .

وفي هذه الأثناء، هاجمت مجموعة من الفرسان العرب الجناح الأيسر لجيش العدو، الأمر الذي دفع الامبراطور شارلكان إلى اتخاذ قرار في السيطرة على المرتفعات المشرفة على مدينة الجزائر. أوكل شارلكان هذه المهمة فريقاً من الصقليين الذين صعدوا إلى كدية الصابون، التي اتخذها شارلكان قاعدة جديدة له، وتسمى أيضاً حصن الامبراطور ^(٤٨). فتضاعفت المقاومة الجزائرية وبدأت توجه ضرباتها ضد السفن الإسبانية الراسية في خليج الجزائر، وتم توجيه ضربات أيضاً ضد القوات البرية، واستمر ذلك حتى حلول الظلام ^(٤٩).

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ تشرين الأول لعبت الظروف الجوية دوراً هاماً في حسم المعركة لصالح الجزائريين، وحمت مدينة الجزائر من السقوط بيد القوات الإسبانية، حيث هاجت الرياح وقطعت حبال السفن الراسية، ودفعت بها إلى البر حيث تكسرت. وخرج من هذه السفن من كان بها من الأسرى العرب والترك حيث بلغ عددهم حوالي ١٤٠٠ شخص، وقد اشترك هؤلاء في المعركة ضد الإسبان ونجحوا في قتل عدد من جنودهم وبحارتهم ^(٥٠).

هاجم الجزائريون معسكر الإسبان مستفيدين من هذه الظروف الجوية، التي كانت في نظر بعضهم إغارة من الله ضد أعدائهم، وقد اندلعت الحرب برأس تافورة، حيث دافع الإسبان عن أنفسهم وعن امبراطورهم دفاعاً مميّناً، ثم هاجم الجزائريون أعداءهم في منطقة بالقرب من أبي النقي، وانتهت المعركة لصالحهم. وأسفرت هذه المعارك عن قتل أربعة آلاف من جنود الاحتلال و٢٠٠ من الجيش الجزائري بالإضافة إلى عدد من الجرحى، وذلك حسب المصادر العربية. بالمقابل ذكرت المصادر الغربية أن عدد الخسائر في صفوف الجزائريين كانت أكثر مما أورنته المصادر العربية، حيث ذكر دى غرامون (De Grammont) أن خسائر الجزائريين كانت فادحة من دون أن ينكر أرقاماً ^(٥١).

ولا نعرف العدد الحقيقي للضحايا من كلا الطرفين ، لأن كل طرف يقتل من عدد ضحاياه ، وكل طرف يبالغ في خسائر الطرف الآخر من أجل رفع معنويات جنوده . على أية حال ، فقد أمثل الشاطئ الجزائري من شرشال إلى تنيس بحطام الأسطول الإسباني وجثث القتلى أو الغرقى ، وكانت غنائم الجزائريين كثيرة للغاية بحيث أصبحت مضرب المثل (٥٢) . وفي صباح يوم الأربعاء ٢٦ تشرين الأول أدرك العدو أنه لا يستطيع دخول المدينة ، وفقد كل أمل بذلك وتبين له أن الغنيمة أن ينجو بنفسه .

٥ - الموقف الإسباني من الهزيمة

أمر الامبراطور شارلكان قواته بالانسحاب من مدينة الجزائر إلى رأس ماتيغو . يوم الأربعاء ٢٦ تشرين الأول ، حيث كان الألمان في الجناح الأيمن للجيش والإيطاليون في جناحه الأيسر ، والجرحى والمرضى في وسط الجيش ، وأخيراً جاء الإسبان ، ونزل العدو في وادي خنيس حيث قضى ليلته هناك . وتابع جيش العدو انسحابه يوم الخميس ٢٧ تشرين الأول حتى وصل إلى وادي الحراش ، وكانت ضاحته منهكة من الجوع والبرد ، وفي يوم الجمعة ٢٨ تشرين الأول استطاع العدو أن يعبر وادي الحراش ، بعد أن عقدوا صواريخ سفنهم المعطوبة على الساحل ، وتمكنوا بواسطتها من الوصول إلى رأس ماتيغو يوم السبت ٢٩ تشرين الأول (٥٣) . ففضى الامبراطور وجيوشه يومي الأحد والاثنين بانتظار هدوء العاصفة . وعقد الامبراطور مجلس حرب ليرى ما إذا كان عليه تأجيل الحملة أم أنه لا يزال هناك أمل باستئناف الهجوم على الجزائريين .

بعد مناقشة طويلة رأى غالبية الضباط في المجلس الحربى أن الظروف الجوية غير ملائمة ، فطلبوا من الامبراطور أن يؤجل الحملة ، في حين أصر حاكم وهران على إعادة الهجوم ثانية ، لكن الأميرال البحري دوريا حسم الموقف لصالح التأجيل بعد أن أقتنع الامبراطور بأن الطقس السيئ سيستمر (٥٤) .

عندئذ أُلْقِيَ الأسطول الإسباني حسب المصادر الإسلامية عائداً إلى بلاده . وختُمت هذه المصادر بالحديث عن فشل هذه الحملة ، في حين تؤكد المصادر الغربية بأن الامبراطور شارلكان ذهب إلى بجاية للبحث عن الزاد ، ويقول هايدو (Haedo) إن ابن القاضي صاحب كوكو وعد الإسبان بزاد يبعثه لهم إلى بجاية (٥٥) . ووصل الإسبان إلى بجاية يوم الجمعة في ٤ تشرين الثاني عام ١٥٤١ م فوجدوها تعاني الجوع والقحط ، فغادر الامبراطور وجيشه المدينة - بعد إقامة استمرت عدة أيام فقط - باتجاه ميورقا ، ومنها توجه قسم من سفنه إلى صقلية بقيادة فونزاق Gonzague ، أما القسم الآخر فقد توجه إلى قرطاجة حيث نزل الامبراطور شارلكان من الأسطول في الثاني من كانون الأول عام ١٥٤١ م (٥٦) .

٦- أسباب هزيمة شارلكان :

أ- من وجهة نظر الأوربيين :

يمكننا أن نلخص الأسباب التي أدت إلى هزيمة شارلكان في حملته على الجزائر عام ١٥٤١ م في النقاط التالية :

- ١- تصميم شارلكان على مهاجمة الجزائر في فصل الشتاء ، وعدم ساعه نصيحة الأميرال البحري أندريه دوريا - الخبير بالساحل الجزائري - بتأجيل الحملة حتى يمر هذا الفصل ، وذلك لأن جميع الحملات التي هاجمت الجزائر في فصل الشتاء فشلت ، وكان هذا من مصلحة سكان المدينة .
- ٢- ضعف القيادة وكثرة الأخطاء المرتكبة في العمليات البحرية والبرية .
- ٣- الخطأ التكتيكي الذي وقع فيه شارلكان بإبقائه مدفعية الميدان والذخائر وتموين الجيش في السفن ، لاعتقاده أنه لا يحول بينه وبين سفنه أي عائق ، ولكن حدث العكس ، فقد حطمت الأمواج البحرية الغالبة العظمى من السفن ، وبقي الجنود الذين نزلوا على الشاطئ من دون ذخيرة وطعام .

٤- الخطأ الذي ارتكبه الأميرال أندريه دوريا ، بالرغم من أنه أعرف الناس بالبحر المتوسط ، عندما جمع مئات السفن والمراكب قرب سواحل لا يوجد فيها مأوى صالح لرسو السفن .

٥- الأمل الذي كان يبني شارلكان أحلامه عليه ، وهو اعتقاده من أن الأسطول سيدخل بسهولة إلى ميناء مدينة الجزائر ، فيصبح هو وبحارته في منأى عن الرياح الشمالية الشرقية العاتية التي مزقت سفنه ولعبت فيها .

٦- تأكد شارلكان من خيانة حسن أغا حاكم الجزائر ، الأمر الذي دفعه إلى عدم الاهتمام بالعمليات العسكرية .

٧- مهاجمة شارلكان للجزائر بعد مضي ثلاثة أيام على وصوله إليها في ٢٠ تشرين الأول . مما أعطى فرصة للجزائريين من أجل استكمال استعداداتهم والمبادرة إلى مهاجمة الإسبان .

٨- لعبت العوامل الطبيعية دوراً في فشل الحملة وخسارة الإسبان ، فالزوبعة الجوية التي تسببت في هيجان البحر بعد نزول القوات الإسبانية كانت السبب الرئيسي في فشل الإمبراطور في اقتحام أسوار الجزائر والسيطرة عليها^(٥٧).

ب- من وجهة نظر المسلمين:

يرجع المسلمون فشل الحملة وعدم تمكنها من تحقيق أهدافها في احتلال الجزائر للأسباب التالية :

١- وقوف الله إلى جانب الجزائريين ، وذلك عندما هبت عاصفة وريحا عاتية حطمت سفن الإسبان وأرزاقهم الموجودة فيها .

٢- عناد الإمبراطور شارلكان وتصميمه على إرسال الحملة في هذا التوقيت السيئ ، على الرغم من نصائح مستشاريه وخبراء الجيش لديه .

٣- شجاعة حسن أغا حاكم الجزائر والتفاف الناس حوله بإيمان وعزيمة .

نلاحظ أن أسباب فشل الحملة من وجهة النظر هذه تعود إلى القدر والشجاعة ، فمن شعب نؤمن بالقدر ، وكلنا أمل في أن يكون القدر إلى جانبنا هذه الأيام ، لتخلص من المخططات الاستعمارية التي تحاك ضد أمتنا العربية والإسلامية . على أية حال ، فإننا نلاحظ اتفاقاً بين وجهتي النظر الغربية والإسلامية في أن عناد شارلكان كان سبباً أساسياً في فشل حملته على الجزائر ، وقد رفض جميع النصائح التي قدمها له كبار القادة العسكريين في حملته ، وخاصة الأميرال أندريه دوريا ، فلم يتعظ شارلكان من فشل جميع الحملات الأوربية التي هاجمت الجزائر في فصل الشتاء ، لصعوبة هذا الفصل في الجزائر مقارنة مع غيرها من بلدان المغرب العربي .

٧ - نتائج حملة شارلكان على الجزائر

- كانت لهذه الحملة نتائج عديدة وأصداء بعيدة سواء على الصعيد الدولي أم على الصعيد المحلي ، ويمكننا أن نلخص هذه النتائج في النقاط التالية :
- ١- شكلت خسارة شارلكان وعدم تمكنه من دخول الجزائر ضربة خطيرة للنفوذ الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكانت هذه الحملة آخر مشروع كبير لغزو السواحل الجزائرية ، بحيث أصبحت الجزائر في نظر الأوربيين مدينة مرهوبة الجانب ومن الصعب التغلب عليها (٥١) .
 - ٢- وقوع عدد كبير من الأسرى الإسبان وحلفائهم بيد الجزائريين ، كما حصل هؤلاء على عدداً كبيراً من الخيول والأسلحة والأشياء النفيسة كخزينة حرب ، ويعترف المؤرخ الفرنسي دي غرامون (De Grammont) بأن الإسبان تكبدوا خسائر فادحة إذ يقول : " خسر الإسبان ١٦ غليوطة كبيرة و ١٤٠ جفناً ومدفعية ثقيلة وآلات حصار وخيام .. حتى أصبح ما غنمه المسلمون يضررب به المثل " (٥٢) . أما فيما يتعلق بالخسائر البشرية ، فقد

بالغت المصادر الجزائرية في ذكرها حيث بلغ عدد القتلى حوالي ١٢ ألف من رجال الحملة ، حيث انتشرت جثثهم من مدينتي الجزائر ولس شرقاً حتى مدينة شرشال غرباً (١١) .

٣- استيلاء الجزائريين على غنائم حربية كثيرة ترواحت بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ مدفع من البرونز استخدمها الجزائريون في تدعيم تحصينات مدينة الجزائر وأسوارها (١٢) .

٤- لم تقص الحملة على نفوذ بحارة الجزائر وقوتهم ، بل على العكس أدت هذه الهزيمة إلى ازدياد قوتهم بحيث أصبحوا كابوساً يهدد الأوربيين .

٥- زادت هزيمة الإسبان في الجزائر من شأن حاكم إيالة الجزائر وقائد معركتها حسن آغا ، حيث أرسل له السلطان خلعاً سنياً ، وأمر سامياً منحه بموجبه لقب نائب السلطان ، وعده من جملة وزرائه المفضلين ومنحه لقب باشا على الجزائر (١٣) .

٦- اتسعت رقعة نفوذ الأتراك داخل إيالة الجزائر ، حيث بايع أبو محمد الزياني حاكم تلمسان الأتراك العثمانيين بعد هذا النصر ، ثم قضى الأتراك على دولة بني زيان عام ١٥٥١ م ودخلت تلمسان في فلك السياسة العثمانية .

٧- أعطى هذا النصر حسن آغا قوة كبيرة ، خاصة بعد حصوله على كتاب التعيين حاكماً رسمياً على الجزائر من الباب العالي ، حيث عمل على مد النفوذ العثماني في الأجزاء الشرقية من الإيالة ، وشن حملة مؤلفة من ٦٠٠٠ ألف رجل لإخضاع سلطان كوكو ، وتم له ذلك وألزمه بدفع غرامة سنوية (١٤) .

٨- أدت هذه الهزيمة إلى زعزعة مواقع الإسبان التي يحتلونها على سواحل المغرب العربي ، حيث بدأوا بالانسحاب ، بعد فترة قصيرة ، من هذه المراكز الواحد تلو الآخر ، وذلك من طرابلس الغرب عام ١٥٥٢ م .

ومرسى أفريقيا بتونس ١٥٥٣م ، من بجاية ١٥٥٥ م ، وحوصروا مرات عديدة في وهران (١٥) .

٩- فشل المخطط الإسباني في احتلال الجزائر الذي كان يرمي أيضاً إلى خنق فرنسا إذا نجح الإسبان في تحويل الحوض الفرنسي إلى حوض إسباني لكن هذا لم يتم ، وكاد فرح الفرنسيين في فشل الحملة أن يعادل فرح الجزائريين .

١٠- نزلت أنباء هزيمة شارلكان على الجزائر نزول الصاعقة على أوروبا ، حيث لم يبق حليفاً للإمبراطور شارلكان سوى ملك بريطانيا هنري الثالث ، عندئذ قرر شارلكان ترك التاج والعرش ، وذهب إلى أحد أديرة الرهبان الإسبانية .

١١- تمثلت النتائج المعنوية للحملة في الجزائر بإقامة الأفراح والاحتفالات بهذا النصر العظيم الذي حققته مدينة الجزائر للمرة الثالثة على القوات الأوروبية ، في فترة لا تتجاوز الثلاثين عاماً ، حيث شعر الجزائريون كذلك بالمنعة وجاء في مخطوطة جزائرية " ... وفرح الله تعالى عنهم ، وفرح أهل الجزائر بهذا النصر العظيم ... وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار ، ولم يبق لهم عدو يخافون منه ، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها ... " (١٦) .

كما عبر يهود العاصمة عن فرحهم ، وذلك لما كانوا يضمرونه من حقد وكراهية للإسبان الذين أذاقوهم المر والعذاب والاضطهاد عندما كانوا في أوروبا ، ولما فشلت حملة شارلكان وانسحبت بقية قوائمه اطمأنت قلوب اليهود ونظم بعض شعرائهم القصائد التي كانت تتغنى في مدح الجزائريين ، وتمجد كفاحهم وبطولتهم في مقاومة هذه الحملة ومن هؤلاء الشعراء : مشيش إبراهيم بن يعقوب وإبراهيم بن سليمان صرفنتي (١٧) ، وبقي اليهود يحتفلون بذكرى انتصار الجزائريين في عام ١٥٤١ م حتى القرن التاسع عشر الميلادي (١٨) .

يبدو أن هذا الفرع العظيم الذي عبرت عنه الطائفة اليهودية في مدينة الجزائر كان حقيقياً ، وذلك لأن اليهود لاقوا المصير نفسه الذي تعرض له العرب بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ م وطردهوا معهم من إسبانيا ، وبقوا يحملون الحقد والكراهية للإسبان هذا من جهة ، وأن اليهود كأقلية في مجتمع مدينة الجزائر لابد لهم من أن يندمجوا من جهة أخرى ، وخاصة في مجال العادات والتقاليد ، مع مجتمع الأكثرية ، لذلك كان تعبيرهم عن الفرع في هزيمة حملة شارلكان كجزء من سكان هذه المدينة وليس كطائفة يهودية منفصلة . وربما فعلوا ذلك أيضاً بدافع التظاهر بالفرح من أجل كسب عطف الأهالي عامة والطبقة العثمانية الحاكمة بشكل خاص .

٣- حسن باشا:

هو ابن خير الدين بربروس من امرأة جزائرية ، فهو من طبقة القولوغلوية ، أي من أبناء العثمانيين من أمهات جزائريات . وكان تعيين أحد أبناء هذه الطبقة في هذا المنصب حالة استثنائية لم تتكرر طيلة الوجود العثماني في الجزائر ، إذ لم يقلد أبناء الطبقة القولوغلوية مناصب كبيرة وخاصة منصب الحاكم العام للجزائر . هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : لماذا استثنى حسن باشا ابن خير الدين من العرف العثماني المتبع في إيالة الجزائر ، والذي يقضي بإبعاد أبناء الطبقة القولوغلوية عن مناصب الدولة العالية ؟ فهل كان هذا التعيين مكافأة لوالده مؤسس إيالة الجزائر الذي قدمها للسلطنة العثمانية على طبق من ذهب ، أم لما كان يتمتع به حسن باشا من صفات جعلته محبوباً لدى السلطات الحاكمة فأوكلت إليه هذا المنصب ؟ أو أن هناك اعتبارات أخرى لدى السلطة الحاكمة في الجزائر في ذلك الوقت ، على أية حال فإن عدم تقليد العثمانيين في الجزائر لأبنائهم من أمهات جزائريات يدل على عدم تقننهم بأنفسهم ، ويعكس

عنصريتهم تجاه الشعوب التي حكموها ، والتي أعطتهم الكثير من دون أن يعطوها أبسط حقوقها الطبيعية في بلادها التي احتلوها .

يمكننا أن نقسم تاريخ حكم حسن باشا لإيالة الجزائر العثمانية إلى فترتين: الأولى: امتدت بين عامي ١٥٤٤-١٥٥١ م ، حيث عين حسن باشا نائباً لوالده خير الدين في حكم الجزائر . وذلك بعد وفاة حسن آغا أو حسن الخادم كما تذكر بعض المصادر عام ١٥٤٤ م ، ثم رقي إلى منصب بكليك بعد وفاة والده عام ١٥٤٦م. وفيما يأتي أهم الأعمال التي قام بها أثناء الفترة الأولى من حكمه:

- ١- حصن مدينة الجزائر بعدما كشف هجوم شارلكان عام ١٥٤١م ضعف تحصيناتها (١٦) .

- ٢- عمل على تنظيم الجيش وتدريبه وإعداده إعداداً عسكرياً ، وفق أحدث الطرق الحربية المستخدمة في عصره .

- ٣- حسن الخدمات الصحية في مدينة الجزائر ، وأمر بتنفيذ بعض المشاريع العمرانية من أجل تجميل عاصمة الإيالة .

- ٤- أنشأ الحمامات العامة والمستشفيات في مدينة الجزائر (٧٠)

- ٥- أهتم بمسألة تلمسان والتوسع العثماني في الناحية الغربية من الإيالة . عندما تبين له أن الوجود الإسباني في وهران وبقاء الأسرة الزبانية يعقدان المشكلة . وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعد العدة لمهاجمة الإسبان في وهران تلقى خبر وفاة والده خير الدين ، الأمر الذي دفعه للعودة إلى الجزائر ، واستغل الإسبان هذه الحادثة وقاموا باحتلال مازغان .

- ٦- اتفق حسن باشا مع محمد الشيخ السعدي - الذي كان يعد العدة للقضاء على الحكم الوطاسي في المغرب العربي ، بعد علو نجم السعديين في المغرب - على تكوين جبهة موحدة لمواجهة الغزو الإسباني في المغرب العربي .

- ٧- أرسل حسن باشا ، تنفيذاً لهذا الاتفاق ، حملة مؤلفة من ١٤ ألف جندي من

الأتراك ورجال القبائل بقيادة حسن كورسو إلى مستغانم ، وكان على الطرفين أن يلتقيا في عين تيموشنت لتتوجها معاً نحو وهران ، وهناك يعدان حملة موجهة ضد الإسبان . ولكن المغاربة استغلوا هذا التحالف واستولوا على تلمسان عام ١٥٥٠م وعلى مستغانم ، وهذا أدرك حسن باشا بأن التوسع السعدي موجه ضد الأتراك وليس ضد الإسبان .

٨- شكل احتلال تلمسان من قبل المغاربة بداية العداء التركي المغربي فتحول التحالف إلى عداء ، وسارع حسن باشا إلى إرسال جيش تركي تمكن من استعادة تلمسان ومستغانم ، وطارد السعديين حتى نهر الملوية (٧١) .

٩- على الرغم من الانتصارات التي حققها حسن باشا في الناحية الغربية من إيالة الجزائر وسيطرته على تلمسان ، إلا أنه لم يفكر بالقضاء على الأسرة الزيانية ، بل اكتفى بتنصيب أمير زياني موالٍ للعثمانيين هو الحسن بن عبد الله الثاني ، الأمر الذي أبقى هذه الأسرة في حكم تلمسان لسنوات أخرى .

وعلى الرغم من كل هذه الأعمال التي قام بها لتوطيد الحكم العثماني في الجزائر ، إلا أنه استدعي بفرمان سلطاني إلى استانبول في أيلول من عام ١٥٥١م ، بسبب عدائه لفرنسا التي تربطها بالدولة العثمانية علاقات حميمة ، وكان ذلك بناء على وشاية دارامون سفير فرنسا في استانبول ، حيث ادعى أن فرنسا عرضت المساعدة العسكرية على حسن باشا وإرسال قطع من أسطولها الحربي لمساعدته في استعادة وهران من الإسبان ، لكنه رفض ذلك ، واستقبل الوفد الفرنسي استقبالا سيئاً (٧٢) .

تعكس هذه الحادثة متانة العلاقات العثمانية - الفرنسية ، التي وضع أسسها في معاهدة الامتيازات عام ١٥٣٥م كل من الملك الفرنسي فرانسوا الأول والسلطان العثماني سليمان القانوني ، إلى درجة دفع الدولة العثمانية إلى التخلي عن خدمات حاكمها على الجزائر حسن باشا ، بالرغم من الدور الذي لعبه في

توطيد السيطرة العثمانية على الجزء الغربي من إيالة الجزائر، وخاصة بعد ظهور العدو الجديد والقوي للدولة العثمانية المتربص بها على حدودها الغربية والمتمثل بقوة السعديين التي نالت دعم الطرق الصوفية للتخلص من الأسرة الوطاسية الضعيفة الحاكمة في البلاد، ومن المحتلين الإسبان .

٤- صالح ريس:

ولد صالح ريس في الإسكندرية، والتحق بمدرسة خير الدين البحرية، وعندما استدعي حسن باشا إلى استانبول بموجب فرمان سلطاني عين صالح ريس بكتربك على الجزائر ١٥٥٢م.

الأعمال التي قام بها صالح ريس:

نوجز هذه الأعمال في النقاط التالية:

- ١- عمل صالح ريس على توسيع النفوذ العثماني داخل إيالة الجزائر، وذلك بضم الواحات الجنوبية مثل نفرت وورقلة، وذلك للإشراف على طريق القوافل الإفريقية (٧٣).
- ٢- تمكن صالح ريس من القضاء على حكم الأسرة الزيانية في تلمسان وضمها إلى السلطة العثمانية عام ١٥٥٤م، ودخلت تلمسان في فلك السياسة العثمانية في المغرب العربي.
- ٣- استعاد صالح ريس حجر باندس (بنون دوفليز) المغربية من الإسبان، وسلمها إلى القبطان يحيى ريس الذي استخدمها كقاعدة عثمانية لشن الهجمات ضد الشواطئ والسفن الإسبانية (٧٤).
- ٤- بدأ التدخل العثماني في شؤون المغرب العربي عملياً في عهد صالح ريس، عندما لجأ السلطان الوطاسي أبو حسون إلى الجزائر، وطلب مساعدة صالح ريس ضد السعديين الذين احتلوا فاس للمرة الثانية عام ١٥٥٣ م.

استعد صالح ريس للمواجهة وأرسل حملة مع أبي حسون ، نجحت في دخول فاس ، وأعادت السلطان الوطاسي أبو حسون إلى الحكم ، فكانت المرة الأولى التي يدخل فيها الأتراك إلى مدينة فاس عاصمة المغرب . فلماذا لم يتمسك الأتراك بهذه المدينة التاريخية والدينية ؟ ولم يضموا انطلاقاً منها بقية مناطق المغرب العربي إلى الدولة العثمانية ؟ ، وخاصة أن الدولة الوطاسية الحاكمة آنذاك كانت ضعيفة وعاجزة عن مقاومة دولة قوية كالدولة العثمانية ؟ لماذا ضيع الأتراك فرصة وجودهم في فاس للسيطرة على المغرب ، خاصة وأن ضمها كان حلم يراودهم منذ وصولهم إلى المغرب العربي عن طريق عروج وخير الدين ؟ هل كان خروجهم من فاس بسبب قوة السعديين ، الذين أخذ نجمهم بالصعود ، الشعبية التي انطلقت من الجنوب المغربي بدعم وتأييد الطرق الصوفية ؟ هل كان الاتفاق الذي تم بين صالح ريس حاكم الجزائر والسلطان الوطاسي يقتصر على عودة هذا الأخير إلى عرشه فقط ؟ أم لخوف العثمانيين من التحالف الذي عقد بين الإسبان والسعديين ضدهم ، أم هناك ظروف أخرى منعت الأتراك من الاحتفاظ بالعاصمة المغربية واتخاذها قاعدة لاحتلال بقية الأجزاء المغربية ؟ هناك شيء واحد أكيد هو أن العثمانيين لم يتنازلوا بمحض إرادتهم عن استغلال هذه الفرصة لضم المغرب إلى الدولة العثمانية ، خاصة وأن احتلال هذه البلاد يعطيهم واجهتين بحريتين تمكنهم من تطويق عدوهم اللدود إيبانية وتهدد طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها الأمريكية.

٥- نجح صالح ريس في استعادة بجاية من الإسبان عام ١٥٥٥م دون أن يستطيع الملك الإسباني فيليب الثاني القيام بأي شيء ، وذلك بسبب إفلاس خزينته، واكتفى بإعدام حاكم إيبانية لتهدئة الرأي العام داخل مملكته .

٦- حاول صالح أن يقضي على التحالف السعدي-الإسباني الذي كان يهدف إلى طرد الأتراك من الجزائر ، وقرر مهاجمة وهران ، بعد أن أعلم السلطان

العثماني بذلك ، وحصل منه على دعم عسكري ، لكن الموت لم يمهل صالح ريس حيث قضى نحبه في غمرة استعدادته للتحرك نحو وهران ، وتسلم القيادة حسن كورسو بمبادرته الخاصة دون أن ينتظر الأوامر من استانبول ، وشرع على الفور بالزحف نحو وهران .

استاء السلطان العثماني من تصرف حسن كورسو ، وطلب منه إيقاف الحصار على وهران ، والعودة بالأسطول العثماني إلى البوسفور لمجابهة أسطول أندريه دوريا الإسباني (٧٥) .

٥ - محمد باشا:

عين محمد باشا حاكماً على إيالة الجزائر بعد وفاة صالح ريس ، وأحدث خبر تعيينه ضجة كبيرة وهيجاناً شعبياً ، وذلك لأن الانكشارية كانت ساخطة من انسحاب الأسطول العثماني أثناء حصار وهران . وحاول جند الانكشارية منعه من دخول مدينة الجزائر ، ونادوا بحسن كورسو حاكماً عليها ، لكن محمد باشا تمكن من دخول المدينة ، وألقى القبض على عدد من زعماء الرياس وأعدمهم ، كما أعدم قائد بجاية وقائد عنابة ، ونظراً لذلك أعلن الانكشارية خضوعهم وطاعتهم لمحمد باشا (٧٦) . استغل الانكشارية خروج البحارة للغزو ، وتحركوا بقيادة قائدهم يوسف ، واستولوا على المدينة واستحكماتها وأغلقوا الأبواب ، ولما سمع محمد باشا بذلك ترك مكان إقامته ولجأ إلى قرية سيدي يعقوب ، غير أن المتمردين لحقوا به وتمكنوا من قتله (٧٧) . وثأروا بذلك لبعض زعمائهم من الانكشارية الذين قتلهم محمد باشا عندما دخل إلى مدينة الجزائر عنوة .

٦ - حسن باشا:

عين حسن باشا حاكماً على إيالة الجزائر للمرة الثانية بناء على أوامر السلطان العثماني . ووصل إلى مدينة الجزائر في شهر حزيران عام ١٥٥٧م ، وكان يرافقه عشرون سفينة . وقد شكلت هذه القوة البحرية مع البحرية الجزائرية القوة العسكرية الكافية التي ساعدته في القضاء على نمرد الانكشارية

في إيالة الجزائر، واستطاع أن يعيد النظم والأمن إلى الإيالة بعد فترة الفوضى التي رافقت مقتل حاكمها محمد باشا . وامتنعت فترة حكمه الثانية بين عامي ١٥٥٧ - ١٥٦٧ م ، ويمكننا أن نلخص أهم الأعمال التي قام بها في هذه الفترة بالنقاط التالية :

١- عمل حسن باشا على تأسيس قوة عسكرية اعتمد عليها في ضبط تمرد الاتكشارية وتحل محلهم عندما تدعو الضرورة إلى ذلك ، حيث أنشأ قوة من العلوج ، ووضع علي قيادتها أحد أصدقاء والده القدامى ، وقد استخدم هذه القوة وبصورة مباشرة في حربه ضد المغرب الأقصى .

٢- وطد علاقته مع ابن القاضي سلطان كوكو ، أحد أهم زعماء القبائل في الجزائر ، عندما تزوج من ابنته ، وساعده هذا الزواج في تدعيم جبهته الداخلية أولاً ، ثم التوجه لمحاربة أعداء الخارج ثانياً ، واستعان بقوة ابن القاضي لمواجهة قوة زعيم قبلي آخر هو عبد العزيز بن العباس الذي أعلن استقلاله في بجاية (٧٨).

٣- واجه حسن باشا تحالفاً إسبانياً-سعدياً ، ونجح في التخلص من السلطان السعدي محمد الشيخ غمراً عام ١٥٥٧ م ، حيث أرسل له جماعة من الأتراك تظاهروا بالفرار من الجيش التركي ، وتمكنوا من كسب ثقته، واطمأن لهم ، فتآمروا عليه واغتالوه ، وأرسلوا رأسه إلى حسن باشا .

٤- أحبط حسن باشا هجوماً إسبانياً على مستغالم ، وألحق الهزيمة بقوات للقائد الإسباني دالكودايت الذي وقع اتفاقاً مع المغاربة لمهاجمة الأراضي الجزائرية ، لكن المغاربة لم يستطيعوا تنفيذ الاتفاق نظراً لعدم استكمال استعداداتهم ، الأمر الذي انعكس سلباً على حلفائهم الإسبان ، فلاحقت بهم كارثة حقيقية ، وقتل قائد حملتهم دالكودايت ، وأسر ابنه مارتن ، وأبدي الجيش الإسباني . وقد أدت هذه الهزيمة إلى امتناع الإسبان عن القيام بأي

عمل هجومي في غرب إيالة الجزائر ، واكتفوا بالدفاع عن مدينة وهران التي أصبحت محاصرة من قبل الأتراك (٧٩) .

٥- تمرد الانكشارية ضد حسن باشا رداً على تأسيسه قوة عسكرية من رجال القبائل، وقاموا في صيف ١٥٦١م باعتقاله وأعدائه ، وأرسلوه مقبداً إلى استانبول، ووجهوا إليه للتهمة بأنه كان ينوي القضاء على الأوجاق ، والاعتماد على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان . غير أن السلطان لم يصدق السلطان وشاية الانكشارية ، وأرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين وللقضاء على الفوضى ، حيث نجح في القضاء على زعماء التمرد وأرسلهم إلى استانبول، وقامت السلطات العثمانية هناك بإعدامهم .

٦- حاصر حسن باشا الإسبان في مدينة وهران وحاول إعادة الاستيلاء عليها ، لكنه لم ينجح بذلك ، وخسر الأتراك مدينة حجر باديس والمرسى الكبير تحت ضربات القلائد الإسباني أندريه دوريا ، الأمر الذي اضطرهم إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا خسائر مادية ومعنوية بالغة .

٧- محمد باشا بن صالح باشا:

حكم إيالة الجزائر، بعد أن استدعي حسن باشا إلى استانبول لقيادة الأسطول العثماني هناك ، وحصل على لقب بكليك من السلطان العثماني ، وكرس أعماله لخدمة الدولة العثمانية وفيما يأتي أهمها :

١- قضى على ظاهرة اللصوصية التي انتشرت في البلاد ، وذلك بسبب القحط والمجاعة والطاعون التي تعرضت لها البلاد (٨٠) .

٢- أستطاع أن يحل الخلاف القائم بين الانكشارية وطائفة الرياس ، وذلك عندما سمح لأفراد الانكشارية المشاركة في الحملات البحرية للحصول على

نصيب من الغنائم^(٨١) ، لكن هذا الأجراء لم يكن أكثر من حل مؤقت ما لبث أن تفجر الوضع بينهما.

٣- عمل على تحصين مدينة الجزائر من الناحية الغربية ، حيث قام ببناء برجين دفاعيين فيها .

٤- قضى على ثورة قسنطينة وقتل زعماءها الذين قاموا بقتل أفراد الحامية التركية فيها ، بتحريض من التوانسة ، وكانت هذه المجزرة التي ارتكبها بحق أهالي قسنطينة سبباً في عزله من منصبه وتعيين العليج علي في منصبه.

٨- العليج علي:

يعتبر العليج علي الشخصية الثانية - بعد خير الدين بربروس - في تمثيل السلطة العثمانية في إيالة الجزائر ، ووصفه المؤرخ أوغست برنار قائلاً: "... ما من أحد عمل أكثر من العليج علي في توطيد السلطة في الحوض الغربي للبحر المتوسط^(٨٢) . ولد العليج علي في كالابر (لا يعرف تاريخ ولادته) ، وعمل في البحر منذ حداثة سنه واكتسب من ذلك خبرة كبيرة في شؤون البحر . وقع العليج علي أسيراً بيد أحد البحارة الجزائريين (القراصنة) ، فاستخدمه مجدفاً على سفينته . كان العليج علي أقرعاً بالولادة ، وتعرض بسبب عاهته هذه إلى مضايقة وسخرية رفاقه المجدفين من الأسرى الأوربيين ، إلى درجة كانوا يتجنبون الطعام والجلوس معه . اعتنق العليج علي الإسلام ، ولا نعرف اسمه قبل ذلك ، وهناك روايتان أجبراته على ذلك :

الأولى: هي رغبة العليج علي في التخلص من المضايقات المزعجة التي كان يسببها له رفاقه من الأسرى الأوربيين .

الثانية: رغبته بالانتقام من أحد الأتراك الذي كان يعامله بقسوة وعدم أخلاقية ، وذلك عندما كان يعمل مجدفاً^(٨٣) .

بدأ نجم العليج علي في الصعود . وذلك عندما كان يقاتل الإسبان إلى جانب حسن باشا . حيث تمكن من إحباط هجوم إسباني على مستغانم عام ١٥٥٧م . ولقنت موارثه في أمور البحر انتباه رؤسائه ، فعينوه ضابطاً على إحدى السفن ، ولمعت شخصيته أثناء حصار مالطة . دفعت السمات الحميدة التي تميز بها العليج علي السلطات العثمانية في استانبول إلى تعيينه حاكماً على الجزائر ، بعد محمد باشا ومنحته لقب بكرك في عام ١٥٦٨م (٨٤) . وحسب ما أورده المصادر الغربية - وبشكل خاص السفير الفرنسي في استانبول الذي كانت تربطه به روابط صداقة - إنه كان يشعر بالحزن العميق ، على الرغم مما وصل إليه من جاه ومكانة عالية في الدولة العثمانية ، وكان يمارس شعائر الديانة المسيحية سرّاً ، وهذا ما خلق له مشكلة مع الانكشارية التي كانت تشك في صدق إسلامه . وتحرض الباب العالي على استدعائه من الجزائر ، لكن وفاء العليج علي ظهر في جميع المهمات التي أوكلت إليه من قبل السلطان العثماني ، وفي رفضه الانحياز إلى جانب فيليب الثاني ملك إسبانيا ، مما جعل السلطان يتأكد من إخلاص العليج علي له وللإسلام (٨٥) .

أعمال العليج علي:

برزت أعمال العليج علي والخدمات التي قدمها للسلطنة العثمانية في غرب المتوسط ، من خلال الصراع الإسباني - التركي في السيطرة على تونس ، حيث تمكن من استعادة تونس من أيادي الغزاة الإسبان وضمها من جديد إلى الامبراطورية العثمانية .

١ - الصراع العثماني - الإسباني على تونس:

سعى العليج علي إلى ضم المغرب العربي إلى السلطنة العثمانية ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ركز اهتمامه في بادئ الأمر لضم تونس واستعادتها من يد الإسبان ، وقد ساعده في تحقيق هذا المشروع عوامل عديدة من أهمها :

١- كانت الظروف في عهد العلي ملاتمة للقيام بعمل ضد الإسبان في تونس، فقد تمكن القبطان طرغوث من الاستيلاء على طرابلس ، ووضع نفسه تحت تصرف الدولة العثمانية وأصبح والياً على طرابلس عام ١٥٥١م، وبدأ طرغوث يتوغل في الأراضي التونسية على حساب الحفصيين ، ونجح عام ١٥٦٠م في إلحاق هزيمة بالإسبان الذين احتلوا جزيرة جربة عام ١٥٥٩م ، وذلك بمساعدة الأسطول العثماني .

٢- أصبحت تونس ، بعد سيطرة طرغوث على طرابلس ، بين فكي كماشة تحيط بها القوة العثمانية في الجزائر وطرابلس .

٣- ضعف الأسرة الحفصية وتزايد نفمة السكان على قوات الاحتلال الإسباني في حلق الوادي .

٤- انشغال إسبانيا بثورة مسلمي غرناطة التي انفجرت عام ١٥٦٩م ، وثورة الأراضي المنخفضة ضد السيطرة الإسبانية .

٥- حدوث خلاف بين السلطان الحفصي أبي العباس أحمد وبين وزيره أبي الطيب الذي اتصل بالعليج علي يحرضه على احتلال تونس . فاستغل العليج علي هذه الفرصة لتحقيق حلمه في ضم تونس .

٦- انشغال إسبانيا بالحرب الدينية في فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت ، مما اضطرها إلى إبقاء قوات كبيرة في القارة الأوروبية ، وذلك لحل المشكلات الناجمة عن ثورة هولندا والصراع الديني .

استغل العليج علي هذه الظروف الداخلية والدولية وهاجم تونس عام ١٥٦٩م ، وهزم الحفصيين في سهل باجة ، ولم يجد أية مقاومة تذكر من قبل التونسيين ، عندئذ فر السلطان الحفصي تاركاً العاصمة تونس ولجأ إلى الإسبان في حلق الوادي . فقطف العليج علي ثمار نصره ، وأخذ البيعة إلى السلطان العثماني ، وتصب أحد قاداته ويدعى رمضان حاكماً عليها ، وأبقى فيها حامية عسكرية عثمانية (٨٩) .

٢- نتائج سقوط تونس بيد العثمانيين:

١- سهلت السيطرة على تونس الاتصال بين الدولة العثمانية في استانبول وولاياتها في غرب البحر المتوسط سواء عن طريق البر أم عن طريق البحر.

٢- ساعد سقوط تونس العثمانيين على التحكم في المضيق الصقلي ، وتهديد إيطاليا وطرق مواصلاتها مع إسبانيا .

٣- رافق سقوط تونس هجوم العثمانيين على قبرص التابعة للبندقية واحتلالها عام ١٥٧٠م ، حيث تمكن العثمانيون من السيطرة على العاصمة نيقوسيا . وذلك بعد أن حدث انفجار في مخزن أسلحة البندقية على يد ميكاس اليهودي صاحب السلطان العثماني ؛ والذي تلقى وعداً من السلطان بحكم قبرص . وكان ميكاس يحقد على البندقية التي صادرت جزءاً من أملاك زوجته (٨٧) . وجاء رد الفعل الأوربي عامة والبندقي بشكل خاص في معركة ليبانت عام ١٥٧١ .

٣- معركة ليبانت:

أ- أسباب المعركة:

ترجع أسباب هذه المعركة ، التي كانت ضربة موجعة للدولة العثمانية ، إلى مايلي :

١- كانت المعركة رداً على الهجمات التركية الموجهة ضد المصالح الأوربية ، وذلك سواء في الحوض الغربي للمتوسط (احتلال تونس) أو في حوضه الشرقي (انتزاع قبرص من يد البنادقة) .

٢- تلاقي مصالح الإسبان والبنادقة ، ودخولهم في حلف مشترك بتشجيع من البابا لمحاربة الأتراك العثمانيين .

- ٢- العمل على تفويض النفوذ العثماني في الحوض الغربي للمتوسط .
- ٤- رغبة إسبانيا في الانتقام من العثمانيين المسؤولين عن قيام ثورة المسلمين في غرناطة عام ١٥٦٩م (٨٨) .
- ٥- نجاح إيطاليا وإسبانيا والبندقية بتوقيع حلف مقدس بمساعي البابا بيوس الخامس الذي نجح في تقريب وجهات نظر الإسبان والبنادقة ، في مباحثاته مع فيليب الثاني حيث أوضح له الفوائد المالية والسياسية لهذا الحلف ، فالبنديقية هي حدود المسيحية وحصنها الأمامي ، وبين له أن عقد هذا الحلف سيجعل البندقية برجالها وأسلحتها وأسطولها تحت خدمته ، ونجح البابا في عقد تحالف بين إسبانيا والبنديقية في أواخر أيار من عام ١٥٧١ (٨٩) .

ب- أحداث الحرب :

أرد فيليب أن يوجه هذا التحالف ضد العثمانيين لاسترداد تونس أولاً ، وقد اصطدم رأيه مع البابا والبنديقية عندما أصرا على أن يبدأ الحلف عمله في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وإنقاذ قبرص من الاحتلال العثماني .

اتفق رأي الحلفاء أخيراً على مهاجمة تركية في شرق المتوسط ، ولكن الاستعدادات العسكرية ، وتجميع قطع الأساطيل الخاصة بهم استغرقت صيف عام ١٥٧١م كله ، الأمر الذي أدى إلى تأخير المعركة حتى الخريف من العام نفسه ، وكان على رأس قوات الحلفاء الدوق جوان النمساوي الابن غير الشرعي لشارلكان ، وكان على قدر كبير من المسؤولية والقيادة والهدف (٩٠) .

أبحر أسطول الحلفاء للبحث عن الأسطول العثماني في الحوض الشرقي للمتوسط، في حين أمضى الأسطول العثماني مع سفن العليج علي حاكم الجزائر الصيف في غارات متواصلة على جزيرة كريت وسواحل دالماسيا ، ثم انسحب إلى مودون لمراقبة تحركات الحلفاء (٩١) . التقى الأسطولان أخيراً في خليج ليبانت في تشرين الأول من عام ١٥٧١م ، وتمكن الحلفاء من تحقيق نصر

حاسم على الأسطول العثماني ، ولم ينج سوى ثلاثين أو أربعين سفينة بقيادة العليج علي الذي استطاع الاستيلاء على سفينة القيادة التابعة لفرسان القديس يوحنا وحمل رايتهم ، وكوفئ نتيجة ذلك من قبل الدولة العثمانية بلقب عليج ، وعين قبطان باشا للأسطول العثماني . في حين قتل الأميرال العثماني قائد الأسطول ، واستولى دون جوان على راية الأسطول العثماني ، وأرسلها إلى بلاده كشهادة على انتصاره (٩٢) . وغرق ما بقي من سفن الأسطول العثماني في مياه البحر أو أسر ، وقام الحلفاء باقتسام السفن التي نجت من الغرق .

لماذا لم يلاحق أسطول الحلفاء العليج علي الذي هرب ببعض السفن ، ولماذا اكتفوا بهذا النصر ؟ يجيب بروديل على هذا السؤال ويعيد ذلك إلى الأسباب التالية:

أ- حالت الخسائر الكبيرة التي مني بها أسطول الحلفاء دون متابعة الأسطول العثماني الهارب .

ب- لعبت الظروف الجوية دوراً هاماً في ذلك .

ج- دفع نقص المؤونة والرجال قائد أسطول الحلفاء دون جوان إلى التخلي عن القيام بحملة مباشرة على الدردنيل لإغلاق المضيق (٩٣) .

ج- نتائج المعركة:

١- شكل هذا النصر ضربة كبيرة للتفوق العسكري التركي في الحوض الشرقي المتوسط.

٢- دفع هذا النصر الإيطاليين والإسبان إلى التفكير في مشاريع مستقبلية لمهاجمة المغرب العربي والعمل على طرد الأتراك العثمانيين منه .

٣- ذهب حلم البايوية ، بعد هذا النصر ، إلى أبعد من ذلك وبدأت تزلزلها أحلام استعادة القسطنطينية والسيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين .

٤- فشل الحلفاء أمام مودون ، على الرغم من انتصار ليبانت ، وفشلت عملية إزلالهم في نافارين لضرب مودون ، وعاد الأسطول العثماني إلى الظهور

من جديد في المياه الإيطالية عامة والحووض الشرقي للمتوسط .

٥- انسحاب البندقية من الحلف المقدس عام ١٥٧٣م ، وخسرت جزيرة قبرص التي أصبحت تحت السيطرة العثمانية ، وراحت تبحث عن السبل الكفيلة باستمرار تجارتها معها . وتدخل الفرنسيون بين الطرفين لتخفيف الشروط التي فرضها العثمانيون ، وأخيراً اضطروا إلى قبول الشروط العثمانية للقاسية ^(١٤) .

٤- احتلال الإسبان لتونس عام ١٥٧٣ م :

لم تكن أطماع الإسبان في تونس وليدة اللحظة ، فقد شاركوا احتلالها عام ١٥٣٥م ، وبقيت تحت سيطرته حتى تمكن العثمانيون من استرجاعها عام ١٥٦٩م في عهد العلي ، وقد بينا الأسباب الاستراتيجية التي دفعت الإسبان إلى احتلال تونس والسيطرة عليها ، ودخولهم حلبة الصراع ضد الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط .

بعد انسحاب البندقية من الحلف المقدس عام ١٥٧٣م قرر ملك إسبانيا فيليب الثاني مهاجمة المغرب العربي ، لكن قاذبه اختلفوا في تحديد البلد الذي سيكون الهدف الأول ، وحسم الأمر أخيراً بمهاجمة تونس وإعادة احتلالها ، فعين دون جوان قائداً لحملة الغزو ، وكان له أطماعه الشخصية التي شجعها البابا بيوس الخامس عندما وعده بحكم أول دولة يتم لنزاعها من أيدي العثمانيين ^(١٥) . أكمل الدوق جوان استعداداته للحملة ، وبذل قصارى جهده لجمع أكبر عدد من الجنود ، وأبحر في السابع من تشرين الأول من عام ١٥٧٣م نحو تونس .

لستطاع الإسبان احتلال تونس دون مقاومة تذكر ، وانسحب الحاكم العثماني إلى القيروان ، وأبدى الإسبان رغبتهم في المشاركة الحقيقية والفاعلة في حكم تونس ، لكن السلطان الحفصي أبو العباس أحمد رفض ذلك ، في حين قبل ابن أخيه محمد بن الحسن الشروط الإسبانية ^(١٦) . اختلف الرأي العام الإسباني حول وضع تونس وانقسم إلى اتجاهين :

الأول: ويرى ضرورة الاحتفاظ بتونس ، وإبقاء قوة عسكرية وتعيين حاكم إسباني يقيم مع السلطان في القصبة ، ويساعده في إدارة حكم البلاد (٩٧) .

الثاني: تبناه الملك فيليب نفسه ويرى ضرورة تدمير الحصون الدفاعية التونسية بما فيها حصن حلق الوادي ، وتعيين أسير تونسي موالٍ للإسبان ، وبرر فيليب الثاني رأيه بالأسباب التالية :

١- الضائقة المالية التي تعاني منها إسبانيا ، الأمر الذي يعيق تمويل القوات الإسبانية المرابطة في تونس .

٢- رغبته في توجيه قواته من أجل توطيد الحكم الإسباني في الأراضي المنخفضة .

٣- الرغبة في إقامة السلام والأمن في البحر المتوسط .

غير أن احتفاظ الدوق جوان بتونس أدى إلى تحييد رأي فيليب الثاني ووضعه تحت الأمر الواقع ، عندما بين له أعوان جوان أن احتلال تونس لا يكلف شيئاً ، وإن تمويل الحاميات الإسبانية سيكون على حساب تونس ، ناهيك من أن بقاء الإسبان في تونس سيقطع الطريق على الأتراك العثمانيين في الوصول إلى الجزائر براً وبحراً . لكن فيليب الثاني لم يأخذ بكل هذه المبررات لبقاء الإسبان في تونس رغم عرضها عليه من قبل أعوان جوان ، واتخذ قراراً بإبعاد الدوق جوان عن تونس وعن قيادة الأسطول الإسباني وعينه نائباً عنه في إيطاليا ، وقد أدى عزل الدوق جوان عن قيادة الأسطول إلى نتائج خطيرة على قوة الامبراطورية الإسبانية عامة وأسطولها الحربي بشكل خاص .

٥- الموقف العثماني من إعادة احتلال تونس من قبل الإسبان :

كان الرد العثماني سريعاً وحاسماً ، وتكرّكت السلطة العثمانية ضعفها ، حيث عمل العنّج علي قائد الأسطول العثماني على اتخاذ التدابير والاجراءات السريعة والناجعة لتقوية أسطولها وأهمها :

١- إعادة بناء الأسطول العثماني على نحو أحدث ، وتدارك مواطن الضعف التي ظهرت في سفنه أثناء معركة ليبانت .

٢- استدعاء أفضل رؤساء طائفة الرياس وتوزيعهم على ورشات السفن .

٣- إعداد البحارة إعداداً جيداً وتدريبهم على الأسلحة النارية (١٨) .

وأصبح الأسطول العثماني خلال عامين فقط من الإصلاح جاهزاً لخوض الحرب مع الإسبان ، وقد تنبه الأوروبيون إلى ذلك ، فطلب البابا من فيليب الثاني ملك إسبانيا العمل على جر العليج علي إلى صفه ، عن طريق إغرائه بمنصب في إسبانيا أو في صقلية ، لكن العليج علي رفض ذلك وأبدى تصميمه على محاربة الإسبان .

توجه الأسطول العثماني نحو تونس وعلى متنه ٤٠ ألف جندي بقيادة العليج علي وسنان باشا، ودعمت قوة الأسطول بقوات عثمانية جاءت من الولايات العثمانية الثلاث في المغرب العربي. نجحت القوات العثمانية في تطويق الإسبان والسيطرة على حلق الوادي، وذلك بعد حصار استمر لمدة شهر واحد. تابع سنان باشا زحفه للسيطرة على كامل الأقاليم التونسية، وأعلن بذلك نهاية الحكم الحفصي عام ١٥٧٤م، ونقل آخر سلاطين السلالة إلى استانبول (١٩).

٦- نتائج إخراج الإسبان من تونس عام ١٥٧٤م:

١- حسم العليج علي الصراع الإسباني-العثماني في غرب المتوسط لصالح الأتراك .

٢- أحدث سقوط تونس دويماً هائلاً في أوروبا .

٣- تخلى الإسبان نهائياً عن فكرة إعادة احتلال تونس وتخليصها من أيدي العثمانيين ، بسبب المشكلات التي تعرضت لها الامبراطورية الإسبانية .

٤- عوض فيليب الثاني عن خسارته لتونس بضم البرتغال إلى إسبانيا ، وذلك

إثر هزيمتها على يد القوات المغربية ومقتل ملكها في معركة وادي المخازن التي جرت في المغرب العربي عام ١٥٨٠ م .

٥- عقد العليج علي هدنة رسمية مع الإسبان في المغرب العربي عام ١٥٨١ م ، وحدثت عام ١٥٨٤ م ، ثم عام ١٥٨٧ م (١٠٠) .

٦- اهتم العليج علي بعد توقيع الهدنة مع الإسبان بالحرب في بلاد فارس والمياه العربية لمواجهة البرتغاليين ، ولقي صعوبة كبيرة في تأسيس قوة بحرية عثمانية في البحر الأحمر .

وقد شهد عام ١٥٨٧ م نهاية عهد البكركوات (أمير الأمراء) في إيالة الجزائر، والذي شهدت فيه الجزائر أفضل أيام تاريخها العثماني كدولة مرهوبة الجانب ، واستطاعت أن تشيع الرعب والخوف في قلوب جميع الدول الأوروبية وحكامها ، وخاصة في الحوض الغربي للمتوسط ، وقد أصبح أغلب حكام هذه الإيالة في هذه الفترة قادة للأسطول العثماني برمته ، وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على الثقة التي كان يتمتع بها حكام هذه الإيالة ؛ والعلاقات الحميمة التي كانت تربطهم بالسلطات الحاكمة في استانبول ، وعلى مقدرتهم وشجاعتهم وحسن تدريبهم للبحارة وخبرتهم في شؤون البحار والسواحل الأوروبية المعادية، وعلى الرغم من محاولة ملوك إسبانيا (العدو اللدود للدولة العثمانية) ، استمالة قادة الأسطول العثماني وخاصة خير الدين بربروس والعليج علي ، إلا أن هؤلاء رفضوا المغريات التي عرضت عليهم وظلوا أوفياء للدولة العثمانية .

٢- مرحلة حكم الباشوات (١٥٨٧-١٦٥٩ م):

اتخذت السياسة العثمانية ، بعد وفاة العليج علي ، منحى جديداً في سبيل إدارة ولاياتها في المغرب العربي ، فعملت على تحويل الجزائر إلى -سوية- ، حيث عينت على رأسها باشا يتم إرساله من استانبول لمدة ثلاثة أعوام ، ويرجع

السبب في اتباع هذه السياسة إلى سايي :

١- خوف السلطة العثمانية الحاكمة من محاولة البكاريكوات الاستقلال عن استانبول (١٠١).

٢- رغبة الدولة العثمانية في توطيد نفوذها في المغرب العربي ، وذلك بعد أن كانت شبه مستقلة إدارياً في العهد السابق .

٣- حسم النزاع الإسباني - التركي في غرب المتوسط لصالح الأتراك ، فتبادر إلى أذهان رجال الساسة العثمانيين إمكانية إدارة هذه الإيالة عن طريق موظفين ليس لهم سند محلي أو سياسي يعتمدون عليه في حكم الجزائر .

أعطت هذه السياسة العثمانية نتائج سلبية ، فلم يلق الباشوات أي احترام من قبل الطائفتين المسيطرتين على الأوضاع في الجزائر (الانكشارية وطائفة الرياس) . ففي الوقت الذي كان فيه الرياس يخرجون إلى البحر لممارسة النشاط البحري (القرصنة) ، دون أخذ الأوامر من الباشا ، وزاد تطاول الانكشارية على الباشوات والأهالي معاً ، بمعنى آخر كان هذا العهد بداية الصراع بين طائفتي الرياس (رجال البحر) والانكشارية (الجيش البري) ، وقد تطور الصراع في المستقبل وأضاع الإيالة الجزائرية وأضعفها مادياً ومعنوياً .

ازداد نفوذ الديوان وراح يتدخل في قرارات الباشا ، حيث تجلى ذلك في فاتحة صيغة إعلان الباشا أوامره الرسمية : " ...نحن باشا وديوان ميلشيا الجزائر التي لا تغلب " (١٠٢) . إن تدخل الجند وتسلطهم على أمور الباشوات وإملاء رغباتهم في اتخاذ القرارات الباشوية جر البلاد إلى حالة من الفوضى والاضطراب ، وتعاقب على الحكم خلال هذه المرحلة أكثر من أربعين باشا أرسلتهم استانبول ، وتعرض الكثير منهم للسجن والعزل وأحياناً كثيرة للقتل . وانتشرت الرشوة في عهد الباشوات ، حيث كانوا يشترون مناصبهم بالمال والهدايا ، وكان همهم الوحيد جمع الثروة خلال مدة حكمهم القصيرة نسبياً ، وقد أزهقوا البلاد والعباد بجشعهم وفرض الضرائب على الرعية .

شهدت مرحلة الباشوات عدداً من الثورات التي هزت كيان السلطة العثمانية في الجزائر ، وانهكت بالتالي مقدراتها الاقتصادية والعسكرية ، ونستعرض فيما يأتي الثورات والصراعات التي شهدتها الجزائر في تلك المرحلة:

١- ثورة القولوغلية:

تعود أسباب الثورة إلى بداية الوجود العثماني في الجزائر ، ونلخصها في النقاط الرئيسية التالية :

أ- سياسة العزلة والعنصرية التي اتخذها العثمانيون تجاه القولوغلية (هذه الفئة الاجتماعية المنحدرة من زواج الأتراك من أسهات جزائريات) .

ب- حرمان القولوغلية من حقوقهم العسكرية والمدنية في شغل الوظائف الكبرى، ومنحهم دوراً عسكرياً بسيطاً يخضع لمراقبة الضباط الأتراك .

ج- ساعد تدهور الأوضاع السياسية في الجزائر في عهد الباشوات ، القولوغلية على القيام بالثورة ضد السلطة الحاكمة .

د- تسليح القولوغلية والأهالي من قبل حاكم الجزائر خضر باشا ، من أجل كسر شوكة الانكشارية والتخلص منهم .

دفعت هذه الأسباب بالقولوغلية إلى إعلان الثورة ضد الانكشارية ، وذلك بتشجيع من خضر باشا وأهل مدينة الجزائر من السكان المحليين (البلديين) ، ونالت هذه الثورة أيضاً الدعم من بلاد القبائل . وغرقت مدينة الجزائر بالدماء لمدة أشهر كاملة ، ولم تستطع هذه الثورة أن تحقق جميع أهدافها ، وفيما يأتي أهم نتائجها:

١- أجبرت الثورة جلد الانكشارية على تخفيف غلوائهم في معاملة أفراد هذه الفئة الاجتماعية .

- ٢- نشوء تحالف قوي بين القولوغلية والقبائليين هدد السلطة العثمانية بشكل مباشر، الأمر الذي دفعها إلى اتباع سياسة جديدة لمعالجة هذا الوضع الجديد.
- ٣- انعكست هذه الثورة كغيرها من الثورات على الوضع الاقتصادي والاجتماعي والأمني لإيالة الجزائر عامة ومدينة الجزائر بشكل خاص، مما أدى بالتالي إلى تعرضها لضربات السلطة الحاكمة المتربصة بها.
- ٤- كان بمقدور حاكم الجزائر خضر باشا - لو أظهر مزيداً من الجراءة والحزم- أن يتخلص عن طريق هذه الثورة من فوضى الانكشارية، وأن يقيم سلطة الباشوات بالاعتماد على جيش وطني (١٠٣).
- عادت القولوغلية إلى الثورة من جديد في عام ١٦٣٣م، وذلك بعد أن اتخذ ديوان الانكشارية قراراً بطردهم من مدينة الجزائر نتيجة تزايد عددهم حيث أصبحوا يشكلون خطراً على نفوذ الانكشارية. فقد خرج أفراد هذه الفئة من مدينة الجزائر، وتجمعوا في ضواحيها، ثم دخلوها متكرين بزي الفلاحين، وهاجموا معسكرات الانكشارية على حين غرة، ونالوا تأييد الأهالي غير أن ثورتهم للأسباب التالية:
- أ- اختيار القولوغلية الوقت غير المناسب لثورتهم.
- ب- عدم حصولهم على دعم طائفة الرياس، العدو اللدود للانكشارية، لأن عناصرها خرجت لغزو السواحل الأوربية.
- ج- تنبه الانكشارية لخطر القولوغلية ومطاردتهم، الأمر الذي دفعهم إلى اللجوء إلى القصبية في محاولة للاستيلاء على مستودعات الأسلحة.
- على أية حال، فشلت الثورة ولم تحقق أهدافها، وحدث انفجار في أحد مستودعات البارود نسف القلعة ودمر عدداً كبيراً من المنازل، وأبيد نتيجة لذلك عدة آلاف، وقتل الانكشارية عدداً كبيراً من الثوار (١٠٤).

٢- ثورة بلاد القبائل عام ١٦٤٣م:

سعت بلاد القبائل - منذ دخول الأتراك العثمانيين - إلى الحفاظ على استقلالها وسيادتها ، وذلك بقيادة زعمائها المحليين من آل القاضي وبني العباس . شكلت هذه المناطق إرباكاً للعثمانيين في عصر البربريات الذين نجحوا باستخدامهم -سلاحى الدبلوماسية تارة والقوة تارة أخرى- في الحصول على ضرائب كانت تدفعها هذه القبائل مقابل استقلالها في إدارة أمورها الخاصة ، لكن هذا الخضوع بقي مؤقتاً ، وكان يحمل في طياته بذور الاستقلال من هذه السياسة الضرائب العثمانية .

ولم يستمر الحال على هذا المنوال ، فقد استغلت القبائل ضعف السلطة الحاكمة في عهد الباشوات ، وعندما توفرت لها الظروف والمناسبة قامت بالثورة للأسباب التالية :

١- فرض الباشوات سياسة ضريبية سنوية كبيرة لم يقبل بها زعماء القبائل والأهالي .

٢- طرد الانكشارية عدداً كبيراً من البرانيين (سكان المناطق الأخرى الوافدين إلى مدينة الجزائر من أجل العمل) من مدينة الجزائر .

٣- حل كتائب الزواوة الذين ينتمون إلى بلاد القبائل - أصحاب الخبرة في السلاح - وقد بلغ عدد هؤلاء في عام ١٥٨٠م حوالي ١٥٠٠ رجل .

٤- تشجيع الإسبان لبلاد القبائل على الثورة من أجل الحصول على بعض المواقع الساحلية .

أعلنت بلاد القبائل إلى إعلان الثورة على السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر ، وجاءهم الدعم من القلوغلية وطائفة الرياس ، بعد المصاهرة التي تمت بين القبائل وأحد زعماء طائفة الرياس وهو علي بتشليلن الذي تزوج ابنة سلطان كوكو، وأحاط نفسه بحرس من قبائل زواوة.

ألحقت القبائل الهزيمة ولأكثر من مرة بالأتراك العثمانيين ، واجتاحت سهل المنيجة، وقطعت طريق المواصلات بين الجزائر العاصمة وبيلكية الشرق، وفرضت الحصار أكثر من مرة على مدينة الجزائر مقر السلطة العثمانية الحاكمة، وأسفرت الثورة عن النتائج التالية :

أ- انتشار الفوضى وزعزعة كيان الحكم العثماني في مدينة الجزائر وغيرها من مناطق الإيالة .

ب- تناقص عائدات الضرائب التي كانت تجبي من داخل الإيالة ، الأمر الذي انعكس سلباً على الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد .

ج- بداية نشوء الخلاف الحقيقي بين الانكشارية وطائفة الرياس ، فقد سعت الأخيرة إلى إيجاد قوة داخلية توليها قوة الجند لتمنعهم من الانفراد بالسلطة .

د- دعم طائفة الرياس للقبائل أحياناً وللقبائل أخرى ، لإضعاف سلطة الانكشارية وللتقليل من دورها السياسي في البلاد .

هـ- حدوث خلاف بين عاصمة السلطنة العثمانية وطائفة الرياس الجزائرية ، التي قدمت المساعدة للشوار ، وأدى ذلك إلى زعزعة الأمن في البلاد ، وتجلّى ذلك بوضوح في عام ١٦٤٤م عندما امتنعت الطائفة عن مشاركة البحرية العثمانية في مهاجمة مالطة .

كان باشوات الجزائر يشترون مناصبهم بالمال ، وكان مهم الوحيد جمع الثروة ، حيث كانت واجبات الباشا ومهامه تسمح له بالتهب لأنه كان موكلاً بدفع رواتب الجند وتجهيزاتهم (١٠٥) . وقد استغل الباشوات هذه المهمة ، حيث كانوا يتأخرون أحياناً في دفع رواتب الجند ، ويفرضون مبالغ محددة على علماء الدين وعدول المحكمة ، وأرهبوا كاهل الرعية بسياستهم الضريبية ، الأمر الذي انعكس عليهم وكان سبباً كافياً في تجريدهم من سلطاتهم عام ١٦٥٩م . ومنذ

ذلك التاريخ أدارت الجزائر ظهرها لعاصمة السلطنة العثمانية ، واتبعت سياسة مخالفة لسياسة الدولة العثمانية ، وكان ذلك ناجماً عن تسلط ديوان الجند على الباشوات ، وتمرد البحرية على أوامر السلطان وعدم مشاركتها في حربه ضد مالطة ، مما أدى إلى فشل الهجوم العثماني ، الأمر الذي دفع السلطان إلى شراء رضا البحرية الجزائرية ، وذلك بتخصيص مبلغ سنوي لها من المال مقابل اشتراكها في العمليات القادمة (١٠٦) .

وهكذا انتهت مرحلة حكم الباشوات الذين كانت ترسلهم استانبول من أجل تشديد قبضتها على إيالة الجزائر ، لكن حلمها لم يتحقق ، فقد شهدت الجزائر في عهدهم ثورات وتمردات كثيرة ؛ وانتشرت الفوضى السياسية والأمنية ، كما بينا فيما سبق ، وانعكست آثارها السلبية على جميع نواحي الحياة في داخل إيالة الجزائر ، ولعب أعداء الخارج دوراً هاماً في استغلال هذه الثورات لتحقيق مطامعهم الاستعمارية ، حيث تحالف الإسبان مع سلطان كوكو فقدمت له الدعم والمساعدة ضد السلطة العثمانية الحاكمة في البلاد .

٣- مرحلة حكم الأغوات (١٦٥٩ - ١٦٧١ م) :

أما كلمة فارسية الأصل استعملها الأتراك كلقب شرقي بمعنى العظيم أو الأمر والرئيس ، ويمكن أن تستخدم للدلالة على الشيخ أو السيد ، ولها معانٍ أخرى غير ذلك في لغة الدولة العثمانية القديمة (١٠٧) .

يمثل عهد الأغوات مرحلة سيطرة الجيش (الانكشارية) على الحكم في إيالة الجزائر ، وهي الفترة التي تعتبر من أصعب الفترات السياسية التي مرت بها الجزائر في العهد العثماني . اتخذ الديوان العسكري الجزائري من السياسة المالية التي اتبعتها الباشوات ، ومن محاولة آخرهم الباشا إبراهيم أخذ العشر من المساعدات التي كان السلطان العثماني يرسلها لدعم الأسطول الجزائري وتقويته

ضد الهجمات الأوربية (١٠٨) ، أربعة للقضاء على حكومة الباشوات التي كانت ترسلهم استانبول لحكم إيالة الجزائر ، وانتزعوا السلطة من الباشا ، وتم استبداله بأحد زعمائهم من الجند (الأغا) ، وحرموه من الامتيازات الحكومية التي كان يتمتع بها ، مثل : دفع معاشات الجند وتعيين القواد ، وممارسة القضاء على الرعية ، ولم يبق للباشا من السلطة إلا اللقب الشرفي (١٠٩) . لم يكف ديوان الجند بذلك بل وضعوا الباشا إبراهيم وحاشيته الحاكمة في سفينة وأجبروهم بالعودة إلى أزمير (١١٠) .

بدأ الأغوات منذ عام ١٦٥٩م يمارسون السلطة التنفيذية في إيالة الجزائر ، وأصبح لقب الباشا فخرياً وتشريفاً للحاكم . أعلنت الحكومة الجزائرية الحديثة استانبول بنظامها الجديد ، وذلك عن طريق إرسال كتاب رسمي ، وطلبت تصديق الباب العالي عليه . قبل السلطان العثماني هذا النظام ، مع تحفظه على تنفيذ بعض الشروط من جانب هذه الحكومة الجديدة أهمها :

أ- تقوم الحكومة الجديدة بدفع نفقات ورواتب الجند وضباطهم .

ب- دفع مرتبات جميع موظفي الحكومة المندبين .

وبذلك حصلت الحكومة الجزائرية على نوع من الاستقلال الذاتي عن

إدارة الامبراطورية العثمانية (١١١) .

كانت مدة حكم الأغا شهرين فقط ، ويخلفه في منصبه أكثر العساكر قدماً ، وقد فسر هذا الأمر لدى البعض على أنه انقلاب من جانب الانكشارية على طائفة الرياس التي كانت تتمتع باحترام ونفوذ كبيرين في عهد الباشوات (١١٢) ، وقد اعتبر البعض نظام حكم الأغوات هو محاولة لإيجاد نوع من التوازن داخل المؤسسة العسكرية المسيطرة على إدارة إيالة الجزائر ، والمتمثلة بالانكشارية والرياس ، إلا أن الأغوات فشلوا في المحافظة على الاستقرار الساسي في إيالة الجزائر ، حيث كانوا أنفسهم عرضة لتمرّد الجند والطائفة وبلاد القبائل ، وكانت النتيجة اغتيال

جميع الأغوات الذين حكموا الجزائر بين ١٦٥٩ - ١٦٧١م، وأكبر دليل على الفوضى السياسية التي حلت في البلاد اختيار الجند خمسة أو ستة أغوات خلال ثلاثة أيام، ولكن المنتخبين امتنعوا عن استلام هذا المنصب خوفاً على حياتهم من بطش الجند (١١٣). وهذا يعكس حالة الفوضى وانعدام الأمن. وحمل هذا النظام بزور زواله منذ البداية، ولم يستمر سوى لثني عشر عاماً.

توقع ممثلو الدول الأوروبية في الجزائر - وهم يعرفون العداء الظاهر بين الفئتين العسكريتين المسيطرتين في الجزائر - أنه مع استلام الانكشارية للسلطة في الجزائر سوف تتحسن أحوالهم التجارية معها ، وسيكون هذا الحكم ضربة لهجمات البحرية الجزائرية ضد سفنهم وسواحلهم .

بدأ الأغوات بداية جيدة في هذا المجال ، وأصدر ديوانهم عدة قرارات تتعلق بخفض الرسوم والتعرفة الجمركية على البضائع الداخلة والخارجة من وإلى إيالة الجزائر ، وكان الأغوات يتبعون سياسة تشجيع التجارة بين الجزائر والبلاد الأوروبية ، ولكن استجدت عوامل عديدة أدت إلى منع حكومة الأغوات من متابعة السياسة التي اتخذوها في هذا المجال ، ويمكننا أن نوجز هذه العوامل في النقاط التالية :

١- عدم قدرة الأغوات على وقف الهجمات التي تقوم بها البحرية الجزائرية ضد سفن الدول الأوروبية وسواحلها ، ويرجع ذلك إلى نقطتين جوهريتين : أولهما ، ارتباط وجود أوجاق الجزائر بشكل متين بموارد النشاط البحري (القرصنة) التي تشكل دعامة أساسية لوجود الحكومة ، وثانيهما ، عجز الأغوات عن فرض سلطتهم على رياس البحر وإجبارهم على الامتثال لأوامرهم .

٢- عدم اتخاذ الدول الأوروبية أية مبادرة تدل عن حسن نيتها تجاه السياسة المعلنة من قبل الأغوات بخصوص التجارة معها ، فقد استمرت السفن

الأوربية تهاجم سفن البحرية الجزائرية في عرض البحر دون أي إنذار مسبق ضاربين عرض الحائط بالمعاهدات الموقعة بينها وبين الحكومة الجزائرية ، كما لم يلتزم التجار الأجانب بالتعليمات الصادرة عن الحكومة الجزائرية وقيودها المفروضة على بعض المواد . وعمق هذا الإخلال بالمعاهدات واعتداءات السفن الأوربية الخلاف بين الانكشارية والرياس ، وأضعف موقف الأغوات الداخلي في البلاد (١١٤) .

٣- عجز الأغوات عن توفير الأمن الداخلي والاستقرار في البلاد ، وكالوا مضطربين إلى مواجهة الطائفة والجند على حد سواء ، وقد دفع الأغوات الأربعة حياتهم من أجل طلبهم تمديد مدة حكمهم في مناصبهم ، الأمر الذي عرض البلاد لحالة من الفوضى لم تشهدها من قبل ، وانعكس ذلك على جميع القرارات السياسية والاقتصادية ، وأصبح الصراع بين الانكشارية وطائفة الرياس على أشده ، وفيما يأتي عرض لأعمال الأغوات الأربعة الذين حكموا إيالة الجزائر .

١- خليل آغا :

أول حكام الجزائر في عهد الأغوات ، تسلم الحكم في شهر تموز عام ١٦٦٠م ، وفيما يأتي أهم الأحداث والأعمال التي تمت في عهده :
أ- هجوم أوربي على إيالة الجزائر ضم عدة دول أهمها : بريطانيا ، فرنسا ، هولندا وإيطاليا .

ب- مهاجمة القوات الفرنسية مدينة جيجل واحتلالها ، ثم هزيمتها على يد الجزائريين وطردها منها .

ج- بنى الآغا خليل الجامع الجديد الخاص بالطبقة الحاكمة العثمانية الحنفية المذهب ، ونقل إليه مقر الإفتاء الحنفي ، وبقي كذلك طيلة فترة الحكم العثماني في الجزائر .

د- اتهم الديوان الأغا خليل بنهب الغنائم التي حصلوا عليها بعد هزيمة الفرنسيين وطردهم من جيجل ، بدلاً من توزيعها على الرؤساء ، الأمر الذي دفع بالجند إلى قتله في أيلول عام ١٦٦٠ م .

٢- شعبان آغا

تسلم حكم الجزائر في عام ١٦٦١ م ، وهو من أصل برتغالي ، وقد عانت البلاد في عهده من الاضطرابات الداخلية وفقدان الأمن ، الأمر الذي أثر على جميع نواحي الحياة في الإيالة . وأهم الأحداث التي وقعت في عهده :

أ- تعرض الجزائر لهجمات السفن الفرنسية ومقاومة شعبان آغا وشعبه لها .

ب- مهاجمة شعبان آغا لواهران المحتلة من قبل الإسبان في محاولة منه لتحريرها ، إلا أنه لم يستطع وفقد حياته في القتال دفاعاً عنها (١١٥) .

٣- اسماعيل آغا

اعتلى عرش الجزائر يوم الثلاثاء السابع من أيار من عام ١٦٦٢ م ، وأهم الأحداث التي تعرضت لها الجزائر في عهده ما يلي :

أ- انتشار وباء الطاعون في جميع أنحاء إيالة الجزائر واستمر يفتك بالبلاد والعباد حتى ربيع عام ١٦٦٣ م .

ب- الهجوم الفرنسي ثانية على جيجل واحتلالها في بداية تموز عام ١٦٦٣ م ، ولكن القوات الجزائرية تصدت له وأجبرته على الخروج منها .

٤- الحاج علي آغا

اعتلى عرش الجزائر عام ١٦٦٥ م . وهو أول من جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وكان له حق التصرف بمالية الإيالة الجزائرية والإشراف عليها . وتعرضت الجزائر في عهده إلى سلسلة من الأحداث الداخلية والخارجية تركت آثارها السيئة على الوضع العام في البلاد ، ويمكننا أن نذكر هذه الأحداث

في النقاط الرئيسية التالية :

- أ- عمل الأغا علي على توثيق العلاقات الجزائرية - الفرنسية في جميع المجالات ، التي أكدت عليها المعاهدات المبرمة في عهد أسلافه حكام الجزائر اعتباراً من عام ١٦٢٨م ، وأخذت الجزائر زمام المبادرة وأطلقت سراح ١١٢٧ من الأسرى الفرنسيين الموجودين في سجونها .
- ب- تدخل بريطانيا من أجل إثارة نار العداء بين الدولتين - لأنها خشيت من استقرار العلاقات بينهما - عن طريق دعمها لبحارة الجزائر (القراصنة) والطلب منهم في مهاجمة السفن الفرنسية ، وقد نجحت إنكلترة في مسعاها ، وعاد العداء مجدداً بين الجزائر وفرنسا .
- ج- إرسال فرنسا ، (كرد فعل على توتر علاقاتها مع الجزائر) ، عمارة بحرية إلى المياه الجزائرية ، وردت للقوات الجزائرية على هذا الاعتداء بمقاومة قوية واحتدم القتال بين الطرفين ، عندئذ عرفت السلطات الجزائرية الرئيس (القراصنة) الذين استطاعت بريطانيا أغراءهم بالأموال لمهاجمة السفن الفرنسية في أعمال فردية لا علاقة للدولة الجزائرية بها وتم إعدامهم ، وتشكل إثر ذلك تحالف أوروبي قوي ضد إيالة الجزائر (١١) .
- د- قيام ثورة الأعراب المقيمين في ضواحي مدينة الجزائر في عام ١٦٦٨م . وذلك بالوقت نفسه الذي اندلعت فيه ثورة بلاد القبائل ، وربما أن كانت الثورتان على اتصال فيما بينهما .
- هـ- اتخاذ الأغا علي قراراً بإعدام عدداً من زعماء الطائفة ، وذلك بحضور ممثل فرنسا ، على الرغم من مواصلة السفن الفرنسية مهاجمة السفن الجزائرية في عرض البحر .
- و- تأمر الديوان العسكري على شخص الأغا علي الرغم مما قام به من أعمال هامة ، حيث أنهم بالتساهل مع فرنسا في شروط المعاهدات التي عقدها معها

والتسهيلات التجارية التي منحها إياها، وبلغ الضيق أشده بالطائفة عندما أعدم بعض زعمائهم بناء على أوامر الأغا، وكذلك عندما هاجمت السفن الإنكليزية السفن والموانئ الجزائرية. وبعد هذه التطورات تم اغتياله في يوم الخميس ١٩ تشرين الأول عام ١٦٧١م، ودفن بناحية برج تافورة شمال الواقع إلى الشمال الشرقي من مدينة الجزائر، وبموته انتهت حكومة الأغوات التي تمثل العهد الثالث من عهود الحكم العثماني في إيالة الجزائر (١١٧).

تميز عهد الأغوات بعدد من المميزات يمكن أن نلخصها بالنقاط الرئيسية التالية:

١- شكل نظام حكم هذا العهد مرحلة حكم ذاتي لإيالة الجزائر، حاول خلالها الأغوات - على الرغم من انعدام الأمن والاستقرار في البلاد - أن يعلنوا استقلالهم عن الدولة العثمانية (١١٨).

٢- كان قيام هذا النظام نوعاً من المحاولة لتحقيق التوازن بين الفئتين العسكريتين المسيطرتين في إيالة الجزائر وهما طائفة الرياس والانكشارية (١١٩).

٣- أدى استلام الانكشارية للسلطة إلى تعميق الخلاف بينهم وبين طائفة الرياس، وتجلّى ذلك بأوضح صوره بعدم تقديم الرياس أي دعم اقتصادي للانكشارية مما يحصلون عليه من موارد النشاط البحري (القرصنة)، الأمر الذي دفع الأغوات إلى زيادة الضرائب على الرعية كالعادة، الأمر الذي دفع الأخيرة إلى إعلان التمرد، مما أدى إلى شل البلاد من جميع النواحي.

٤- ازدياد الهجمات الأوربية على مدينة الجزائر، واحتلالهم لبعض المواقع الساحلية المهمة، وبشكل خاص الهجمات الفرنسية والبريطانية، وقد كلفت هذه الهجمات البلاد نفقات كبيرة في سبيل الدفاع عنها ورد كيد المعتدي.

٥- تعمق العداء بين الانكشارية والرياس في هذا العهد، وظهر ذلك بوضوح

عندما استطاعت بريطانيا أن تتحالف مع الرئيس ضد الانكشارية الذين تحالفوا مع فرنسا .

٦- الموقف السلبي من الدولة العثمانية وعدم قدرتها على تحريك ساكن إزاء تدهور الأوضاع في إيالة الجزائر ، الناجمة عن اشتداد النزاع بين رجال البحرية الجزائرية والجند .

وهكذا انتهت هذه الحقبة من تاريخ الجزائر في العهد العثماني بشكل مأساوي وقتل جميع الأغوات ، وعمت الفوضى والعدم الأمن في جميع أنحاء الإيالة ، وقد استغلت طائفة الرئيس هذه الأوضاع لصالحها ، وتمكنت من القبض على آخر الأغوات الحاج علي ، وقامت بإعدامه نظراً للأسباب التي ذكرناها سابقاً ، واستولت على السلطة عام ١٦٧١م ، حيث بدأ عهد جديد من الحكم في إيالة الجزائر حمل اسم الدايات .

٤- مرحلة حكم الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠)م:

الداي كلمة تركية تعني خال ، ولكنها لم تستخدم للدلالة على عمل وظيفي إلا في الجزائر وتونس ، وكانت في البداية لقب شرفي مثل كلمة ألب عند الأتراك القدامى ، حيث كان يتطلب الحصول على هذا اللقب إثبات جدارة في القضايا العسكرية والبحرية ، ثم أصبحت كلمة داي تستخدم كوظيفة عسكرية . بدأ ذلك في تونس عام ١٥٩١م ، أما في الجزائر فقد بدأ نظام الدايات عام ١٦٧١م (١٢٠) ، وذلك عندما انتزعوا الحكم من الأغوات بانقلاب عسكري ، وتمكنوا من قتل آخر أغا معلنين بذلك نهاية عهد الأغوات ، واستمر الدايات يعينون لحكم إيالة الجزائر من طائفة الرئيس من عام ١٦٧١م إلى عام ١٦٨٩م ، وقد عملوا في هذه الفترة على تقليص نفوذ الديوان ، وأسسوا نظاماً يلعب فيه الوزراء دوراً هاماً في إدارة شؤون الدولة (١٢١) .

جمع الداي حاج حسين بين وظيفتي الداي والباشا ، إلا أن الجمع النهائي لم يتم إلا في عهد الداي علي الذي حكم بين عامي ١٧١٠-١٧١٨م ، حيث رفض في عام ١٧١١م السماح للباشا الجديد الذي أرسلته استانبول بالدخول إلى الجزائر ، وأبلغ سلطات الباب العالي عن صعوبة تعدد السلطات في الجزائر ، ونجح في إقناعها بذلك ، عندئذ بدأ بالجمع بين وظيفتي الداي والباشا على حد سواء (١٢٢) .

وكان يحق للداي يومياً ٤٠ خبزة يسلمه إياها شيخ البلد ، وتقدم حقوق التولية والهدايا من البايات والقواد وقناصل الدول الأوروبية ، وكان البايك هو المسؤول عن تزويد الداي بالمواد التموينية الضرورية مثل : القمح ، الزبدة ، الأرز ، الفواكه ، الدجاج والخواريف وغيرها من المواد ذات الاستهلاك اليومي . أما فيما يتعلق بلباسه فهو بسيط إلى حد ما ، ويتألف من : قطعة جوخ بسيط ، وثياب مؤلفة من قميصين وجلبان من الجوخ ، وجبة وبرنس بسيط ، وسروال طويل من الجوخ ، ويلبس على رأسه عمامة من النسيج الموصلي ولا يحمل ذهباً أو فضة في أصابع يديه (١٢٣) .

كان الديوان هو الذي يختار الداي وأحياناً يتم ذلك من غير رضا ، ولا سيما بعد حدوث ثورة في القصر تطيح بالداي السابق ، وعندئذ يقوم المتمردون بتعيين داي من بينهم ، ويصحب ذلك قلق كبير لدى السكان الذين يغلقون محالهم التجارية وتقام المتاريس وتخلو الشوارع من المارة ، بمعنى آخر كان يرافق ذلك شلل في حياة مدينة الجزائر يشمل جميع نواحي الحياة . وجميع الدايات الذين حكموا إيالة الجزائر بين عامي ١٧٩٨ - ١٨١٧م وعددهم سبعة وصلوا بهذه الطريقة وهم : مصطفى (١٧٩٨-١٨٠٥م) ، أحمد (١٨٠٥-١٨٠٨م) ، علي (١٨٠٨-١٨٠٩م) ، حاج علي (١٨٠٩-١٨١٥م) ، محمد (١٨١٥م) ، عمر (١٨١٥-١٨١٧م) ، علي خوجة (١٨١٧م) (١٢٤) ، ولا يحق لسكان

الجزائر الأصليين أو القولوغلية أن يسهموا في عملية انتخاب حكاهم من الدايات ، حيث كانوا يعيشون غرباء عن بلادهم ، وكانهم لم يعيشوا إلا بالجسد ، بالإضافة إلى قيامهم بدفع واجباتهم تجاه الدولة دون أن يكون لهم حقوق ، فما أصعب أن يعيش الإنسان غريباً في وطنه ، وأن يكون أداة منفذة فقط دون أن يقوم بدوره الأساسي في مجتمعه .

وليس هناك شروط لانتخاب من سيعين داياً ، وكانت الطائفة تختار الدايات من بين زعمائها ، في حين كان الانكشارية يختارون الدايات حسب الظروف ، وكان أغلب الدايات من كبار موظفي الدولة مثل الأغوات وخوجات الخيل والخزنجي .

شكل عهد الدايات بداية انقطاع الصلات مع الباب العالي لكنه لم يلغها ، ويدل على ذلك اشتراك الجزائر مع الدولة العثمانية بحروبها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وبشكل خاص الحرب الروسية - العثمانية ١٧٦٨-١٧٧٤م ، ومعركة نافارين ١٨٢٧م ، وحملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م ، واستمرت الجزائر تستقبل الجند الانكشاريين من الدولة العثمانية ، نظراً لحاجة الدايات إليهم من أجل المحافظة على سلطتهم وقمع الثورات وحركات التمرد ضدهم . ولعبت الدولة العثمانية دوراً هاماً في دعم البحرية الجزائرية (١٢٥) ، وتقويتها من أجل مواجهة المؤامرات الأوروبية التي كانت تحاك ضدها ، ولتتمكن بالتالي من الدفاع عن نفسها ضد هجمات الدول الطامعة بها ، والتي كانت تسعى إلى القضاء على بحريتها التي روعت سفن وشواطئ دولها . وكان عدد من هؤلاء الدايات من وسط اجتماعي فاسد ، الأمر الذي انعكس على الوضع الداخلي في الإيالة ، ونعطي دليلاً على ذلك في قيام أحد الدايات بمخاطبة أحد الدبلوماسيين الفرنسيين بقوله " أنا رئيس عصابة من السارقين ومهنتي هي أن آخذ ولا أعطي " (١٢٦) . وهناك ظاهرة أخرى تدل

على فساد هؤلاء الدايات وهي التبذير وأخذ الرشوة، وقيلام عند منهم ببيع ذممهم لليهود والأجانب من أجل تحقيق بعض الكماليات وإهمال الأساسيات التي تحتاج إليها الإيالة (١٢٧) .

ويمكن أن نعطي مثلاً لهؤلاء الدايات المبذرين لأموال الدولة وترك خزينتها في حالة يرثى لها من الإفلاس ، الداي محمد بن باكير باشا ، الذي حكم بين عامي ١٧٤٨-١٧٥٤ م (١٢٨) . فقد أنفق كل ما كان في خزينة الدولة من أجل رفاهية أولاده وزوجته ، وعلى حاجاتهم الكمالية الشخصية المستوردة من البلاد الأوربية، دون أن يفكر بأوضاع الرعية والامهم . إن هذا المثال يعطينا الدليل على أن العثمانيين كانوا يتصرفون في البلاد التي خضعت لهم على أنها بلاد محتلة ، مما يؤكد على أنهم محتلون لهذه البلاد وليسوا فاتحين كما يحلو لبعض المؤرخين أن يسموهم .

يفصل الداي عن زوجته وأولاده بعد انتخابه ولا يراهم إلا في يوم واحد في الأسبوع ، وذلك بعد صلاة الجمعة (١٢٩) ، ولا يحق للداي أن يرى زوجته في قصر الحكم إذا كان متزوجاً ، وكان عليه أن يرى زوجته وأولاده في مكان ما من المدينة أو في الضواحي القريبة منها ، ولتسهيل ذلك أقام علي باشا منزلاً قريباً من القصر (١٣٠) .

ونقدم وصفاً لحياة داي الجزائر حسب الكاتب الإسباني جوان إزقال " إن للداي هو رجل غني ، ولكنه ليس سيد خزينته ، أب بدون أطفال ، وزوج بدون زوجة، طاغية بدون حرية ، ملك العبيد وعبد أتباعه ... " (١٣١) .

وقد نسي الدايات حقيقة السلطة وأهميتها في خدمة المصلحة العامة وتحلى ذلك في إهمالهم المشاريع الحيوية التي تهم السكان ، وتساعد على رفع مستوى معيشتهم، وركزوا فقط على التنظيمات العسكرية والإدارية التي تهمهم ، وكانوا يهدفون من ورائها إلى ضمان مداخل الدولة المالية ، وانتشرت الرشوة

بين الانكشارية ومختلف موظفي الدولة في عهد الدايات ، وذلك من أجل الحصول على المناصب الحكومية التي أصبحت سلعة تباع وتشرى علانية وتعطى لمن يدفع أكثر (١٣١) . نستنتج من ذلك بأن الدايات تركوا مقاليد الأمور وشؤون الدولة بيد مجموعة من الضباط والموظفين وبعض الأجانب ، فالجزائر أصبحت في عهد الدايات عبارة عن قطعة حلوى يأخذ منها كل واحد حسب ما يخوله له المنصب الذي يشغله (١٣٢) ، وأصبح الداي يسعى إلى ملء جيوبه من أموال الدولة العامة دون أدنى تفكير من جانبه بمصير الرعية ، وأخذ يسعى ، بشكل غير مباشر ، إلى رمي الجزائر في أحضان القوى الأوروبية . أما عن علاقة الدايات بالرعية ، فقد تميزت بازدياد الضغط المالي على السكان ، وذلك بعد أن تقلصت موارد النشاط البحري (القرصنة) التي كانت تدر على الخزينة العامة مبالغ مالية ضخمة (١٣٤) ، واتبعت الدولة العثمانية هذه السياسة في كل المناطق التي سيطرت عليها ، وفي جميع مراحل حكمها .



هوامش الفصل الثاني

- ١- فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ٥٤ .
- ٢- كوران ، أرجمنت : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس ١٩٧٠م ، ص ٢٦ .
- ٣- عبد القادر ، نور الدين : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني ، قسنطينة ١٩٦٥م ، ص ٨٦ .
- 4- Serres J. : La politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet , Paris 1925 , p. 9-10 .
- 5- Serres : op, cit., p. 194 .
- ٦- فارس : المرجع نفسه ، ص ٥٦ .
- ٧- ابن أبي الضياف ، أحمد : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الجزء الثالث ، تونس ١٩٦٣م ، ص ٣ .
- ٨- فارس : المرجع نفسه ، ص ٥٨ .
- ٩- سعيدوني ، ناصر الدين : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠م ، الجزائر ١٩٧٩م ، ص ٢٣ .
- ١٠- فارس ، محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ٢٠٠٢-٢٠٠٣م ، ص ١٣٦ .
- ١١- وولف ، جون : الجزائر وأوروبا ، الجزائر ١٩٨٦م ، ص ٣٦ .
- ١٢- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ٢٩ .
- ١٣- عامر ، محمود : تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر ، تونس) ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥م ، ص ٣٦ .

- ١٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣١ .
- ١٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٤٠ .
- ١٦- وولف , المرجع نفسه , ص ٤٤ .
- ١٧- ابن أبي الضياف : الجزء الثاني , المصدر نفسه , ص ٩-١٠ .
- ١٨- هو شارل الخامس , تولى الحكم بعد الملك فرديناند الذي توفي عام ١٥١٦م , وأصبح عام ١٥١٩م على رأس أكبر امبراطورية في العالم , وقضى عهده في محاربة أعدائه حتى عام ١٥٥٦م حيث تخلى عن السياسة , وأعتزل في دير يوست في ١٦ كانون الثاني عام ١٦٥٦م , وبقي فيه إلى أن توفي في ٢١ أيلول عام ١٥٥٨م وخلفه على عرش الامبراطورية الإسبانية ابنه فيليب الثاني .
- 19- Rang , Sander et Denis , Ferdinand: Fondation de la régence d'Alger, Histoire des barberousse, Tome I, Paris 1837 , p. 329-330 .
- 20- Sander et Ferdinand : op, cit., p. 322-323 .
- ٢١- عامر : تاريخ المغرب العربي الحديث ... , ص ٤٣ .
- ٢٢- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٤ .
- 23- Sander et Ferdinand : op, cit., p. 330.
- ٢٤- ابن أبي الضياف : مصدر سابق , الجزء الثاني , ص ١٢ .
- ٢٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , مرجع سابق , ص ١٤٥ .
- ٢٦- بالحميسي , مولاي : "شارة شارل الخامس على مدينة الجزائر (١٥٤١م-٩٤٨ هـ) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية", مجلة تاريخ وحضارة المغرب , كلية الآداب - جامعة الجزائر , العدد ٧٦ تموز ١٩٦٩م , ص ٣٤ .

٢٧- ولد في سردينية وأسر في إحدى غارات البحارة الجزائريين (القراصنة) على الجزيرة , وكان من نصيب خير الدين أثناء توزيع الغنائم , وعندما أصبح شاباً حرره خير الدين من العبودية وقلده قيادة عسكرية , وذلك لما كان يتمتع به من خصال حميدة وشجاعة فائقة , وعندما استدعي خير الدين لقيادة الأسطول العثماني في دار السلطنة عام ١٥٣٦م اختار حسن آغا نائباً له في حكم إيالة الجزائر, توفي حسن آغا وهو في السادسة والخمسين من عمره .

28- Villegaignon , D., : Relation de l'expédition Charles Quint, éd de Grammont , Paris 1874 , p. 55 .

٢٩- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٣٧ .

30- Ravenet , E., : " Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger , in revue africaine numéro 3-4 , 1939 , p. 45 .

31- Grammont , H. -D., : Relation de l'expédition de Charles Auint contre Alger , Paris 1874 , p. 87 .

٣٢- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٣٩ .

33- Mercier ,E., : Histoire de l'Afrique Septentrionale (barbarie) depuis les temps les plus reculée jusqu'à la conquête française 1830 , Tom 111 , Paris 1891 , p. 50 .

٣٤- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٤٠-٤١ .

٣٥- المرجع نفسه , ص ٤٢ .

٣٦- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٤٦ .

37- De Grammont : Relation de l'expédition... , op, cit., p. 92.

38- Haëdo , Fray Diego De : Les Rois d'Alger , Tunis 1968 ,
p. 63 .

٣٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٦ .

٤٠- عامر : تاريخ المغرب العربي الحديث ... , ص ٥١ .

41- De Grammont : Relation de l'expédition..., op, cit., p. 89 .

42- Haëdo : op, cit., p. 63 .

٤٣- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٤٤ .

44- Mercier : Histoire de l'Afrique ... , op, cit., p. 51 .

٤٥- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٤٤ .

٤٦- عامر : تاريخ المغرب العربي الحديث ... , ص ٥١ .

٤٧- عين الحاج باشا والياً على الجزائر في الفترة التي تولى فيها حسن أغا
عن الحكم إلى أن عين حسن بن خير الدين حاكماً على الجزائر , وذلك
بحسب دوفولكس في المجلة الإفريقية الصادرة عام ١٨٦٤م .

٤٨- هناك إلتباس حول بناء القاعدة الجديدة للإمبراطور شارلكان التي أطلقت
عليها المصادر الغربية اسم حصن الإمبراطور حيث يظن البعض أن
شارلكان هو الذي بناه , والصحيح بحسب هايدو (في كتابه تاريخ ملوك
الجزائر) أن الذي خطط هذا الحصن هو حسن قرصو , وبناؤه حسن بن خير
الدين بربا روس , ثم قام حسن فينيزيانو بتوسيعه وتجميله بين عامي
١٥٧٩-١٥٨٠م .

٤٩- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٤٨ .

50- De Grammont : Relation de l'expédition ..., op, cit., p.

101. 51- De Grammont : Relation de l'expédition ..., op,
cit., p. 99 .

- ٥٢- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٧ .
- 53- De Grammont : Relation de l'expédition ..., op, cit., p. 104.
- ٥٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٧ .
- ٥٥- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٥٠ .
- ٥٦- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٥٠ .
- 57- De Grammont : Relation de l'expédition ..., op, cit., p. 84-85 .
- ٥٨- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٥٢ .
- ٥٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٧ .
- 60- De Grammont : Relation ... , op, cit., p. 101-102 .
- ٦١- غزوات خير الدين بربروس , تصحيح نور الدين عبد القادر , تونس ١٩٣٤م , ص ١٢١ .
- ٦٢- النثر , عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية , الجزء الأول, ترجمة عبد السلام أدهم ١٩٦٩م , ص ١٦٧ .
- ٦٣- غزوات خير الدين : المرجع نفسه , ص ١٢١-١٢٢ .
- 64- Haëdo : op, cit., p. 230 .
- ٦٥- بالحميسي : المرجع نفسه , ص ٥٤ .
- 66- Delphin , G., : " Histoire des Pachas d'Alger de 1515-1745 . in journal asiatique , série 19 , 1922 , p. 162.
- 67- Eisenbeth , M., : " Les juifs sous l'occupation turque , in Revue Africaine , 1953 , p. 170 .
- 68- Mercier : Histoire de l'Afrique ..., op, cit., p. 55 .
- ٦٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٨-٣٩ .

- ٧٠- عامر : تاريخ المغرب العربي ... , ص ٥٤-٥٥ .
- ٧١- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٣٩ .
- ٧٢- التر : المرجع نفسه , ص ١٣٢ .
- ٧٣- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- ٧٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٤١ .
- 75- De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque , Paris 1887 , p. 83.
- ٧٦- عامر : تاريخ المغرب العربي الحديث ... , ص ٥٦ .
- ٧٧- التر : المرجع نفسه , ص ٢٠٠ .
- ٧٨- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٤٤-٤٥ .
- ٧٩- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٥٠ .
- ٨٠- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٤٧ .
- ٨١- عامر : تاريخ المغرب العربي الحديث ... , ص ٥٩ .
- 82- Bernard , A. : L'Algérie , Paris 1930 , p. 356 .
- ٨٣- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٤٧ .
- ٨٤- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٥١ .
- ٨٥- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٤٨ .
- ٨٦- فارس : المرجع نفسه , ص ٤٩ .
- 87- Braudel , Fernand : La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe , Paris 1949 , p. 409 .
- 88- Braudel : op, cit., p.919.
- ٨٩- وولف : المرجع نفسه , ص ٨٦-٨٧ .
- 90- Braudel : op, cit., p. 937.

- ٩١- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٥٥ .
- ٩٢- وولف : المرجع نفسه , ص ٩٠ .
- 93- Braudel : op, cit., p. 938 .
- ٩٤- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٥٦ .
- 95- Braudel : op, cit., p. 970 .
- ٩٦- ابن أبي الضياف : المصدر نفسه , جزء ثاني , ص ٢٠ .
- ٩٧- ابن أبي دینار : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس , تونس ١٩٦٧م , ص ١٧٦ .
- 98- De Grammont : op, cit., p. 110 .
- ٩٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٥١ .
- 100- De Grammont : op, cit., p. 118 .
- ١٠١- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , مرجع سابق , ص ١٦٣-١٦٤ .
- 102 - De Grammont : op, cit., p. 125 .
- 103- De Grammont : op, cit., p.140 .
- ١٠٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٦١ .
- 105- Julien , Charl André : Histoire de l'Algérie contemporaine , Paris 1964 , p. 220 .
- ١٠٦- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٦٦ .
- ١٠٧- الجيلالي , عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام , الجزء الثالث , الطبعة السادسة , بيروت ١٩٨٣م , ص ١٥٧ .
- ١٠٨- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٦٥ .
- ١٠٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٦٦ .
- ١١٠- عامر : تاريخ المغرب العربي الحديث ... , ص ٧٢ .
- ١٢١ -

- ١١١- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ١٥٨ .
- ١١٢- الميللي , محمد والشريط , عبد الله : الجزائر في مرآة التاريخ , ط١ , قسنطينة ١٩٦٥م , ص ٢٢ .
- ١١٣- الغربي , الغالي : الانتفاضات الشعبية في الجزائر منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي , رسالة ماجستير , جامعة دمشق ١٩٨٥م , ص ٣٩ .
- ١١٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٦٨ .
- ١١٥- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ١٦٠-١٦١ .
- ١١٦- المرجع نفسه , ص ١٦٤-١٦٥ .
- ١١٧- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٦٩ .
- ١١٨- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ١٥٨ .
- ١١٩- الغربي : المرجع نفسه , ص ٣٨ .
- ١٢٠- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٦٩ . أنظر أيضاً فانتور دي بارادي , ص ١٩٧ .
- ١٢١- وولف : المرجع نفسه , ص ١٤٤ .
- 122- Delphin : op, cit., p. 162-163 .
- 123- Venture de Paradis : Tunhs et Alger au XVIIIe siècle , Paris 1963 , p.199-201 .
- 124- Boyer , Pierre : La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, Paris 1963 , p. 90-91 .
- ١٢٥- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٧٢ .
- 126- De Grammont : Histoire d'Alger ... , op, cit., p. 309 .
- ١٢٧- الغربي : المرجع نفسه , ص ٤٢ .
- ١٢٢ -

- 128- Venture de Paradis : op, cit, p. 91 .
- 129- Le Docteur Shaw : Voyage dans la régence d'Alger ,
Traduit de l'anglais par J. Mac Carthy , 2eme , sans date ,
p. 155.
- 130- Venture de Paradis : op, cit., p. 205 .
- 131- Julien , Charl André : Histoire de l'Afrique du Nord ,
Paris 1937 , p. 376 .
- 132- Marcel , C., : L'Algérie turque , Paris 1957 , p. 23 .
- ١٣٣- الغربي : المرجع نفسه , ص ٤٤ .
- 134- Boyer , Pierre : " Contribution à l'étude de la politique
religieuse des turcs dans la régence d'Alger (XVI- XIX
siècle) " , in R.O.M.M., n° 1, 1966 , p. 49 .



الفصل الثالث

الحياة الإدارية للجزائر في العهد العثماني

كانت إيالة الجزائر العثمانية تعيش في مرحلة حكم البيربايات (أمير الأمراء) ، كدولة مستقلة في إدراتها وعلاقاتها مع الدول الأجنبية . ولايربطها بالدولة العثمانية إلا رباط ديني يؤكد صلة الوصل بينهما (١) .

تعد نهاية حكم العلي علي عام ١٥٨٧م نهاية هذه المرحلة ، حيث أخذت استانبول ترسل باشوات مدنيين إلى الجزائر لحكمها لمدة ثلاث سنوات ، ولكن كان من النادر أن يكمل الباشا مدة حكمه هذه بسبب سيطرة ديوان العسكر علي الحكم . وتبع عهد الباشوات ، الذي قضى عليه من قبل الانكشارية في عام ١٦٥٩م ، عهد الأعوات حيث تسلم الانكشارية الحكم في الجزائر بين عامي ١٦٥٩ - ١٦٧١م ، وكان ديوان العسكر ينتخب الأغا لمدة شهرين فقط حسب الأقدمية ، وقد رافق انتخاب الأغا اضطرابات وعمليات قتل لرموز السلطة ، وقتل جميع الأعوات الذين تسلموا هذا المنصب ، الأمر الذي انعكس سلباً علي الوضع الداخلي والخارجي للبلاد .

استمرت المنافسة الشديدة بين رموز النظام الحاكم الممثلة بالانكشارية والرياس . إلى أن سنحت الفرصة لرجال البحر بالسيطرة على السلطة والإطاحة بنظام الأعوات عام ١٦٧١م لتبدأ بذلك مرحلة حكم الدايات التي استمرت حتى سقوط الجزائر بيد قوات الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م .

اعتبر الدايات حكام الجزائر أنفسهم كخلفاء للباب العالي ، فكانوا لايتعاملون مع الدول الأوروبية باسم الباب العالي ، بل كانوا يعقنون إتصالاتهم مع الدول الأوروبية دون العودة إلى الدولة العثمانية في استانبول (٢) . كما أن

ممثلي الدول الأوروبية لدى الجزائر ونونس وطرابلس الغرب بذؤوا بتجاهلون
السيادة العثمانية على هذه الإيالات وخاصة ممثل فرنسا الذي أصبح بلقب منذ
بداية القرن التاسع عشر الميلادي باسم المكلف بالأعمال (٣) . وقد تعززت سلطة
الداي كحاكم للجزائر بعد إلغاء منصب الباشا عام ١٧١١م . وتدهور نفوذ
الديوانين:

١- الديوان الصغير الذي أختفى وحل محله مجلس الموظفين الكبار (مجلس
الحكومة أو الدولة) .

٢- الديوان الكبير (المجلس العام) الذي حدد نشاطه في احتفال شكلي بمناسبة
الأعياد الدينية وحفلات توزيع الأجور كل شهرين التي كانت تتم في قصر
الداي (٤) .

وعلى الرغم من اتساع نفوذ وسلطة الداي ؛ إلا أنه بقي يخضع لتقاليد
الحكم المتبعة في الجزائر ، ولذلك وصف الداي " ... بأنه مستبد وليس له حرية ،
ارستقراطي لكنه محروم من أرباح (القرصنة) " (٥) ، فعلى الرغم من اختيار
الداي من الوجاق من بين ثلاثة موظفين ساميين هم : الخزناجي ، وأغا العرب ،
وخوجة الخيل (٦) . إلا أنه كان له سلطة مطلقة ، ويتصرف كحاكم مستبد برأيه
وسيد مطلق الصلاحية بالإيالة (٧) ، وإذا كانت سلطته نظرياً مقيدة بالديوان ،
فهو الذي يبت في مسائل الحرب والسلام ، وهو الذي يختار وزراءه بنفسه ،
وكانت الوزارة تتألف من مجموعة من الموظفين الساميين الذين يعتمد عليهم
الداي وهم :

١- الخزنجي :

هو أمين الخزينة العام في الدولة ، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الداي من
حيث الأهمية ، ويخلفه في حال مرضه أو غيابه (٨) . يتسلم الخزنجي شخصياً -
بحضور الداي والكتاب الأربعة - الأموال التي تأتي من موارد الإيالة ، ويدخلها

في الخزينة العامة، التي كانت عبارة عن غرفة موجودة في الدبوان، ويقدم الخزانجي تقريراً دورياً عن جميع الأموال التي تدخل وتخرج من الخزينة (١).

٢- وكيل الخرج :

وهو بمثابة وزير البحرية ، ويشرف على دور وصناعة السفن والموانئ والمجدفين، ويرعى عملية تسليح رجال البحر (القراصنة) الذين يخرجون إلى البحر من أجل الغزو ، وكذلك يتولى الإشراف على الجمارك والأسرى الأوربيين الموجودين في سجون الجزائر (١٠) . بالإضافة إلى هذه المهام كان وكيل الخرج يشرف على تهيئة عتاد الحرب وتوزيع غنائم البحر التي يعود بها الرياس (القراصنة) ، كما أوكل إليه الإشراف على الشؤون الخارجية للدولة والعلاقات مع الدول التي لها اتفاقات مع الجزائر (١١) .

٣- خوجة الخيل :

وهو بمثابة مدير أملاك الدولة ، والمسؤول المباشر عن سائر الحيوانات الموجودة في الإيالة ، ويشرف كذلك على مواشي الدولة المأخوذة من الأهالي ، فهو بهذه الصلاحيات يضمن لموظفي الدولة التزود بالمواد الغذائية الضرورية ويسهر على تجنيد الفرسان ، وكان خوجة الخيل أحياناً يشارك في قيادة بعض الفرق العسكرية التي تخرج لتأديب المتمردين على السلطة الحاكمة (١٢) .

٤- آغا العرب :

وهو الذي يقود فرق الانكشارية والصبايحية المعسكرة خارج مدينة الجزائر ، كما أوكلت إليه مراقبة إقليم دار السلطان المحيط بمدينة الجزائر ، والسهر على الأمن والهدوء في جميع أنحاء الجزائر ، وذلك عن طريق إرسال الحملات العسكرية التي تهدف إلى قمع الثورات التي تندلع ضد السلطة العثمانية الحاكمة (١٣) .

٥- بيت المالجي :

وهو المسؤول عن الثروات والأموال التي تمرد إلى الدولة بعد موت أصحابها بدون وريثة سواء أبناء أم أخوة ، وكان يمتلك السلطة التي تخوله مصادر الثروات الكبيرة المسجلة باسم الدايات والبايات وغيرهم من موظفي الدولة الكبار في حال عزلهم من مناصبهم أو قتلهم (١٤) .

٦- آغا الجيش :

وهو القائد العام لجميع العساكر الموجودين في الثكنات العسكرية الموزعة في موقع مدينة الجزائر .

٧- شيخ البلد :

وهو موظف سام ، من حيث التشريفات العشائرية ، كان يكلف بالإشراف على شرطة المدينة أو ما يعرف بالشرطة الإدارية ، وهو مغربي الأصل (أي من سكان البلاد الأصليين) ، ويتولى الداي شخصياً مهمة تعيينه ، وكان منزله يستخدم لتنفيذ الأحكام بحق النساء اللواتي يستحقن العقوبة بعد المحاكمة (١٥) .

٨- شيخ الإسلام :

يقوم شيخ الإسلام، بالمفهوم الحديث، بصلاحيات وزير العدل والشؤون الدينية في جميع أنحاء الإيالة، حيث كان له مساعدون في مختلف المناطق (١٦).

٩- كتاب الداي :

وعددته أربعة :

أ- الهاشكاتيب (رئيس الكتاب) : وهو المسؤول عن ضبط دفاتر الجند في الإيالة.

ب- الهاش دفتر دار : ويوكل إليه ضبط النسخة الثانية من دفاتر الجند .

ج- الكاتيب الثالث : ومهمته ضبط النسخة الثانية لدفاتر العقارات وضرائب البابلك .

د- الكاتيب الرابع : ويسمى خوجه العشور , وهو مكلف بدفاتر الجمارك وكل ما يأتي من بلاد الأوربيين , وينظم هذا بمساعدة الكاتيب الثالث أحياناً .
أوكل إلى هؤلاء الكاتيب الأربعة أيضاً مهمة تحرير الرسائل التي ترسل إلى الباب العالي والدول الأجنبية (١٧) .

ويتألف من هؤلاء الموظفين مجلس الداي الخاص , وكان الدايات يتجنبون جمعهم , وفي أغلب الأحيان كان يتم الاتصال بهم عن طريق ترجمان قصر الداي . كان يشترط فيمن يصل إلى هذه المناصب أن يكون تركياً حصراً , الأمر الذي جعل الباب في الوصول إليها موصوداً في وجه السكان المحليين حتى القولوغلية أبناء الأتراك العثمانيين من أمهات جزائريات , فاية عصرية هذه كانت تسيطر على أذهان العثمانيين في تلك الحقبة من التاريخ ؟ !

بالإضافة إلى هؤلاء الموظفين الساميين الذين ذكرناهم توجد مجموعة كبيرة من الموظفين الثانويين كانوا يلعبون أدواراً مختلفة في الدولة الجزائرية , ويمكن أن نصنف هؤلاء الموظفين وفق ما يلي :

١- الأغوات :

ومنهم الكاهية , الباشي بلوك باشي وآغا الهالين الذي يصبح , بعد إنهائه للخدمة , معزول آغا .

٢- القواد :

كان لكل منهم مهمة خاصة به مثل : قائد الزبل وهو المسؤول عن نظافة المدينة , قائد الشوارع : وهو مسؤول عن تسليك المصارف في الشوارع , وقائد الفحص : وهو مكلف بالإشراف عن الشرطة في ضواحي مدينة الجزائر .

٣- البايات :

كان يساعد كل باي في إدارة بيلكيتته ديوان محلي مؤلف من :

أ- خليفة الباي (من يخلفه في حال مرضه أو غيابه) .

• الباش خرنجي .

• نغا الدائرة .

• خوجة الخول .

هـ - الباش كاتب .

٤- جماعة الخوجات :

وهم بمثابة كتاب يستخدمون لدى الباي التي يعينون بها ، كل حسب مهمته ، مثل :

أ- خوجة الجمارك : يقوم بمهمة تحصيل حقوق الجمارك على البضائع القادمة إلى البلاد .

ب- خوجة القصر : يقوم بتنظيم أمور الاجتماعات داخل القصر وجميع القضايا التي تحدث بالقصر .

ج- خوجة الرحبة : يقوم بجمع الضرائب من الأسواق .

د- خوجة مخزن الزرع : يقوم بقبض الضرائب حبوباً عن الأراضي المزروعة .

هـ- خوجة العيون : وهو مسؤول عن خدمة المياه والأوقاف الموقوفة لها .

و- خوجة الملح : ومهمته احتكار الملح لصالح البايك .

وكان لكل مهنة أو مصلحة خوجة خاص بها ، مثل : خوجة أبواب المدينة ، خوجة الدكاكين ، خوجة الحدائق ، خوجة الجلد ، وخوجة الفحم .. (١٨) .

فالخوجات بشؤون إرسنقراطية في الإدارة العثمانية للجزائر ومراتبهم صغيرة ، وهي في المقدمة من حيث الأهمية الخوجات الأتراك ، الذين كانوا

يستلمون المناصب الأكثر ربحاً ، ويأتي بعدهم الفولوغلية وأخيراً الخوجات المغاربة . وللوصول إلى هذا المنصب يجب دفع ألفين فرنك فرنسي للمسؤولين أصحاب المراتب العليا في السلطة ، وقس على ذلك كثيراً من الوظائف الإدارية والعسكرية التي كان أصحابها يحصلون عليها بالرشوة ، فالإدارة التي توطف كادرها بالرشوة والغش والمحسوبية تحمل بذور زوالها منذ البداية ، لكن الدولة العثمانية استمرت في البلاد العربية ، لأنها كانت تستند إلى عامل الدين ، وذلك من خلال رعايتها للممتلكات الموقوفة على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة .

٥- موظفو الخدمات الاجتماعية :

ملهم المحتسب : المسؤول عن مراقبة الأسواق في مدينة الجزائر ، والمزوار : الذي كان يكلف بالدوريات الليلية في المدينة لمراقبة البسات ذات السمعة السيئة (١١) .

٦- وكيل الخرج الكبير :

ويكلف باستلام ووضع زيت البايك في المخازن وكانت بيده مفاتيح مخازن الدولة التي تحتوي على الأكوات والمؤن ، حيث كان يشرف عليها ، ويساعده في هذه المهمة وكيل الخرج الصغير .

٧- الشواش :

عدهم عشرة ، يلبسون ثوباً أخضر من بينهم ثلاثة أقل قدماً ، يحملون لقب قرا كولو ككتشي ، وكانت مدة خدمتهم في وظائفهم عشر سنوات ، ويكلفون بالمحافظة على الأمن في البلاد والقبض على المجرمين والفارين من العدالة سواء في المدينة أم في الريف ، واصطحبهم إلى الداي ، ثم إلى منزل الأغا صاحب الهالين ، لكي يتلقون العقاب الذي يستحقونه ، وكان يتم اختيار الشواش من قبل الداي نفسه من بين الأتراك القادمين من المشرق ، بحيث لا يمكن أن

يكون أصحاب هذا المنصب من بين السكان المحليين أو القوغلوية . كان الداوي يختار للشواش من بين الأشخاص طويلي القامة وقويي البنية الجسدية (٢٠) .

بالإضافة إلى هذه المناصب كان يوجد قواد للأوطان ، حيث يكلف كل منهم بقيادة مجموعة من القبائل . وإذا استطعنا إحصاء عدد الخوجات بحوالي ٢٠٠ خوجة ، فمن الصعب أن يحصى عدد القواد ، لأن هذا اللقب يحمله عدد كبير من عناصر البايك الذين يخدمون في المناطق الريفية (٢١) .

يجتمع مجلس الداوي كل يوم ما عدا يومي الثلاثاء والجمعة وأيام الأعياد ، وكان المجلس يجتمع المجلس صباح الثلاثاء في قصر الجنينة لإصدار أحكامه بالعقوبات ، وبعد الظهر ينصرف إلى معالجة القضايا السياسية الهامة في البلاد ، ويتم ذلك بحضور القناصل والأغوات والقواد (٢٢) .

كان الداوي يقيم في قصر الجنينة ، وفي عام ١٨١٧م بنى الداوي على خوجة قلعة القصبة في أعلى مدينة الجزائر ، ونقل مقر حكمه إليها ، ليتقي خطر الجند عليه وعلى الدولة . وكان الداوي يتقاضى أعلى راتب في الدولة الجزائرية ، بالإضافة إلى الهدايا والرسوم التي يقبضها على تعيين الموظفين ، كما كان له حصّة من غنائم الجهاد البحري (القرصنة) ، ولكن ثروته كانت تعود بعد وفاته أو مقلته إلى خزانة الدولة (٢٣) .

ينفصل الداوي بعد انتخابه عن زوجته وأولاده ، ويفقد حقه تقريباً بالحياة العائلية ، ولا يرى عائلته إلا ليلة واحدة في الأسبوع ، حيث يذهب بعد صلاة الجمعة ، ويقضي الليلة معها . وصف الداوي بأنه عبد للعبيد ، وكان يعيش في حذر وريبة دائمة ، حيث كان مشغولاً وباستمرار في إحباط المؤامرات التي كانت تحاك ضده للقضاء عليه ، وعندما كان الداوي يقتل فإن زوجته وأولاده يجردون من جميع الأملاك التي كانت تعود إليه (٢٤) . نستشهد هنا بما قاله الكاتب الإسباني جوان كالدو واصفاً حياة الداوي حاكم الجزائر بقوله : " ... كان

الداي رجلاً غنياً ، لكنه ليس سيد خزينته ، أباً بدون أطفال ، وزوجاً بدون امرأة ،
طاغية بدون حرية ، ملك العبيد وعبد أتباعه ... " (٢٥) .

التقسيمات الإدارية لإيالة الجزائر:

قسمت الجزائر خلال فترة الحكم العثماني الطويل إلى أربع بيليكيات يدير
كلأ منها باي يخضع للداي ويتم تعيينه من قبله . وهذه البيليكيات هي :

١- بيلكية الجزائر وتسمى دار السلطان

تمتد هذه البيلكية جغرافياً من مدينة دلس شرقاً إلى مدينة شرشال غرباً ،
ومن ساحل البحر المتوسط شمالاً إلى سفوح الأطلس البلديدي جنوباً ، وتضم هذه
البيلكية إقليم الساحل وسهل المتيجة مع بعض الامتدادات في بلاد القبائل وإقليم
التيطري . كانت بيلكية الجزائر تخضع مباشرة لسلطة الداى ، وكانت مقسمة
إلى أوطان يحكمها قواد تحت إشراف آغا للعرب ، ويتألف كل وطن من
مجموعة من الدواير يسكنها الأهالي ، ومن أحواش تدخل في ملكية السلطة
التركية والانكشارية المرابطين فيها وبعض أغنياء الطبقة البرجوازية من سكان
مدينة الجزائر (٢٦) .

وترك لمدينة الجزائر تنظيم خاص انفردت به عن باقي الأقاليم الإدارية
في البلاد ووضع هذا التنظيم تحت سلطة الخزانجي (٢٧) .

٢- بيلكية التيطري

تقع في القسم الجنوبي من إيالة الجزائر وعاصمتها المدينة ، وكان حاكم
هذه البيلكية أقل استقلالاً من بقية حكام البيليكيات وأكثرهم خطراً ، وفي الوقت
نفسه كان يتمتع بمكانة كبيرة لدى السلطة الحاكمة ، وذلك بحسب التشريفات
العثمانية (٢٨) ، وربما يعود ذلك إلى أن هذه البيلكية كانت أول المناطق التي

سيطر عليها العثمانيون . وقسمت هذه البيلكية إدارياً إلى أربع قيادات عسكرية هي التالية :

١- قيادة تل الظهراوية .

٢- قيادة تل القبليّة .

٣- قيادة الديرة أو سور الغزلان .

٤- قيادة الجنوب (٢٩) .

٣- بيلكية الغرب :

كانت بيلكية الغرب تمتد من المغرب الأقصى غرباً إلى بابلك التيطري ودار السلطان (بابلك الجزائر) شرقاً ، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى حدود الصحراء جنوباً . وهناك من الجغرافيين من يعطيها حدوداً أدق ، حيث يحدّها وادي الشلف من الشرق ووادي الملوية من الغرب ، والبحر المتوسط شمالاً والصحراء جنوباً (٣٠) . ويعود تاريخ ظهور البايك كتنظيم إداري وسياسي إلى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك في عهد حسن باشا بن خير الدين بربروس أسوة بغيره من الأقاليم الأخرى ، وكانت السياسة العثمانية ترمي من وراء ذلك إلى تسهيل حكم البلاد بتقسيمها إلى مناطق إدارية ، واتخذت مازونة منذ عام ١٥٦٣م عاصمة للبايك (٣١) .

تميزت بيلكية وهران بالطابع العسكري ، ويرجع ذلك إلى عاملين هما :

١- الصراع العسكري شبه المستمر بين السلطة العثمانية الحاكمة في إيالة الجزائر وسلاطين المغرب العربي الذين كانوا يتحالفون أحياناً مع الإسبان ضد العثمانيين ، الأمر الذي انعكس على البيلكية ، وجعلها ساحة صراع دائم بين القوى الأجنبية .

٢- الصراع بين القوى المحلية والمرابطية ذات النفوذ في هذه المنطقة والذي

قادها بالنتيجة إلى الدخول في صراع مع القوى العسكرية العثمانية، وخاصة ثورة الطريقة الدرقاوية . وقد شغل هذا الصراع الداخلي الطرفين عن مواجهة الإسبان العدو الرئيسي الذي استفاد من هذا الوضع واستمر في احتلال وهران حتى عام ١٧٩٢م .

انتقلت عاصمة البايك من مازونة إلى مدينة معسكر عام ١٧١٠م، وبقيت حتى عام ١٧٩٢م ، حين طرد الإسبان من وهران الذي اتخذت كعاصمة للبايك (٣٢) . وقسمت بيلكية وهران إلى القيادات العسكرية التالية :

١- آغا الدواير : وكان تحت إمرته ٤٧٠ فارساً في الدواير و ٥٠ فارساً في الغمرة .

٢- آغا الزمالة : وكان تحت إمرته ٣١٧ فارساً في الزمالة و ٣١٣ فارساً في مخزن العزابة .

٣- خليفة الباي (٣٣) .

٤- بيلكية الشرق

عاصمتها مدينة قسنطينة ، حيث كانت من أكثر البيلكيات استقلالاً عن السلطة العثمانية الحاكمة في إيالة الجزائر ، وكان حاكمها أقل البايات من حيث التشريعات العثمانية ، لكنه كان في الوقت نفسه أكثرهم قوة وذلك لأن بيلكيته أكثر وأغنى هذه البيلكيات سكاناً ، بمعنى آخر ، كان يمتلك القوتين الرئيسيتين كمقومات أساسية لكل دولة ، وهما : القوة البشرية والقوى المادية ، وقسمت البيلكية إلى عدة أوطان ، كانت تشمل بصورة عامة عدة قبائل أو دواير (جمع دوار) على رأس كل وطن ودوار قواد يتم تعيينهم من قبل الباي نفسه ، وكان معظمهم بالطبع من أبناء الطبقة العثمانية الحاكمة ، ويتمتعون بسلطات مدنية وقضائية وعسكرية واسعة النطاق ، ويقوم القائد بدوره بتعيين الشيوخ المكلفين

بإدارة شؤون القبيلة أو الدوار أو أحد بطون القبيلة ، وكان يتم اختيارهم من بين وجهاء وعالية القوم (٣٤) .

حقيقة الأمر ، لم تكن سلطة الأتراك تشمل كل القبائل في الجزائر ، ولم تكن السلطة التركية الفعلية تشمل سوى سدس إيالة الجزائر ، ولكي يتقي الأتراك خطر هذه القبائل ، غير الخاضعة لهم ، قاموا باتباع الإجراءات التالية :

- ١- العمل على قنّاع سياسة فرق تسد بين هذه القبائل والإيقاع فيما بينها.
- ٢- إيجاد نوع من القبائل أطلقوا عليها اسم قبائل المخزن حيث كانت تتمتع بميزة الإعفاء من الضرائب ، وأطلقت السلطة الحاكمة يدها في اضطهاد قبائل الرعية .
- ٣- أقام الأتراك العثمانيون على طرق المواصلات مستعمرات عسكرية أطلقوا عليها اسم الزمول ؛ وذلك لمراقبة هذه القبائل والتحكم بها .
- ٤- تطويق السلطة العثمانية لجبال بلاد القبائل بمراكز عثمانية لمراقبة تحركاتها وفرض سلطتهم عليها .
- ٥- مراقبة الأسواق الأسبوعية التي تتعقد لمبادلة البضائع، الأمر الذي كان يجبر هذه القبائل على دفع الضريبة للسلطة مقابل السماح لها بعقد السوق . وعندما كان يطبق حصار اقتصادي ضد قبيلة ما كان يمنع التعامل معها (٣٥) ، الأمر الذي ينعكس على بضاعتها وبالتالي فسادها .
- ٦- محاولة الأتراك العثمانيين كسب العناصر الدينية لفصهم ، وخاصة أصحاب الطرق الصوفية الذين كانوا يتمتعون باحترام الغالبية العظمى بين الرعية ، وبصورة عامة كان المرابطون في الأرياف يلعبون دور الوسيط بين الأتراك وبين القبائل نصف المستقلة (٣٦) ، وفي الوقت نفسه شكلت قوة المرابطين والطرق الصوفية في هذه البيلكية خطراً قاتلاً ، كما قلنا سابقاً ، كان له آثاره السلبية على السلطة العثمانية الحاكمة في البلاد ، ومما زاد الأمر خطورة

وجود علاقات متينة بين زعماء هذه الطرق وحكام المغرب الأقصى
(مراكش) .

تمثل الخطر المرابطي على السلطة العثمانية باندلاع ثورة ابن الأحرش
في بيلكية وهران في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، والتي تعتبر امتداداً
لثورة الطريقة الدرقاوية التي انفجرت في بيلكية قسنطينة عام ١٨٠٤م بقيادة ابن
الأحرش (٣٧) ، ونجح الأتراك في القضاء عليها عام ١٨٠٧م بمساعدة آل
المقراني ، واندلعت ثورة الطريقة الدرقاوية في بيلكية الغرب بزعمامة زعيم
الطريقة الدرقاوية نفسها (أبو محمد) عبد القادر بن الشريف الفلتي ، ونجح
الثوار بالسيطرة على المدن الداخلية في البيلكية بما فيها مدينة تلمسان ، وتمكنوا
من حصار مدينة وهران . طلب باي الغرب الجزائري من السلطان المغربي
التدخل لدى شيخ الطريقة المقيم في المغرب من أجل حث ثواره على إيقاف
الثورة ، لكن مساعاه لم يأت بنتيجة ، عندئذ جهز قوات كبيرة للقضاء على هذه
الثورة ، ونجح بعد جهد كبير في القضاء عليها ، الأمر الذي دفع عنداً كبيراً من
أتباعها بالهجرة من الجزائر باتجاه المغرب العربي . وحين طلب باي وهران
من مولاي إسماعيل إعادتهم رفضوا العودة قائلين : "... نذهب إلى بلاد
النصارى ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والعطش ..." (٣٨).

نلاحظ هنا مدى كراهية الرعية لحكامها الأتراك ، واستغلالهم لأية فرصة
من أجل العصيان والثورة على هذه السلطة الجائرة في سياستها الداخلية ،
وخاصة في فرض الضريبة على السكان المطالبين بدفعها حتى في سنوات
الجفاف والكوارث الطبيعية.

وقد شهدت بيلكية وهران ، في أواخر العهد العثماني ، ثورة الطريقة
التيجانية انطلاقاً من مركزها في عين ماضي بزعمامة محمد الكبير الابن البكر
للشيخ أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية الذي هاجر إلى المغرب خوفاً من

الأتراك العثمانيين . وكانت الثورة تحظى بتأييد مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب الأقصى (مراكش) ، وفشلت السلطة الحاكمة بالقضاء على هذه الثورة، وفشل الثوار بالاستيلاء على مدينة معسكر في عام ١٨٢٧م ، وانشغلت البلاد بالأزمة الجزائرية مع فرنسا (٣٩) بسبب أزمة الديون التي شكلت بداية نهاية الاحتلال العثماني للجزائر ومهدت الطريق أمام الاحتلال الفرنسي.

القضاء الجزائري الشرعي:

كان يوجد في الجزائر محكمتان شرعيتان: الأولى حنفية خاصة بالطبقة الحاكمة وأتباعها، وهم قليلو العدد، ولهم قاضي ومفت شرعيان يشرفان على قضايا المواطنين الخاصة بهذا المذهب، وإصدار الأحكام بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية. والمحكمة الثانية مالكية، وتخص أكثرية سكان إيالة الجزائر الأصليين، وكان لهذه الأغلبية قاضيهما ومفتيهما الشرعيان أيضاً المشرفان على القضايا التابعة لرعايا هذا المذهب (٤٠) . وفي حال عدم قبول أي مواطن بحكم المفتي الخاص بمذهبه، يمكنه مراجعة المجلس الكبير الذي يضم علماء المذهب المالكي والحنفي ومفتيهما مع القاضي المعزول، ويجتمع هؤلاء في الجامع الكبير الخاص بالرعية، وتدقق أحكام هذا المجلس قبل صدورها، ثم يتم السماع إلى الناطق بهذا الحكم من قبل المجلس ، ويحق للمجلس نقض الحكم في حال عدم مطابقته لنصوص الشريعة الإسلامية (٤١) .

وكان لأهل الزمة من اليهود والنصارى - الذين كانوا يشكلون أحد عناصر المجتمع الجزائري - أحكامهم الشرعية الخاصة بهم ، فكانت أحكام اليهود تستمد من نصوص الديانة الموسوية الخاصة بهم ، أما النصارى فكان لهم أحكامهم المفروضة عليهم من قبل فنصائرتهم التي تمثل دولهم في إيالة الجزائر ، وتجب الإشارة إلى أنه في أية قضية يكون فيها أحد الأتراك العثمانيين طرفاً يجب أن تمثل جميع طوائف الإيالة على اختلاف مذاهبها الطائفية والعرقية أمام

القاضي أو الداي ، ولم يكن مسموحاً لأهل الذمة الشهادة في قضية يكون أحد المسلمين طرفاً فيها ^(٢٢) . باختصار يثبت المخزن بالجرائم السياسية والإدارية والمالية والجرمية والجنح ، ويمارس هذا الحكم من قبل الداي ، الخزنجي ، الأغا ، البايات والقادة أصحاب الخبرة في أقاليمهم ، أما القضايا المدنية فيثبت بها للقاضي الشرعي الخاص بالمذاهب الموجودة في إيالة الجزائر .

العقوبات:

يصدر مجلس الداي أحكامه يوم الثلاثاء ، وتنفذ الأحكام بحسب درجتها سواء كانت جنحة أم جناية ، فأصحاب عقوبة الجنحة يتحملون عقوبة الجلد أو الضرب مع دفع غرامة ، أما أصحاب الجناية فكانت عقوبتهم في أغلب الأحيان الإعدام ^(٢٣) ، وتختلف العقوبات وأماكن تنفيذها بحسب الفئات الاجتماعية :

فإذا ارتكب أحد الانكشارية جلحة أو جناية فإنه يقاد إلى منزل الأغا ذي الهالين بعيداً عن عيون السكان الأصليين ، وبعد أن يتلقى عقوبته وفقاً لجنحته المرتكبة تضمد جروحه بالخل ، من هنا كان يطلق على منزل أغا الهالين اسم دار الخل .

وإذا ارتكب أحد أبناء الرعية المحكومة جنحة فإنه يصطحب برفقة أحد الشواش إلى سجن قصر الجنية ، القريب من قاعة إصدار الأحكام ، ثم يمدد المتهم على الأرض وتربط رجلاه بواسطة حبل وترفعان بزاوية قائمة ، وبعد ذلك يقوم جلادان اثنان بضربه بالتناوب على باطن قدمه العارية ، وقد تعرض كثير من أصحاب هذه الجنح للموت بسبب العقوبات التي تعرضوا لها .

وكانت أحكام قطع اليد تطبق على السارق إذا كانت السرقة كبيرة . وتختلف عقوبة إعدام أصحاب الجناية حسب الفئة الاجتماعية والجرم أيضاً وذلك وفق ما يلي :

فالأتراك العثمانيون ينتفون عقوبة الجناية بالخلق سراً في بيت أغا الهالين ويتم ذلك بواسطة حبل صغير يوضع من قبل الشواش صاحب الروب الأخضر (٤٤) .

أما ما يخص اليهود من مرتكبي هذه الجنايات ، فكانوا يحرقون أحياء في حي باب الواد ؛ أحد أبواب مدينة الجزائر الرئيسة الواقع إلى شمالها الشرقي تقريباً .

أما السكان الأصليون للجزائر من المغاربة مرتكبو الجناية ؛ فكانوا يعدمون بقطع رؤوسهم في باب عزون أحد أبواب مدينة الجزائر الواقع إلى جنوبها الغربي . وكان إعدام المسيحيين من مرتكبي الجناية يتم بقطع الرأس أو التعليق على الشناكل وذلك في باب عزون (٤٥) ، وفي حال العقوبات الخطيرة التي يقتل فيها غير تركي أحد الأتراك ، فإن المتهم يرمى به وهو حي من أعلى أسوار باب عزون على شناكل تكون منصوبة لهذه الغاية فيقضي حياته بصعوبة وعذاب شديدين .

هكذا كانت السلطة العثمانية الحاكمة في جميع أنحاء الأقاليم التي حكمتها . تميز حتى بالأحكام وطريقة تنفيذها وحتى مكان التنفيذ . ويأتي هذا ليضيف للباحثين والمهتمين بالتاريخ العثماني ، ليلاً جديداً ، يضاف إلى عدد آخر من الأدلة قدمناها في حينها في مواضع مختلفة في هذا الكتاب ، عن سياسة التمييز المتبعة في الدولة العثمانية تجاه الشعوب التي حكمتها لمدة طويلة من الزمن وخاصة الشعب العربي .

د- خيل الرعية :

تلتزم به قبائل الرعية وبشكل خاص بايلك الغرب الجزائري ، وهو عبارة عن مساهمة عينية من قبل قبائل الغرب تشتمل على تقديم عدد من الخيول ، ومجموعة من دواب النقل لتكون في خدمة البايك ، ويمكن للسلطات أن تستخدم هذه الخيول في حالة موت أو إرسال خيول المخزن بمهمات ، وقد يباع عدد من هذه الخيول والدواب إذا لم يكن هناك حاجة إليها (١٣٠) .

هـ- بالإضافة إلى الأشكال السابقة فإن هناك عدة أنواع أخرى للزئمة والمعونة ، أهمها :

١- حق البرنوس : وهو عبارة عن هدية تقدم بمناسبة تسلم الشيخ الخلعة كرمز للتعيين في منصب أو تجديده .

٢- رسم الزمام : وهو عبارة عن رسم إضافي يتسلمه قائد العشور كتعويض له عن خدمات أثناء قيامه بجمع العشور .

٣- مهر الباشا : وهو عبارة عن إعانة يساهم فيها السكان لنقل الدنوش إلى مدينة الجزائر ، وتختلف قيمتها في الإيالة من منطقة إلى أخرى ، فعلى سبيل المثال بلغت في بايلك قسنطينة ، في إحدى السنوات ، ما بين ٦٠٠-٧٠٠ حصان حرب .

٤- الفرس : وهي مساهمة إضافية تلتزم بها بعض القبائل الخاضعة لسلطة الدولة ، والتي لا تمارس زراعة معينة ، وتتمثل بتقديم فرس حربي .

ثانياً - رسوم الجباية الخاصة بالحياة الاقتصادية في المدن :

يمكننا أن نقسم مصادر الدخل هذه ، والتي كانت تجبي تحت اسم رسوم إلى ما يلي :

أ- معونات بلاد القبائل :

وتتضمن ما تقدمه قبيلة فليسة من كميات عينية من الزيتون والخبز والأغنام وكميات محدودة من الحبوب ، ويبلغ ثمن هذه الكميات ٥٠٠ ريال بوجو . وهناك قبائل بو غني التي تتكفل كل قبيلة منها بدفع ١٢٥ ريالاً سنوياً^(١٢٦)، وتلتزم القبائل المتعاونة مع قائد برج سباو بدفع ثلاثة آلاف ريال بوجو ، وخمسين قلة زيت زيتون ثمنها ألف ريال بوجو ، ومئة حمولة جمل من اللين الجاف قيمتها خمسة آلاف ريال بوجو^(١٢٧) . إن كل هذه المعونات التي ساهمت فيها بلاد القبائل تجاه البايك تقترب بالمواد العينية التالية: ألفا صاع من الشعير ، ألف صاع من القمح ، مئة حمولة من الزيت ، مئة حمولة من اللين ، ٦٤ خروفاً سمياً ومئة خروف عادي^(١٢٨) .

ب- ضيفة الباي أو ما يعرف بالضيفة الدنوش :

يستطيع الباي بموجب هذه الضيفة القيام بشراء الهدايا المخصصة لداي الجزائر والتي تقدم كل سنة أشهر ، ويطلق سكان إقليم التيطري على هذه الضيفة اسم غرامة الشتاء وغرامة الصيف ، وتساهم فيها قبيلة غريب القاطنة على ضفاف نهر الشلف إلى الغرب من المدينة ، وكذلك أولاد شايب الواقعة إلى الجنوب من شلالة ، مما يوفر لخزينة الدولة من بايك التيطري مبلغ قدره ٢٤٨٠٠٠ ألف ريال بوجو سنوياً ، ويضاف إلى ذلك دنوش بايك قسنطينة ووهران^(١٢٩) .

ج- الفرح أو البشارة :

وهي بمثابة رمز الفرح والابتهاج عند تولية باياً جديداً أو بمناسبة الأحداث السارة في الإيالة ، إن هذه المعونة تكاد تكون سنوية وتوفر مبالغ هامة لخزينة الدولة ، ففي بايك قسنطينة بلغت ألف ريال بوجو سنوياً ، فلنتصور كم يبلغ دخل هذه المعونة في إيالة الجزائر كلها .

الحكومة، وكانت الدولة تأخذ عن كل جابدة ما بين ٣-٥ بدقات شيك^(١٢٣)، و ١٢ صاعاً من القمح و ١٢ صاعاً من الشعير ، أي بنسبة ٥٠% من تعب الفلاح^(١٢٤) . إذاً كان الفلاح الجزائري ، في ظل هذه الأنظمة المالية القاسية، عاجزاً عن الحصول على الحد الأدنى من مستوى المعيشة الكريمة في المجتمع الذي يعيش فيه .

٣ - الضرائب المستحقة على أراضي العرش والمناطق الخارجة عن نفوذ السلطة العثمانية الحاكمة :

نصنف هذه الضرائب في النقاط الرئيسة التالية:

١ - الغرامة :

إن هذا النوع من الضرائب كان يفرض على المناطق الخارجة عن السلطة الفعلية للبايوك ، والموجودة في الصحراء والهضاب العليا والمناطق الجبلية مثل بلاد القبائل الكبرى والشمال القسنطيني ، وذلك عوضاً عن ضريبة العشور التي تحدثنا عنها فيما سبق . وكانت الغرامة تسدد إما نقداً أو عيناً ، لكن في أغلب الأحيان كانت تؤخذ عيناً كمواشي ومواد غذائية متوفرة لدى المواطنين، وقد اتبعت الدولة أحياناً أسلوب المحلات العسكرية على بعض المناطق الجبلية ، لجباية هذا النوع من الضريبة .

٢ - اللزمة والمعونة :

تستند هذه الضريبة على مبدأ المحافظة على قوة الجماعة الإسلامية لتموين الجند في الأرياف ، فهي بمثابة خراج أقرته الأحكام الإسلامية . إن اللزمة أو المعونة كثيراً ما يرد لفظهما مترادفاً ، ولكن اللزمة غالباً ما تكون مفروضة على قبائل الرعية الخاضعة للسلطة الحاكمة ، أما المعونة فتطلب من جميع القبائل الواقعة تحت نفوذ القيادة أو المتعاملة معها^(١٢٥) .

وتقسم اللزمة أو المعونة إلى الأشكال التالية :

٢- فوائد ورسوم أراضي البايك :

تشكل أراضي البايك قطاعاً زراعياً هاماً له أثر كبير على الحياة الاقتصادية في الريف الجزائري، وترتبط معيشة عدد من المواطنين بهذا القطاع عن طريق كراء الأرض أو العمل فيها كأجراء أو خماسين، وقد حصل البايك على هذه الأراضي عن طريق المصادرات التي كان يقوم بها البايات أو الأغوات بدار السلطان، كمصادرة أحمد باي قسنطينة لأراضي أولاد عبد اللور بالهضاب الشرقية العليا (١٢١). فالقوائد المترتبة على أراضي الدولة تختلف حسب طريقة الإنتاج المتبعة في استغلالها، ويتم ذلك عن طريقين أساسيين هما:

أ- نظام الخماسة:

هو نظام يُمكن الفلاح من العمل في الأرض التابعة للدولة مقابل خمس إنتاجها، بعد أن توفر له الدولة المحراث والحيوانات والبذور، وقد وفر الخماس من العمل في أراضي البايك دخلاً كبيراً قدر ب ٣٤٣ فرنكاً فرنسياً في السنوات الأخيرة من الاحتلال العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. بالإضافة إلى نظام الخماسة كانت الدولة تلجأ إلى نظام استغلال الفلاحين في أعمال السخرة؛ فترغم قبائل الرعية الخاضعة لخوجة الخيل أو البايات في التطوع للعمل بعدة جابدات، لصالح الدولة، ويعرف هذا الإجراء في الجزائر باسم التويضة (١٢٢).

ب - كراء الأراضي الزراعية :

يعرف هذا الكراء في الأراضي التابعة للدولة باسم الحكور في أغلب مناطق الإيالة، أما بالنسبة للقسم الشرقي من البلاد فإن هذا الكراء يسمى عزلاً جبرياً. وكان كراء الأراضي الزراعية يتم مقابل منافع عينية أو نقدية تسلم للجباة في آخر السنة، وذلك دون مراعاة الدولة للخسائر والأفلات التي تتعرض لها المزروعات، وكل هذه الخسائر يتحملها الفلاحون دون أية مشاركة من جانب

- مصادر الدخل :

كانت مصادر دخل الجزائر في العهد العثماني تأتي من ضرائب تجبي من الأرياف الجزائرية ، بالإضافة إلى الرسوم المفروضة على مختلف النشاطات الاقتصادية التي تمارسها بعض جماعات الحرفيين في المدن ، وما يتصل بها من حقوق تتعلق بالتبادل التجاري الداخلي والخارجي للجزائر . إن مصادر دخل الإيالة الجزائرية ، التي كانت تشكل الأساس في خزينتها ، وخاصة في أواخر العهد العثماني عندما ضعفت البحرية وبدأت الدول الأوروبية بالهجوم على السواحل الجزائرية ، تستدعي منا اهتماماً كبيراً ، لذلك يمكن أن نجعلها في النقاط التالية:

أولاً - ضرائب ورسوم القطاع الريفي :

تصنف هذه الضرائب التي كانت تشكل قدراً كبيراً من عائدات الإيالة الجزائرية وفق مايلي :

١ - ضرائب الملكيات الخاصة (العشور) :

تعد العشور من الضرائب الشرعية المباشرة المفروضة على أراضي الملكية الخاضعة لمراقبة البايلك ، والعشور ، حسب ما يفهم من معناه ، هو أخذ البايلك العشر من محاصيل الفلاحين ، لكن هذا العشر كان يؤخذ في الجزائر على أساس مبدأ الزوجة أو للجادة والتي تساوي عادة ما بين ٨-١٠ هكتار . بغض النظر عن كميات الحصاد الحقيقية . وكانت هذه التقديرات مرتبطة بقائد العشور أو خوجة المعونة ، المسؤول عن توفير المخازن في المدن والمراكز المؤقتة في الأرياف ، لحزن دخل كميات العشور الهامة .

وكان لجباية العشور نظام خاص ، وذلك في كل بايلك من إيالة الجزائر ، وترجع أهمية عائدات العشور إلى المساحة الشاسعة التي كانت تؤخذ منها ، فعلى سبيل المثال : كان ثلث أراضي بايلك الشرق عبارة عن ملكيات خاصة خاضعة لهذا النظام الجبائي (١٢٠) .

إسباني، ويتوجب على الإيالة دفع هذا العجز للدول المصدرة . وبحسب القنصل الأمريكي سالر ، فإن هذا المبلغ كبير جداً بالنسبة لبند لا يوجد لديه إلا عدد محدود من الموارد المالية ، بمعنى آخر إن التجارة الداخلية للإيالة لا يمكن أن تنتج ما يعوض هذا العجز المالي . فمن الواضح أن الدولة ستقع في الإفلاس وتتهار (١١٧) .

نقدم مثلاً آخر يبين العجز في الميزان التجاري ، ففي عام ١٨٢٦م وصلت قيمة الواردات إلى إيالة الجزائر، بحسب الجرال كلوزل ، والذي بنى معلوماته على القنصل الأمريكي إلى مبلغ وقدره ٥٨٣٢٠٠٠ فرنك فرنسي ، بينما كانت قيمة الصادرات ٣٠٠٠٠٠٠ مليون فرنك ، أي بعجز مالي في الميزان التجاري يبلغ ٢٨٣٢٠٠٠ فرنك فرنسي (١١٨) .

ونضع الجدول التالي الذي يبين الصادرات والواردات لإيالة الجزائر العثمانية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي أي بين ١٨٠٠-١٨٢٦م ، وذلك وفق السيد ناصر الدين سعيدوني (١١٩) :

السنة	الصادرات	للواردات	الفائض والعجز
١٨٠٠	٢٦٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠ +
١٨٠٢	١٢٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠ +
١٨٠٥	٩٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠ +
١٨٢٢	١٥٠٠٠٠٠	٦٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠ -
١٨٢٦	٣٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠ -

وعلى أن نأخذ هذه الأرقام بمزيد من الحذر لأنها اعتمدت على وثائق مختلفة، ومع ذلك كان الميزان التجاري الجزائري خاسراً ، لأن قيمة الواردات أكبر بكثير من قيمة الصادرات . وذلك بحسب القنصل الأمريكي الذي كان شاهداً صيان من خلال عمله في إيالة الجزائر العثمانية .

- من ٢-٣ سفن قادمة من تركيا والإسكندرية بمبلغ ٣٠٠٠٠٠ دولار إسباني .
 وكانت هذه السفن محملة بمواد غذائية مثل : السكر ، الرز ، الفلفل والقهوة .
 ومواد صناعية مثل : الحرير ، القماش ، الفولاذ ، الحلي والمصوغات ، وبلغ
 ثمن مجموع هذه الواردات مليونين ومئة ألف دولار إسباني (١١٦) .

ج- الميزان التجاري :

كان حجم الواردات الجزائرية يفوق حجم الصادرات ، فإذا أخذنا عام
 ١٨٢٢ م على سبيل المثال نجد أن ما دخل إلى إيالة الجزائر بلغ مليون ومئة
 ألف دولار إسباني ، وذلك وفق الجدول التالي :

بلد التصدير	المادة المصدرة	الثمن
بريطانيا	نسيج قطني هندي ولكليزي	٥٠٠٠٠٠ دولار
إسبانيا	حرير ، سكر وقهوة	٣٠٠٠٠٠ دولار
فرنسا	نسيج البروكار ، فلفل ، سكر ، قهوة ، فولاذ وقماش	٢٠٠٠٠٠ دولار
الشرق	حرير خام ومصنع	١٠٠٠٠٠ دولار
فرنسا وإيطاليا	حلي وألعاب مختلفة	١٠٠٠٠٠ دولار

وكان للدولار الإسباني يعادل بوجو جزائرياً واحداً ، والبوجو يعادل بدوره
 ستة فرنكات فرنسية تقريباً ، ففي حين بلغ حجم الصادرات للعام نفسه ٢٧٣٠٠٠
 دولار إسباني ، حيث يصل العجز في الميزان التجاري إلى ٩٢٧٠٠٠ دولار

سكانها، وقامت الجزائر باستيراد القمح والرز من أقاليم الامبراطورية الشرقية، لكنها كانت تستهلك ، دون أدنى شك ، من قبل الطبقة الحاكمة (١١٤) .

وفيما يأتي أهم المنتجات الغذائية التي تأتي من مرسيليا الفرنسية :

- التوابل مثل : الفلفل ، الملح ، جوز الطيب والقرنفل ، التي كانت تستخدم بصورة مميزة في المطبخ الجزائري .

- السكر وللشاي والقهوة .

- منتجات يقتصر استخدامها على بعض الطبقات المنتجات كالتبقة الحاكمة والطبقة البرجوازية مثل : النبيذ ، الجبن ، المربي ، ماء الحياة ، النعناع ، الكستناء ، والمشمش .

٣- منتجات أخرى :

كانت إيالة الجزائر تستورد بالإضافة إلى المصنوعات العسكرية ، مواد أخرى من الدول الأوروبية مثل : المرمر من إيطاليا ، والخزف لتشييد المباني الدينية وبيوت الطبقة البرجوازية في مدن الإيالة . وكانت تستورد مواد الدباغة القادمة من وسط فرنسا ، ومواد الصباغة التي تستخدم في صباغة النسيج والقماش والجلود القادمة من مرسيليا ، وقد استوردت الجزائر قضبان الحديد ، القصدير ، والخشب المستخدم في صناعة السفن والمواد التي تدخل في صناعة الأسلحة والآلات الحربية (١١٥) .

يمكننا في النهاية أن نبين ما كان يدخل إلى الأراضي الجزائرية من واردات في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وبالتحديد سنتي ١٧٨٧-١٧٨٨م وفق مايلي :

- من ٥-٦ سفن قادمة من مرسيليا بمبلغ ٨٠٠٠٠٠٠ دولار إسباني .
- من ٢-٣ سفن قادمة من ليفورن بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ دولار إسباني .

١ - النسيج ومواد الخياطة :

وكانت منتجات النسيج المستوردة توجه مباشرة إلى الطبقات المترفة والمشاغل الحرفية المحلية ، بالإضافة إلى الحرير للقادم من سميرن وسالونيك ، والذي يصنع في الجزائر وباقي مدن الإيالة (١١٠) . وكانت الأنسجة تستورد ، في الواقع ، لسد حاجات المشاغل المحلية ، وتأتي من الشرق والغرب في الوقت نفسه ، فمدينة الجزائر لديها المصانع الكافية من أجل تصنيع المواد النسيجية المستوردة ، ونستشهد هنا بما قاله السفير الأمريكي سالر : " كان لدى مدينة الجزائر المصانع الخاصة بتصنيع الحرير ، الصوف ، الجلود ، المخمل ، المحارم المطرزة ، الأحزمة ، والعمائم ، وكانت أسعار المواد المستوردة من الشرق كانت ترتفع سنوياً " (١١١) .

كانت الجزائر تستورد من مرسيليا الفرنسية كمية كبيرة من الحرير الضروري لصناعتها ، حيث يستخدمونه في التطريز والخياطة الصغيرة المذهبة والمفضضة ، ومن أجل صناعة الأحزمة المطلوبة بكثرة في البلاد ، حيث تشتري الإيالة الرطل ما بين ٧-٨ فرنك فرنسي وتبيعه لأصحاب الحرف ما بين ١١-١٢ فرنكاً . وكانت بريطانيا وبلدان الشرق تشكل المصدر الأول في عملية تصدير النسيج والحرير إلى الجزائر ، بالإضافة إلى مرسيليا الفرنسية ، واستخدم القماش المستورد أيضاً في صناعة الحايك المستخدم من قبل النساء (١١٢) .

أما فيما يتعلق بمواد الخياطة مثل : الدبابيس ، الأبر ، الأزرار والخيطان ، فإن فرنسا هي المصدر الوحيد لها إلى أراضي الإيالة عبر ميناء مرسيليا (١١٣) .

٢ - المنتجات الغذائية :

لم تستهلك المنتجات المستوردة من قبل جميع طبقات المجتمع ، لأن هذه المواد تنتج في الجزائر ، ما عدا فترات القحط التي كانت تتعرض له الإيالة بين الحين والآخر ، وكانت تجبر الجزائر إلى اللجوء للخارج من أجل تأمين

٥ - المصنوعات الحرفية :

كان سكان الجزائر يستخدمون عدداً كبيراً من المصنوعات الحرفية المصنعة محلياً مثل : مواد جلدية , أحزمة من الحرير , محارم مطرزة , طواقي , برانس , بطانيات صوفية , وغيرها من الأنسجة الصوفية , وما كان يفيض عن حاجة السكان يعد للتصدير باتجاه أوروبا وأقاليم الامبراطورية العثمانية الشرقية (١٠٧) .

ونستشهد هنا بحمدان بن عثمان خوجة الذي كتب بهذا الخصوص إذ قال : " إن سكان الجزائر يصنعون كميات كبيرة من الأقمشة المختلفة والحرير والأحزمة , وكانوا يصدرونها إلى المغرب وتونس وطرابلس الغرب , وكان لديهم أيضاً صناعات منقنة مطرزة بالحرير أعجبت الشرقيين ودولاً أخرى " (١٠٨) . وقد صدرت الجزائر كميات من منتجاتها الحرفية إلى أوروبا مثل الكوفية , حيث تم تصدير ١٠٤٠٠ كوفية إلى ميناء مرسيليا عام ١٨١٠م (١٠٩) . وبالإضافة إلى ذلك كانت الجزائر تصدر كميات من المنتجات الغذائية مثل : التمر , العلب , اللحوم المجففة والملح وغيرها من هذه المواد .

ب - الواردات :

على الرغم من أهمية مدن الإيالة من حيث حجم التصدير الذي كان يخرج سنوياً من موانئها , فإن مدينة الجزائر بقيت الأكثر أهمية بين مدن الإيالة , على الرغم من فقر سكانها , وكانت مركز الطبقة الحاكمة العثمانية , وكذلك المركز التجاري والإداري الأول في البلاد , وكان يعيش فيها أصحاب الملكيات الإقطاعية والعقارية الكبيرة , ولهذه الأسباب مجتمعة كانت الواردات تنفق بحجم أكبر في هذه المدينة من غيرها من المدن الجزائرية الأخرى , بمعنى آخر كان مستوى الطبقات التي تعيش فيها يتطلب المواد الأساسية كالحرير والأجواخ المستوردة من الخارج , والتي تستعملها الطبقات المترفة والغنية .

وأهم الواردات الجزائرية هي :

دلس ، ويمكننا هنا أن نقدم مثلاً على تصدير الحبوب من إيالة الجزائر باتجاه البلاد الأوربية ، وبشكل خاص القمح ، الذي لم يكن يخرج من أراضي الإيالة إلا بناءً على أوامر الداي نفسه . ففي عام ١٧٨٨ م خرجت من الجزائر إلى الدول الأوربية كمية كبيرة من القمح قدرت ب ١٥٠ شحنة ، وذلك عبر موانئ : الجزائر ، أرزيو ، دلس ، مسكرة (١٠٣) .

يضاف إلى ذلك أن الشركة الفرنسية الأفريقية كان لها الحق أن تصدر كل عام حوالي ٥٠٠ قفاز من القمح ، وذلك من ميناء عنابة وبسعر السوق الجاري ، ونذكر أسعار بعض الحبوب التي رصدناها من خلال كتب الرحالة ، حيث كان سعر الحبوب في عنابة عام ١٧٨٦م على النحو التالي : القمح ٢٢ بياستراً ، الفول ١٤ بياستراً ، الشعير ٨ بياستر ، وذلك للقفاز الواحد . وفي عام ١٧٨٧م تم تسجيل ٣٣ مركب فرنسي محمل بالحبوب من ميناء عنابة ، و ٢٥ مركب من ميناء أرزيو ، و ٣-٤ مركب من ميناء دلس (١٠٥) .

ويمكن هنا أن نسجل المواد المصدرة إلى موانئ مرسيليا وجنوه وليفورن عام ١٨٢٢م وفق ما يلي :

- ٢٠٠٠٠ قنطار من الصوف ، وذلك بسعر ٨ دولار إسباني للقنطار ، وبمجموع قدره ١٦٠٠٠٠ دولار .

- ١٠٠٠٠ قنطار من الجلود الخام بسعر ٨ دولار للقنطار ، وبمجموع قدره ٨٠٠٠٠ دولار .

- ٦٠٠ قنطار من الشمع بسعر ٣٠ دولاراً للقنطار الواحد ، وبمجموع قدره ١٨٠٠٠ دولار .

- ريش لعام ومواد أخرى بمبلغ وقدره ٢٧٣٠٠٠ دولار (١٠٦) .

سواء كان كبير أم صغير ، فجلود الثيران والجواميس والخراف تحت تصرف البايك (١٠٢) .

كان يصدر من ميناء الجزائر سنوياً ما بين ٢٠-٢٥ ألف جلد ، يبلغ ثمن الجلود التي تصدر فقط من الجزائر إلى فرنسا ، عن طريق ميناء مرسيليا ، ١٠٠٠٠٠ فرنك فرنسي سنوياً .

٣- الشمع :

يتوفر الشمع بكثرة في إيالة الجزائر ، فالعائلات الميسورة في البلاد تستهلك كمية كبيرة من الشموع سواء للإضاءة أم لأغراض أخرى ، وكان يصدر من ميناء الجزائر ما بين ٣٠٠-٤٠٠ قنطار سنوياً باتجاه البلاد الأوربية، فالبايك يشتري الشمع ب ٦٠ باتاكاً تشيكاً للقنطار الواحد ويبيعه ب ١٦٣ باتاكاً تشيكاً . وكانت مادة الشمع مكتكرة من قبل البييت التجاري الفرنسي الذي أقيم في مدينة الجزائر، لكنه كان يصطدم مع تجارة التهريب التي يقوم بها بعض الأشخاص.

ليس من الغريب هنا أن الدولة تمارس عملية القرصنة على رعاياها ؟ وما دلالة هذا الفارق الفاحش بين سعر شراء المنتجات المحلية من المواطنين وبين سعر بيعها ؟ ألم تكن الدولة العثمانية عبئاً على رعاياها تجردهم حتى من أبسط حقوقهم في التصرف بإنتاج أراضيهم وبيعه بأسعار معقولة .

٤- الحبوب :

تمتاز إيالة الجزائر بزراعة الحبوب وخاصة القمح القاسي المرغوب في أوروبا لاستخدامه في طهي وإعداد الكثير من المواد الغذائية ، ففي سنة المحصول الجيد كان يصدر من مدينة عنابة الواقعة شرق إيالة حوالي ٤٠ حمولة من الحبوب ، ومن مدينة أرزيو حوالي ٣٠ حمولة و ٢-٣ من مدينة

القرن التاسع عشر الميلادي . فمنذ نهاية القرن السابع عشر وبدلية القرن الثامن عشر الميلاديين ، كانت الجزائر هبارة عن مستودع للمنتجات والسلع المستولى عليها عن طريق البحرية الجزائرية بعد سهاجمة السواحل الأوربية وسفنها . وكانت سلطات الإيالة تحتفظ بحق التصدير والاستيراد لبعض المواد وفق قائمة محددة . ماعدا بعض الامتيازات لبعض الأشخاص والشركات الذين يدفعون ضريبة معينة للدولة . وأقرب مثال على ذلك : الشركة الفرنسية الأفريقية التي كانت تدفع إلى الداي عام ١٨٢٥م مبلغاً قدره حوالي ٣٠٠٠٠ دولار إسباني . علماً أن الدولار يعادل بوجو جزائري واحد أي مايعادل ستة فرنكات فرنسية . لقاء حصولها على إجازة بتصدير ١٦٠٠٠ وزنة من القمح القسنطيني القاسي ، وكان هناك ممثل رسمي يعيله الداي للإشراف على عمليات التصدير (١٠٠) . وأهم هذه الصادرات ، الصوف ، الجلود ، الشمع والعسل ، الحبوب وخاصة للقمح (١٠١) .

١- الصوف :

كانت الجزائر تصدر سنوياً إلى البلاد الأوربية ما بين ٧-٨ آلاف قنطار جزائري من الصوف . وكانت الكمية الكبيرة من هذه المادة تأتي من إقليم التيطري وعغابة . حيث تصل في بعض الأحيان إلى ما بين ١٠-١٢ ألف قنطار . وكان تصدير هذه المادة مقتصرأ على الشركة الفرنسية الأفريقية مقابل دفع ضرائب إلى السلطات العثمانية ، ودون أن يكون لها الحق بالسيطرة على إنتاج الصوف ، أما فيما يتعلق بثمن الصوف كانت السلطة تشتريه ب ٨ بياستر وتبيعه ب ١٠ بياستر .

٢- الجلود :

كانت تجارة الجلود من مسؤولية وكيل الخرج المكلف من قبل الحكومة ، مقابل راتب قدره ١٠٠٠٠ بياستر كل شهر . ويقوم وكيل الخرج بشراء الجلد ما بين ٦ و ٩ موزونة ، وهي وحدة نقد من الفضة ، ويتم بيعه ب ٣٠ بياستر - ٢٢٢ -

المرافقة لموسم الحج ، تدر أرباحاً وافرة على المساهمين فيها ، الأمر الذي جعل رأس المال العائد عن طريق هذه القوافل الذاهبة إلى الشرق يصل إلى حوالي مليوني فرنك ، وذلك في أوائل عهد الاحتلال الفرنسي ^(١٧) . ويؤكد أهمية هذه التجارة مع الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) عدد من الروايات ، والتي تقول إن تاجراً من منطقة المزاب الجزائرية واسمه الحاج ناصر ذهب إلى الأماكن المقدسة بمبلغ وقدره تسعة آلاف فرنك فرنسي ، وعاد بأرباح قدرت ب ٢٥٠ ألف فرنك فرنسي ^(١٨) .

أما التجارة مع بلاد السودان فكانت تعتمد بصورة أساسية على الحاجات الضرورية للعيش إلى جانب المواد الكمالية مثل : استيراد العبيد ، التبر ، ريش النعام وبعض المنتجات المدارية ، وقد أصيبت العلاقات التجارية للجزائرية مع بلاد السودان بالانكماش والضعف ، لأسباب عديدة أهمها :

١- إلغاء نظام الخاسة في بداية القرن التاسع عشر الميلادي بموجب معاهدة ١٨١٦ م .

٢- لفتح بلاد السودان على المحيط الأطلسي .

٣- انعدام الأمن على الطرق الصحراوية ^(١٩) .

شكلت العلاقات التجارية بين إيالة الجزائر ومناطق الوطن العربي قدراً ضئيلاً من الأهمية ، وذلك مقارنة مع العلاقات التي كانت تربط الإيالة مع الدول الأوروبية على الرغم من جو العداء المشحون بينهما ، وذلك منذ وصول الأتراك العثمانيين إلى المغرب العربي ، ويمكننا أن نبين هذه العلاقات مع الدول الأوروبية وبشكل خاص مع فرنسا ، إسبانيا ، إيطاليا ، والدول الاسكندنافية ، من خلال الصادرات والواردات .

أ- الصادرات:

لعبت الجزائر في بعض الأوقات دوراً هاماً كمخزن وميناء في إعادة تصدير المواد للقائمة إليها ، وخاصة من السودان ، إلى الدول الأوروبية ، وذلك منذ بداية

٢- كان انعقاد هذه الأسواق يدفع ببعض القبائل الجبلية الخارجة عن سلطة الحكومة العثمانية ، أو نصف الخاضعة إلى القدوم إليها وبيع منتجاتها ، الأمر الذي يسهل على الحكومة أخذ الضرائب المفروضة على هذه القبائل . وذلك دون بذل العناء للذهاب إلى مناطقها الجبلية الوعرة ، وكانت هذه الحملات تحظى بالفتن في كثير من الأحيان وتعود دون تحقيق أية نتيجة تذكر في فرض سيطرتها على هذه القبائل وإجبارها على دفع الضرائب المفروضة عليها .

٣- تحريض بعض القبائل ضد بعضها البعض ، وذلك عن طريق التقرب من بعضها وإعطائها امتيازات على حساب البعض الآخر مثل : الإعفاء من الضرائب ، الأمر الذي يوفر على السلطة الحاكمة عناء كبيراً في الدخول في خصومات مع قبائل جبلية صعبة المزال .

٤- أدت السياسة العثمانية التجارية إلى تدمير إيالة الجزائر وإضعافها وتركها فريسة سهلة للمؤامرات الأوروبية .

٥- يمكن أن نستشهد هنا بما قاله السفير الأمريكي سائر عام ١٨١٩م عن الوضع الرديء في إيالة الجزائر : " كان البايك مجبراً على استيراد حوالي خمسة آلاف صاع من القمح من أجل مدينة الجزائر وحدها " .

ومما ما قاله عام ١٨٢٥م واصفاً السياسة العثمانية المدمرة : " بالنظام الاحتكاري نفسه وفرض بعض القيود على المواد المحلية المصدرة ، دمرت الحكومة التجارة والزراعة في المملكة (١٦) .

٢- التجارة الخارجية :

تطورت التجارة الخارجية مع بلدان المغرب العربي والأقطار العثمانية في المشرق ، ومع لدول الأوروبية . فالتجارة مع لقطار المغرب العربي ومشرقه كان قوامها الحاجيات الكمالية والترفيهية ، وكانت هذه التجارة ، وخاصة

الخام ، ونقلها عبر الأراضي الجزائرية لتغذية الأسواق المحلية ، وتزويد أوروبا بها عبر موانئ الإيالة المتوسطية، ومن أهم الطرق التي كانت تربط بين شرق البلاد الجزائرية وغربها طريقان هما :

- ١- طريق النمل الواصلة بين تلمسان ، الجزائر ، قسنطينة وتونس .
- ٢- طريق الواحات الصحراوية بدءاً من تافلالت ، وتربط بين عين صالح ومثلي وورقلة وغات (١٣) . وازدهرت المدن الداخلية كتلمسان وقسنطينة بفضل الطريق الأول ، وكما حافظت الواحات الصحراوية على مكانتها التجارية ومراكزها العمرانية بفضل الطريق الثاني (١٤) . وكان هناك طرق تجارية أخرى تصل ما بين النمل والصحراء على اعتبار أن كلا هذين الإقليمين مكمل للآخر ، وذلك على الصعيدين الاقتصادي والبشري ، وينتج عن هذا التبادل التجاري بين الشمال والجنوب ازدهار للمراكز العمرانية الواقعة بين النمل والصحراء مثل : أبو سعادة، البرواقية ، بو شار وبسكرة ، الأمر الذي ساعد على ازدياد أهمية هذه الأسواق ، ودورها الفاعل في التبادل الموسمي كسوق اللوحة بالقرب من تاهرت ، وسوق الربيع جنوب إقليم التيطري ، وسوق العثمانية قرب مدينة قسنطينة (١٥) .

كان لكل مدينة أو قبيلة ، كما ذكرنا سابقاً ، سوق أسبوعي خاص بها ، وكل سوق يحمل اسم اليوم الذي ينعقد فيه مثل : سوق الأحد ، سوق الجمعة ، سوق الأربعاء... بالنتيجة يمكن أن نلخص السياسة العثمانية المتبعة من أجل فرض سيطرتها على السكان وبعض القبائل غير الخاضعة لها بالنقاط التالية :

- ١- فرض ضريبة العشور التي كانت تدفع عيلاً ، وعلى غلة الأراضي التي كانت تزجر وفق نظام الخماسة ، حيث كان يتم الدفع أحياناً في بعض الأسواق التي تقام ، وذلك تحت المراقبة التامة من قبل موظفين خاصين جندوا لهذه الغاية ، والذين يتمتعون بالسلطة الكاملة على أسواق الحبوب .

احتكار بيع الحبوب، جلود الحيوانات، الشمع، الصوف، والزيت والملح، ولهم الحق في تحديد سعر هذه المواد للمنتجين، وسعر البيع إلى التجار المحتملين. وكان سعر الشراء المحدد قليلاً جداً فيما إذا قورن بسعر البيع، حيث نلاحظ farkاً كبيراً بين السعرين، وكان في بعض الأحيان يعادل مثلاً واحداً إلى سبعة أمثال. إن هذه السياسة الاقتصادية المثبتة من قبل الحكومة ساعدتها على التحكم بالأسواق والمنتجات والأسعار التي تخص التجارة وعلى الصعيدين الداخلي والخارجي. ويمكننا هنا كما هو الحال في جميع أنحاء البلدان أن نقسم التجارة إلى قسمين^(١٢).

١ - التجارة الداخلية :

نظراً لغنى إيالة الجزائر بالمنتجات الزراعية والصناعية، وبشكل خاص المواد الأولية الخام كالصوف، الشمع، العسل، الشمع، الجلود، وغيرها من المنتجات الغذائية ذات الاستهلاك المحلي، كان من الطبيعي أن يكون لكل مدينة أو قبيلة سوق خاص بها، حيث تتم فيها مبادلة هذه المنتجات، بمعلّى آخر كانت التجارة الداخلية تتم في المدن، وذلك بواسطة الأسواق المحلية، أو عن طريق الأسواق الأسبوعية والسنوية التي تتم بالأرياف. وهناك عاملان ساعدا على تعزيز التبادل التجاري الداخلي بين المدن والأرياف هما :

الأول: تشجيع السلطة الحاكمة العثمانية لانعقاد هذه الأسواق، لفرض نفوذها على سكان الأرياف الخارجيين على سلطتها، والسماح لهم ببيع منتجاتهم لقاء رسوم وضرائب تعود إلى خزانة الدولة، الأمر الذي يؤكد للحكومة عملية خضوع هذه القبائل للسلطة.

الثاني: إن مرور القوافل التجارية وغيرها عبر أراضي الجزائر ساهم في نمو التبادل التجاري، وبشكل خاص القوافل التي تنطلق نحو المشرق العربي ولاسيما قافلة الحج، أو نحو السودان لجلب منتجاته الزراعية ومواده

٤ - جمود النقابات المهنية :

وذلك بسبب اهتمام أمنائها وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في إرضاء رجال السلطة الحاكمة ، والتقرب منهم لضمان استمرارية المهنة أو الحرفة على الرغم من خسارتها .

٥ - الاعتماد على الأجانب في بعض الصناعات :

نلمس ذلك بوضوح في ورشات صناعة السفن ، فالكادر الصناعي الموظف في الترسانة كان في غالبته من الأسرى الأوربيين ، تحت إشراف مهندسين أجانب كما ذكرنا سابقاً ، مما قلل من أهمية الاعتماد على عمال محليين وازدياد نسبة البطالة بين السكان ، الأمر الذي انعكس سلباً على جميع نواحي الحياة في إيالة الجزائر ، وأدى إلى مشكلات اجتماعية لاتحمد عقباها .

٦ - احتكار فئة وحيدة تقريباً لصناعة الحلي وصياغة الذهب :

ولعبها دور الوسيط في نقل منتجات هذا البلد الخام إلى الدول الأجنبية. وأدت السياسة العثمانية المتبعة في هذا المجال إلى إثارة عوامل الحقد والضغينة بين طوائف مجتمع إيالة الجزائر عامة ، ومجتمع مدينة الجزائر على وجه الخصوص.

ثالثاً - التجارة :

كانت التجارة بشكل عام تحت سيطرة رجال السلطة العثمانية الحاكمة ، خاصة فيما يتعلق بالتجارة الخارجية ، وكان حكام الإيالة على مر عهودها ، وبشكل خاص في عهد الدلايات يحتكرون التجارة أحياناً لحسابهم الخاص ، ولا يمكن أن تتم أية صفقة تجارية مع الخارج إلا عن طريق أوامرهم ، وكان للديوان، الذي يشرف عليه الداي ، وبعض للتجار الكبار في البلد الحق في

٢- تناقص عدد الصناع والحرفيين :

ويعود ذلك إلى طلب الدولة من الحرفيين القيام ببعض المصنوعات التي تحتاج إليها ، وكانت الأجور التي تدفع للعمال زهيدة إذا ما قورنت بطبيعة العمل وعدد ساعاته ، فعلى سبيل المثال ، لم يكن يدفع للعامل في ترسالة صناعة السفن البحرية إلا ٩ ريالاً في الأسبوع ، فكيف يستطيع هذا العامل أن يكفي نفسه وعائلته في الوقت الذي كان فيه مستوى المعيشة مرتفعاً للغاية ؟ ونستطيع أن نقيس على ذلك أجور العمال في الحرف الأخرى القاسية والتي تتطلب جهداً عضلياً كبيراً .

٣- المنافسة الأجنبية للمصنوعات الوطنية :

يمكن أن نلاحظ هذه المنافسة بأمرين : الأول اضطراب الصناع الجزائريين إلى رفع ثمن مصنوعاتهم لتغطية الالتزامات المالية والضرائب الفاحشة المفروضة عليهم من قبل السلطة الحاكمة ، مما دفع الحكام والسكان المحليين إلى شراء المنتجات الأجنبية من الدول العربية والأوربية ، الأمر الذي أدى بالتالي إلى كساد المنتج المحلي ، أما الأمر الثاني فهو زيادة الرسوم المفروضة على البضائع المصنعة محلياً أو المستوردة من بلدان عربية ، بالمقابل خفضت السلطات الحاكمة الرسوم على البضائع القادمة من البلدان الأوربية ، ولانعرف لماذا اتبعت السلطة العثمانية سياسة الكيل بمكيالين ، وتركزت الصناعة الأوربية تنافس الصناعة المحلية . إن هذه الظاهرة موجودة حتى الآن في أغلب الدول العربية . فالنظام الجمركي كان ثقيل الوطأة على كاهل الصناعي الجزائري ، وخفيفاً على الصناع الأوربيين ، الأمر الذي اضطر عدداً كبيراً من الصناع إلى هجر مهنتهم والتجؤوا إلى الأرياف .

محلية ناتجة عن وقوف السلطة العثمانية الحاكمة في وجه مواكبة الصناعات الحديثة، وبشكل خاص الأوروبية، بعد قيام الثورة الصناعية في هذه البلدان.

٤- كانت طرق وأساليب الصناعة مهنة متوارثة من الآباء إلى الأبناء ؛ لا في إيالة الجزائر فحسب ، وإنما في جميع الولايات العربية في العهد العثماني .

٥- ساعد على تطور الصناعة الجزائرية قدوم موجات الهجرات الأندلسية التي توافدت على سواحل الجزائر . حيث امتلك الأندلسيون تقاليد فنية وخبرات خاصة في بعض الصناعات التقليدية .

٦- ساهمت الصناعة الجزائرية ، إلى حد ما ، في إفقار سكان الأرياف الذين يبيعون منتجاتهم الأساسية إلى الحرفيين في المدن بأسعار رخيصة ، بالمقابل حقق سكان المدن من الحرفيين ثراء ملموساً وشكلوا ما يسمى بورجوازية المدن .

٧- لم تتخذ السلطة الحاكمة أي إجراء في سبيل تطوير الأدوات الصناعية ودعم الحرفيين ، الأمر الذي انعكس على ضعف إنتاجهم وخاصة في السنوات الأخيرة من الوجود العثماني ، مما جعل الصناعة الجزائرية ضعيفة مقارنة مع غيرها من البلدان التي استفادت من الثورة الصناعية .

• أسباب انحطاط الصناعة الجزائرية :

يمكن أن نجمل هذه الأسباب في النقاط التالية:

١- ثقل الضرائب المفروضة على الحرفيين :

فقد كانت كل نقابة ملزمة بتقديم مبالغ مالية عن حرفتها إلى خزانة الدولة، دون الأخذ بالحسبان نسبة الأرباح ، وكان يتوجب على كل دكان وسوق محلي أن يدفع ضريبة شهرية ارتفعت في أواخر العهد العثماني ، مما انعكس على أصحاب هذه الحرف والدكاكين واضطر عدداً كبيراً منهم إلى ترك عمله .

٩- صناعة الحلي والأحجار الكريمة :

إن رغبة المرأة الجزائرية في لبس الحلي ، وبشكل خاص المنحدرة من أصول غنية ، أدى إلى كثرة وتطور المحلات التي تقوم بهذه الصناعة ، والتي تعطي دخلاً عالياً لمن يمارسها ، الأمر الذي دفع أصحاب هذه المحلات إلى توسيعها والعناية بها ، ولكن مما يلفت الانتباه هو أن من يمارس حرفة الصياغة هم أبناء العائلة اليهودية وبعض الأندلسيين الذين توارثوا هذه المهنة عندما كانوا على أرض الأندلس . وأهم أنواع المصوغات هي : الأساور والخواتم والأقراط . أما فيما يتعلق بالحلي الخاص بنساء الأرياف والطبقات الفقيرة فكانت عبارة عن أدوات زينة بسيطة مصنوعة من المعادن الأقل أهمية من للذهب كالنحاس والفضة (١١).

* خصائص الصناعة الجزائرية في العهد العثماني :

تميزت الصناعة الجزائرية ، على الرغم من عدم تطور أدواتها مقارنة بالدول الأخرى بعدد من الخصائص العامة التي يمكن لنا أن نلخصها في النقاط التالية :

١- اعتمدت الصناعة الجزائرية على المواد الخام الموجودة في البلاد كالأصواف والجلود والأخشاب والمعادن المختلفة ، بالإضافة إلى بعض المواد التي استوردت من الخارج ، وخاصة من الدول الاسكندنافية كالأخشاب ، وذلك لاستخدامها في صناعة السفن .

٢- اتصفت الصناعة الجزائرية بكونها صناعة ترفيهية كمالية في بعض المدن ، وبشكل خاص صناعة الشواشي والبرانس والأحزمة وفن التطريز .

٣- لم تكن الصناعة الجزائرية بمختلف أنواعها معدة للتصدير ، بل كانت صناعات محلية خفيفة ، لتلبية حاجات المواطنين ، ويرجع ذلك إلى ظروف

الشاشية الجزائرية نظراً لارتباط صناعتها بمدينة الجزائر ، والشاشية هي عبارة عن طاقية أو قلنسوة من الصوف يضعها السكان على رؤوسهم ، خاصة الشباب والبحارة الذين كانوا يفضلون اللون الأحمر ، وكان مما ساعد على تطور وازدهار صناعة الشاشية الجزائرية اهتمام العائلات الأندلسية المهاجرة وتوارثها والعمل على تطويرها ، مثل عائلة بو ناطيرو التي كانت تمتلك محلات لصناعتها وبيعها وتصديرها ، في حي باب الواد في مدينة الجزائر ، وبالمقابل كانت صناعة الشاشية الجزائرية أقل دقة من نظيرتها التونسية والتي كان الصناع يستوردون صوفها من إسبانيا ، أما من ناحية الثمن فإن للشاشية الجزائرية كانت تباع بنصف ثمن الشاشية التونسية (٨٩) . تستخدم الشواشي المصنوعة في الجزائر للاستهلاك المحلي بحيث لم تصدر إلى خارج الإيالة ، ويعود التدهور الذي تعرضت له صناعة الشواشي الجزائرية إلى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ، الأمر الذي أفصح المجال أمام الشواشي التونسية لكي تغزو الأسواق الجزائرية المحلية ، وبالتالي مما ساعد على إقبال الناس لشراؤها ولبسها ، ومما ساعد على تطور وازدهار الشاشية الجزائرية هو اهتمام العائلات الأندلسية المهاجرة وتوارثها ، مثل عائلة بو ناطيرو التي كانت تمتلك محلات لصناعتها وبيعها وتصديرها في حي باب الواد الواقع إلى الشمال الغربي لمدينة الجزائر ويعتبر أحد أبوابها الرئيسية (٩٠) . كانت أعمال التطريز متطورة ومرغوبة لدى السكان، مما يعكس ذوق مجتمع مدينة الجزائر ، والنساء هن أكثر من يهتم بهذه الصناعة ، وذلك كونهن يلبسن هذه الثياب المطرزة ، وكان التطريز يستخدم لتزيين السروج والأحزمة الجلدية وبعض الأشياء المنزلية الداخلية...

الطبقة الحاكمة العثمانية ، وعرفت الجزائر أيضاً صناعة الزرابي ، واختصت كل منطقة بنوع خاص من هذه الثياب ، من حيث رسومها ودقة صنعها وجودتها ، وقد صدرت الزرابي إلى ولايات الامبراطورية الشرقية وبشكل خاص إلى العاصمة استانبول. وأخيراً هناك صناعة الحايك التي أخذت دوراً هاماً في إطار الصناعات التقليدية الجزائرية ، وهو عبارة عن سترة قصيرة وضيقة ، وتميزت منطقة قسنطينة بصنع هذا النوع من الثياب (٨٧) .

٧- صناعة الجلود :

نظراً لتوفر قطعان الحيوانات الكبيرة في إيالة الجزائر فمن الطبيعي أن يستخدم الناس جلودها في صنع أغراضهم الشخصية وكذلك في صنع سروج الخيل ، ويتمتع الجلود الجزائرية بالشهرة والجودة . ونجد في إيالة الجزائر ، كما هو الحال في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية سوقاً أو مكاناً يحمل اسم سوق الدباغين وسوق السراجين . واستخدمت الجلود في صناعة الأحذية التي اشتهرت بها مدن : الجزائر ، قسنطينة ، مازونة ، قلعة بني راشد ، ومستغانم ، وكانت مدينة قسنطينة ذاتعة الصيت في صناعة الجلود ودباغتها ، وشكل العاملون في هذه المهنة حوالي ١٥ % من اليد العاملة ، ويوجد في المدينة ثلاث وثلاثون مذبغة يعمل فيها حوالي مئة وخمسون عاملاً ، وخمسة وسبعون مشغلاً معدة لصنع السروج ، ويعمل فيها مئتان وعشرة عمال ، ومئة وسبعة وستون محلاً لصنع الأحذية يعمل فيها أربعمئة وثمانون عاملاً (٨٨) .

٨- صناعة الشواشي وفن التطريز :

استمرت مدينة الجزائر ، التي كانت تضم في القرن السادس عشر للميلادي حوالي ٣٠٠٠ آلاف عامل نسج ، تحتل المركز الأول في صناعة المنسوجات وفن التطريز ، وصنعت الشواشي من الصوف المحلي الخام ، وكان يطلق عليها اسم

٦- صناعة النسيج :

تطورت هذه الصناعة نتيجة تأثير الأندلسيين المهاجرين إلى الجزائر ، والذين حملوا معهم تقاليد راقية في هذا المجال ، وخاصة فيما يتعلق بصناعة الزرابي والأقمشة والشاشية والمخمل ، وتركزت صناعة الأقمشة القطنية والكتانية في مدن مازونة والجزائر ومستغانم والبليدة . أما صناعة الشرائط فقد انتشرت في جميع أنحاء الإيالة لكثرة استخدامها في التزيين ، وخاصة في تزيين ثياب النساء خاصة في الأكمام . وانتشرت صناعة الأحزمة من الحرير والأحزمة المذهبة والمفضضة في معظم مدن الإيالة ، وبشكل خاص في مناطق بلاد القبائل ، وكانت هذه الأحزمة تستخدم بشكل كبير عند رجال البحر ، ويبلغ ثمن الحزام ما بين ٢٠-٣٠ سوكاناً جزائرياً . وفيما يتعلق بصناعة السجاد ، فقد عرفت أغلب مدن الإيالة ، وكان أفضل أنواع السجاد الجزائري على الإطلاق هو سجاد المصنع الموجود في القال القريبة من مسكرة (٨٤) . أما صناعة المخمل والحرير فقد عرفت ازدهاراً في مدن الجزائر وشرشال ، واستعملت للمرة الأولى في العهد العثماني خيوط الحرير التي تنتج محلياً من نودة القز ، والتي كانت تربي بكثرة في حقول أشجار التوت الموجودة على الساحل بالقرب من شرشال وتنس ، ثم أصبحت هذه الصناعة ، وبعد ضعف الإنتاج المحلي من الحرير ، تعتمد على استيراد الحرير الخام القادم من أزمير وسالونيك وبيروت (٨٥) .

أما ما يخص صناعة البرانس فقد انتشرت في جميع مدن وقرى الإيالة الجزائرية ، والبرنس هو عبارة عن قطعة قماش ضيقة عند العنق ، ومزودة بقلنسوة تغطي الرأس لكنها عريضة في الجزء السفلي بحيث تشبه المعطف من حيث الاتساع ، ويوجد نوع من البرانس مطرزة من أسفلها (٨٦) . وكان هذا النوع من الثياب يستعمل لدى سكان الإيالة الأصليين ، في حين لم يلبسه أفراد

وصناعة العملة محصورة بأبناء الطائفة اليهودية ، فلماذا هذه الخصوصية والامتياز المنبثق من قبل السلطات الحاكمة العثمانية تجاه أبناء الطائفة اليهودية ؟ هل لأنهم هم الأغنياء ؟ أو لأنهم متحكمون باقتصاد الولايات العربية في تلك الفترة ؟ حقيقة الأمر إننا لأستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل علمي ، وثبقى أجوبتنا مجرد توقعات ؛ وذلك لعدم وجود وثائق تتناول هذه المسائل بشكل علمي ومنهجي . وكانت دار السكة تضرب العملات من مختلف أنواع المعادن ، فلدينا العملات الذهبية ، الفضية ، النحاسية والبرونزية ، وفيما يأتي أهم العملات المصنعة والمتداولة في الإيالة :

- السلطاني : وهي عملة مصنوعة من الذهب .
- البوجو الموزونة : وهي عملة مصنوعة من الفضة .
- الأسبر والدرهم : وهي عملة مصنوعة من النحاس (٨٠) .

وبالإضافة إلى هذه العملات عرفت إيالة الجزائر الصايمة ، وتسمى أيضاً بياستر وتستخدم في عمليات الدفع ، وكذلك الريال البوجو وغيرها من العملات المصنعة محلياً (٨١) . وتمتاز عملة الجزائر في العهد العثماني بأنها كانت ذات شكل مستدير ، ويرجع ذلك إلى التوافق مع شكل العملات المضروبة في عاصمة السلطنة ، في حين كانت العملات المستعملة في أقطار المغرب العربي للمجاورة ذات شكل مربع ، ولأسيما في عهد الدولة الموحدية والدول التي قامت على أنقاضها كال الدولة الحفصية في تونس ، والمرينية في المغرب الأقصى ودولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط وبشكل خاص في غربه (٨٢) . وإلى جانب هذه الصناعات التحويلية ، عرفت الإيالة أنواعاً أخرى مثل : استخراج ملح النترات ، وصنع الأدوات الفخارية عالية الجودة في أرزيو وتلمسان ، والأواني الخزفية التي اشتهرت بها مدن ندرومة وتلمسان وشرشال (٨٣) .

زكار والتي كانت تتصف بتمامها بمادة الحديد ، حيث كان يستخرج من الأرض ويصنع بتحميته ، ويتحول بعد صهره إلى قضبان صغيرة ويوزع على أسواق بجاية والجزائر .

وكانت مناجم الرصاص موجودة في جبال الريس ساس قرب حمام وبني بوطالب ، ويتم صهره في أماكن أعدت خصيصاً لهذه الغاية ، ثم يحول إلى الأسواق من أجل التجارة فيه ، وكان هناك أيضاً مناجم من النحاس والفضة وخاصة في جبل بزنان ، ونلاحظ أن مناجم المعادن المختلفة كانت موجودة في غالبيتها في بلاد القبائل (٧٧) . حيث كانت تختص كل قبيلة من هذه المنطقة بمهنة معينة على النحو التالي فمثلاً : بنو العباس يصنعون الآلات والحلي والفضة والأسلحة النارية ، وبنو منقلات يصنعون الأدوات الخشبية والأساور ، وبنو عمر يود ينحتون أحجار الرخى ، وقبيلة المسيسنا وجامعة من بني بو هالي يستخرجون الملح من جبالهم (٧٨) .

ج- صناعة العملة :

كان داي الجزائر يضرب العملة باسم سلطان القسطنطينية ، وعرف مشغل العملة بدار السكة ، وكان عبارة عن مؤسسة متواضعة واقعة بالقرب من قصر الداي وغير بعيدة عن جامع كتشاوة ، وذلك قبل أن ينقلها الداي علي خوجة عام ١٨١٧م إلى القصبة حيث ألحقها بالخزينة العامة للدولة (٧٩) .

وأدوات صب العملة بسيطة للغاية ، وهي مؤلفة من قوالب وبعض الموازين ، ومن يعمل في ضرب العملة هم من أبناء للطائفة اليهودية حصراً ماعدا المدير فهو تركي . وهنا لابد من طرح السؤال التالي : لماذا كان العمل في دار السكة حكراً على اليهود دون غيرهم ؟ ألم يكن هناك أحد من أبناء مجتمع مدينة الجزائر أهل لهذه الحرفة ولديه القدرة على تعلمها ؟ ففي جميع الولايات العربية التي كانت خاضعة للسيطرة العثمانية ، كانت مهنة الصياغة

٥- الصناعات التحويلية :

نتناول في هذا البند تحضير مواد البناء ، عملية صهر المعادن ، صناعة العملة ، وبممكننا أن ندرس كل صنف من هذه المواد على حدة .

أ- مواد البناء :

لانتشرت صناعة مواد البناء الأساسية ، وبشكل خاص الإسمنت ، لاستخدامه في عدد من مناطق الإيالة الجزائرية ، ونعرض هنا كمثال لهذه الصناعة كيفية تحضير مادة الإسمنت والآلية التي تتم وفقها ، فالإسمنت كان يحضر كما يلي :

نأخذ جزءاً من رماد الخشب وثلاثة أجزاء من الكلس وجزءاً واحداً من الرمل الناعم بعد تنخيله بواسطة منخل ، ثم يتم خلط هذا المزيج بشكل جيد وضربه بمطرقة خشبية وذلك لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متعاقبة ، ونضيف إليه من وقت إلى آخر الماء والزيت حتى يصبح صلباً ، ويتميز هذا النوع من الأسمنت بصلابته القاسية بحيث يصبح كالحجر وغير قابل لنفاذ الماء منه أثناء فصل الشتاء (٧٥) . وقد اشتهرت مدينة الجزائر بعدد من الصناعات التحويلية الأخرى مثل : صناعة الجير والآجر ، حيث كان يوجد فيها عدد كبير من الأفران المخصصة لهذه الغاية ، بالإضافة إلى ورشات لصناعة القطع الحديدية كالأقفال وسبطانة البنادق والزناد ، وكذلك مقالع الحجارة المستعملة في بناء الحصون والأسوار (٧٦) .

ب- صهر المعادن :

كانت إيالة الجزائر تحتوي على معادن غنية ولاسيما الرصاص والحديد والنحاس ، وكان حديدها ميالاً إلى البياض ويتمتع بصفات جيدة ، وقد اشتهرت بوجوده مناطق بلاد القبائل وبشكل خاص مدينة بجاية في جبال دوي وجبال

أما فيما يتعلق بعدد هذه المطاحن فإن الإحصائيات متضاربة بهذا الخصوص ، فقد أحصى فانتور دو بارادي (Venture de Paradis) حوالي عشرين مطحنة ، وتال شوفال (Tal Shuval) حوالي ستة وعشرين مطحنة ، أما نحن فقد أحصينا ٢٢ مطحنة ، منها ٩ مطاحن يعود ريعها لصالح مؤسسة الحرمين الشريفين الخيرية (٧٢) . وكانت هذه المطاحن توفر مادة الطحين لسكان مدينة الجزائر البالغ عددهم في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حوالي خمسة آلاف نسمة ، ولعبت هذه المطاحن دوراً اقتصادياً حيوياً بالنسبة لسكان المدينة ، وكانت تشكل خطراً على حياتهم في حال تعرضت لأي عطل مفاجئ ، وكانت أغلب المطاحن المائية أو الهوائية ، الموجودة داخل مدن الإيالة أو خارجها .
ملكاً للبابلك (٧٣) .

٤ - صناعة تجفيف الفواكه :

ساهم المهاجرون الأندلسيون في قيام هذه الصناعة والعمل على نشرها في أغلب المدن الجزائرية التي استقروا بها بعد طردهم من الأندلس ، وخاصة مدن : الجزائر ، قسنطينة ، تلمسان ، القليعة ، البليدة ومليانة ، واشتهر سكان مليانة بتحضير نوع خاص من المربى والمعد من عصير العنب واللوز ، حيث يمكن الاحتفاظ بهذه المادة طيلة السنة . ويمكن أن نضيف إلى هذه الصناعات الغذائية عملية عصر الزيتون ، ونظراً لانتشار زراعة شجرة الزيتون ، فمن الطبيعي أن يكون هناك معاصر لاستخراج مادة الزيت ، والتي كانت تستخدم في عدد من الصناعات الغذائية . وقد انتشرت معاصر الزيتون بشكل أساسي في مناطق جرجرة والصومام ، حيث يوجد العدد الأكبر من غراس الزيتون ، وكان يصدر فائض إنتاجها إلى مدينة الجزائر عن طريق مينائي بجاية وديس (٧٤) .

القرن الثامن عشر الميلادي ، ومن المؤسف أن عمل وتوقف هذه الأكران كان خاضعاً لسلطة البايك ، الأمر الذي كان يؤثر على المستوى الرديء لحياة السكان ، ويربط حصولهم على لقمة العيش حسب مزاج السلطة الحاكمة .

ب- مطاحن الحبوب :

كانت مطاحن الحبوب موجودة ، في جميع الأقاليم العربية أثناء العهد العثماني ، وكانت تعمل إما بواسطة المياه أو الحيوانات ، ولسوء الحظ لم أعثر لهذه المطاحن على أية آثار واضحة المعالم في مدينة الجزائر ، وذلك أثناء الزيارة الميدانية التي قمت فيها إلى مدينة الجزائر (٦٦) . وكانت المطاحن في مدينة الجزائر موجودة في غرف كبيرة وتدار بواسطة الحيوانات ، أما في خارج المدينة فكان هناك نوع آخر من المطاحن يدار بقوة الهواء (٧٠) . وقد لاحظ فاننور نو بارادي (Venture de Paradis) أثناء رحلته إلى إيالة الجزائر ، بأن سكان المزاب (منطقة في الجزائر) يشكلون جماعة منفصلة ومنفردة تعمل في مطاحن الحبوب، وكانوا وحدهم الذين يستثمرون المطاحن والحمامات داخل مدينة الجزائر . ويستخدمون البغال والجمال لتشغيل هذه المطاحن (٧١).

كانت جماعة المزاب تتمتع بامتيازات في العمل بهذه الحرف تميزهم عن سكان مدينة الجزائر الأصليين ، فلماذا كانت جماعة المزاب القادمة إلى مدينة الجزائر صاحبة الامتياز في استثمار هذه الحرفة ؟ ألم يستطع سكان مدينة الجزائر الأصليين أن يقوموا بهذه الحرفة وغيرها ؟ هل كانت الحكومة العثمانية في إيالة الجزائر تشجع ذلك ؟ فإذا كان الأمر كذلك فإنها سياسة خطيرة كانت تهدف إلى تمزيق المجتمع الجزائري بالتفريق بين أبنائه وإعطاء بعضهم امتيازات على حساب البعض الآخر ، وذلك لإحكام سيطرتها على البلد في ظروف اقتصادية صعبة كانت لصالح الطبقة الحاكمة .

٢- الصناعات الغذائية :

عرفت إيالة الجزائر عدداً كبيراً من الصناعات الغذائية التي كانت تغطي حاجات المواطنين ، وتمثل هذه الصناعات في أفران الخبز ، مطاحن الحبوب ، تجفيف الفواكه ومعاصر الزيتون .

١- أفران الخبز :

كان في مدينة الجزائر عدد من هذه الأفران وأهمها الموجودة في الأحياء التالية: ابن عذرا ، البطحة ، كوشة الخندق ، كوشة النصاري، وبين جاور علي... وقد حملت هذه الأفران اسم الحي الذي وجدت فيه ، أما فيما يتعلق بعدد هذه الأفران ، فإن هناك اختلافاً بين الوثائق العثمانية الموجودة سواء في الجزائر أم استانبول ، أو حتى في بعض أرشيف الدول الأوروبية ، ففي بعض الوثائق يصل العدد إلى حوالي ٩٨ فرنساً ، حيث كانت منتشرة في جميع أحياء مدينة الجزائر ، ويمكن أن نستشهد هنا بما كتبه الرحالة الفرنسي روزيه (Rozet) واصفاً هذه الأفران بقوله : " يوجد في كل شارع من مدينة الجزائر فرن واحد أو أكثر من الأفران العامة ، وبحيث كان كل شخص يأتي ليأخذ خبزه ، وإن هذه الأفران كانت عبارة عن غرفة كبيرة ومسقوفة ... " (٦٦) . وقد وجدنا ، في أرشيف ما وراء البحار في فرنسا ، وثيقة تتحدث عن الأفران التي يعود ريعها لصالح أوقاف الحرمين الشريفين ، داخل مدينة الجزائر ، وقد بلغ عدد هذه الأفران ٧١ فرنساً ، والوثيقة مؤرخة في رجب من سنة ١٢٢٠ هجرية ، والموافقة لشهر أيلول من عام ١٨٠٥ ميلادية (٦٧) . على أية حال ، فإن جماعة خاصة مسؤولة عن أفران اللباليك هم جماعة الجيجيلية ، كما تسميها الوثائق ، وهؤلاء قادمون من مدينة جيجل ، حيث كان هؤلاء مسؤولين عن خبز العبيد والساكنين وتزويد مدينة الجزائر بالخبز ، وكان هناك أمين يشرف على أصحاب هذه الحرفة ويوجههم في عملهم (٦٨) ، وقد تهتم معظم هذه الأفران في نهاية

٢- صناعة الأسلحة :

تمثل مناجم الحديد والنحاس والفضة التي يستثمرها الهالك اللبنة الأساسية في صناعة الأسلحة ، والتي تشتمل على صناعة البنادق وسبك المعادن وتحضير البارود ، ففي مدينة الجزائر كان يوجد مصنعان للبارود : يقع الأول خارج باب الواد ، وكان يعمل فيه عدد من الأسرى الأوربيين يبلغ عددهم حوالي العشرين ، والثاني يوجد خارج المدينة في ضاحية باب الواد مخصص لصناعة المدافع والقبائل ، وقد أطلق عليه السكان المحليون اسم دار النحاس ، ويعود تاريخه إلى بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث كان يستخدم لصهر الحديد والنحاس ، وأسس هذا المصنع أحد الأوربيين (لم تذكر المصادر اسمه) ، ففي عام ١٧٧٥م كان المشرف على هذا المصنع خبيراً فرنسياً اسمه فرانسوا دوبون ، وفي عام ١٨٠٨م خلفه خبير إسباني في الإشراف على هذا المصنع الذي كان مجهزاً بمطحنة للبارود يديرها رجل دالماركي ، وكانت مبنية ضمن الأراضي التابعة للداي والموجودة في باب الواد (١٤) . أما الأسلحة الدارية فكانت تصنع في منطقة بني راشد ، التي حافظت فيها العائلات التركية والأندلسية على صناعة البنادق منذ القرن السادس عشر الميلادي ، وكذلك منطقة جرجرة والميزاب والقرقر . وأهم المناطق التي كان يحضر فيها البارود هي منطقة جرجرة ، وخاصة عند قبيلة الربولة التي اعتادت على تحضير نوع جيد من البارود ، حيث استخدمه باي الغرب محمد الكبير في أثناء حصاره لمهران المحتلة من قبل الإسبان عام ١٧٩١م ، بالإضافة إلى هذا النوع من البارود يمكن أن نشير إلى بارود بلاد القبائل الصحراوية المستخرج من مناجم تقع بالقرب من مدينة بسكرة (١٥) .

١- إنتاج سفن تتجاوز حمولتها بين ٣٠٠-٤٠٠ طن مزودة بعدد من المدافع يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ مدفعاً .

٢- الاعتماد في صناعة السفن على الأخشاب المستوردة من الدول الاسكندنافية كهدايا وأتوات , وقليل من الأخشاب المحلية من بلاد القبائل بشكل خاص .

٣- استخدام الأسرى الأوربيين في ورشات صناعة السفن والاستفادة من خبراتهم .

٤- إشراف بعض الأجانب المتخصصين على ورشات صناعة السفن الجزائرية وإنتاجها وفق أفضل المواصفات العالمية , ففي القرن السابع عشر الميلادي كان سيمون دلسا هو الذي يشرف على صناعة السفن في مرسى الجزائر , حيث قدم للبحرية الجزائرية نوعاً من السفن المستديرة القادرة على الإبحار في أعالي البحار , وذلك بفضل التقنية عالية الجودة التي رزدها بها (١٢) .

وكان من أهم المراسي التي يوجد فيها ورشات صناعة السفن , الجزائر , شرشال , جيجل وعنابة , وقد ضعفت البحرية الجزائرية في أواخر العهد العثماني , بسبب الاعتماد بشكل أساسي على اليد العاملة الأجنبية والأسرى الأوربيين الذين قل عددهم (١٣) , وقلة موارد الإيالة الجزائرية لضعف نشاطها البحري والظروف والكوارث الطبيعية التي تعرضت لها , الأمر الذي انعكس على البحرية الجزائرية , خاصة بعد توقيع الدول الأوربية على معاهدة إنهاء الرق عام ١٨١٦م , حيث أصبحت السواحل الجزائرية تحت رحمة الدول الأوربية التي انتقلت إلى مرحلة الهجوم المباشر بعد ضعف البحرية الجزائرية التي أوقفت صناعة سفنها , الأمر الذي كان له آثار مدمرة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي , وتحولت الجزائر إلى موقف الدفاع عن نفسها بعدما كانت في موقف هجومي هز السواحل الأوربية وبث الرعب فيها وفي سكانها , بالإضافة إلى الغنائم الحربية الكبيرة والأسرى الذين كانت تجمع بهم شوارع مدينة الجزائر .

الجزائرية . فالصناعات الحرفية الجزائرية كانت موزعة على نقابات مهنية ، وعلى رأس كل حرفة أمين ، ففي مدينة الجزائر بلغ عدد هذه الحرف حوالي الأربعين وفي قسنطينة عشرين مهنة . ولكل حرفة أمين يعرف بالصناعة التي يشرف عليها مثل: أمين الخياطين ، أمين السراجين ، أمين للدباغين وغيرهم من أمناء هذه الحرف (٥٩) . وكانت مهمة الأمين مراقبة نوعية الإنتاج ، وتسهيل عملية حصول أصحاب الحرف على المواد الضرورية لحرفتهم ، وله الحق في أن يطلب من الصانع إعادة صناعة بضاعته في حال عدم مطابقتها للمواصفات المطلوبة (٦٠) .

ويمكننا هنا أن نصنف أهم الصناعات التي عرفت لها ليالة الجزائر في العهد العثماني وفق ما يأتي :

١- صناعة السفن :

يرجع وجود هذه الصناعة وتطورها إلى ارتباط الوجود العثماني منذ البداية بالبحر ، فوصول العثمانيين إلى المغرب العربي كان عن طريق رجال البحر ، وكان العمل الوحيد لاستمرار النشاط البحري هو العمل على صناعة السفن وتأهيل وإعداد البحارة المهرة ، لمهاجمة الدول الأوروبية وسواحلها ، والعمل على نقل العرب المسلمين من الأندلس إلى شواطئ المغرب العربي عامة ، والشواطئ الجزائرية خاصة ، ولأسيما بعد سقوط غرناطة بيد الإسبان وما تبعها من حملات عسكرية بحرية ضد سواحل المغرب العربي في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، على أية حال ، فقد شكلت الورشات البحرية التي تتم فيها صناعة السفن مشاريع هامة ، واعتمدت السلطة العثمانية في الجزائر على الأسرى الأوروبيين في صناعة السفن ، من حيث كونهم يشكلون اليد العاملة المتخصصة في هذا المجال ، وأهم ما سيز صناعة السفن الجزائرية ما يلي :

الأوربيين واليهود^(٥٥) من جهة أخرى . وكان هناك مناطق في إيالة الجزائر تعتمد فقط على تربية الماشية لتلبية حاجاتها المعيشية كما هو الحال في منطقة الماشية ، حيث كان هناك مراعي تمتد على مساحة كبيرة تبلغ حوالي مليوني هكتار، وتم إحصاء حيوانات هذه المنطقة على النحو التالي :

٣٢٠٠ خروف ، ١٠٠٠ غنزة ، ١٠٠٠ بقرة ، ٢٠٠٠ بقل ، ٧٠٠ حصان وعدد كبير من الجمال^(٥٦) . وحسب الإحصائيات الأولية التي قام بها الجيش الفرنسي، فقد قدر عدد الحيوانات في إيالة الجزائر في أواخر العهد العثماني بما يلي :

بلغ عدد الأغنام ٦٨٥.٢٥٠ رأساً ، و ٣٣٨٤٩٠.٢ رأس ماعز ، و ١٠٣١٧٣٨ رأس بقر ، و ٢١٣٣٢١١ جملاً وناقة ، و ٧٨٦٦٤ حصاناً ، و ١٣١.٣٥ حصاناً ، و ١٠٩.٦٩ بقل^(٥٧) . ويمكن أن نضيف إلى هذه الثروة الحيوانية ما يوجد في الإيالة من عدد كبير من الحجل البري ودجاج الماء ، وكذلك الأسماك الموجودة في سواحل الجزائر ، ولكن هذه الأسماك لا تجد إقبالاً على شرائها من قبل سكان المدن والسواحل الجزائرية ، الأمر الذي أدى إلى عدم تطور العمل في هذا المجال ، لأن السكان كانوا يفضلون استهلاك لحوم الأغنام^(٥٨) .

ثانياً - الصناعة :

لم تكن الصناعة ، بالمعنى الحديث للكلمة ، موجودة في إيالة الجزائر ، والتي لم تعرف إلا عدداً من الحرف اليدوية المتطورة إلى حد ما ، كانت تلبي حاجات الغالبية العظمى من السكان . وكانت أوروبا تزود الإيالة ببعض الصناعات ، والتي كان استخدامها وشراؤها مقتصرأ على عدد قليل من المستهلكين مثل : أصحاب المناصب الرفيعة من الأتراك والطبقة البرجوازية

٥- الأشجار الحراجية :

انتشرت زراعة هذه الأشجار في مناطق التل والهضاب العليا ومرتفعات الأطلس الصحراوي ، وتقلصت المساحة المزروعة بها في أواخر العهد العثماني ، بسبب قطع عدد كبير منها واستخدام أخشابها في إقامة المساكن وصنع الأثاث والطهي والتدفئة (٥٢) ، وكان قسم كبير من الأخشاب يستخدم في صناعة السفن ، وخاصة عام ١٧٨١م ، حيث تم قطع أغلب الأشجار الساحلية لبناء خمسين سفينة مجهزة بالمدافع ، وقد أتبع الأسلوب نفسه في المناطق الشرقية من الإيالة وبشكل خاص غابات جيجل وعنابة ، حيث شحنت أخشابها إلى ترسانة السفن في مدينة الجزائر ، وذلك بناء على أوامر شيوخ القبائل المتعاونين مع الأتراك مقابل حصولهم على امتيازات الدولة ، وبالرغم من السياسة الجائرة والمضرة التي اتبعتها حكومة الجزائر العثمانية تجاه الغطاء النباتي ، فإن هذا الغطاء ظل يتميز بكثافة وتنوع أشجاره ، وبلغت مساحته ١٢٥١٧٥٧ هكتاراً ، وكانت أهم الأشجار : الفلين ، الصلوبر ، الزيتون البري ، والصفصاف (٥٣) .

٦- الثروة الحيوانية :

تشكل الثروة الحيوانية على اختلاف أصنافها قاعدة هامة في الاقتصاد الجزائري في العهد العثماني ، فالثروة لدى العرب في تلك الفترة تشكل ركناً أساسياً من أركان حياتهم الريفية ، وكانت إيالة الجزائر تمتلك أعداداً ضخمة من الحيوانات : كالأغنام الماعز ، الأبقار ، وغيرها من الحيوانات التي كانت تستخدم في الأعمال الزراعية والريفية (٥٤) ، وكانت منتجاتها تستخدم كمصدر رئيسي للغذاء من جهة ، وفي صناعة الخيام ونسج الملابس بمختلف أنواعها من الصوف الذي كان يصدر أيضاً إلى أوروبا ، وذلك عن طريق التجار

١- البقول والخضروات :

عرفت الإيالة زراعة جميع أنواع البقول والخضروات التي كانت تلعب دوراً هاماً في تزويد أسواق المدن ، وأهمها : الفول ، الحمص ، الطماطم ، الفليفلة ، الخيار ، البصل ، الشمام ، البطيخ ، (٤٦) . وكان سكان مدينة الجزائر يهتمون بزراعة العدس في الأراضي القريبة من المدينة ، ويستخدمونه في وجباتهم الغذائية كما هو الحال بالنسبة للفلول (٤٧) . أما أسعار هذه المزروعات فقد كانت مئة حبة من البصل تباع بثلاثين سنتيماً ، ومئة حبة من الطماطم تباع بما يعادل فرنكاً واحداً عندما احتلت القوات الفرنسية الجزائر عام ١٨٣٠م (٤٨) .

٤- المزروعات ذات الطابع التجاري :

يمكننا الإشارة إلى هذه المزروعات نظراً لأهميتها الاقتصادية على الصعيدين الداخلي والخارجي ، كونها مزروعات صناعية ، وأهمها : القطن ، الكتان ، التبغ ، وكانت تزرع من قبل أولاد شبل في سهل للمنتجة الخضيب^(٤٩) ، وكان الرز يزرع بنواحي مليانة المتاخمة لنهر الشلف ، وبالقرب من مدينة معسكر ومستغانم ، وقد بلغ إنتاجه في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حوالي ستة آلاف صاع ، وكان القطن يزرع أيضاً في سهول مينا والشلف ومستغانم ، أما زراعة التبغ ، فقد انتشرت في نواحي عنابة ونواحي دار السلطان وبعض الواحات الصحراوية ، وتميز التبغ الجزائري بجودته حيث كان الإقبال كبيراً عليه من قبل المدخنين ، وأصبح التبغ الجزائري مادة للتصدير إلى بلدان المشرق العربي وتونس وطرابلس ، وبشكل خاص التبغ الذي يزرعه أولاد شبل في سهل المنتجة^(٥٠) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه المزروعات إنتاج العسل والشمع ، الذي كان معروفاً في المناطق الشرقية من الإيالة وخاصة في إقليم عنابة والقلعة ، وفي الأقاليم الجبلية في بابلوك الغرب (٥١) .

٤٨٠٠ جابدة ، في أواخر العهد العثماني ، أما في القسم الغربي للإيالة في وهران وتلمسان وضواحيهما فقد تدهورت الأراضي بحوالي ٥٢١٢ جابدة ، وقد عمل البايك جاهدأ لوضع يده على الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب ، وأصبح مجموع أملاك الدولة في نواحي قسنطينة ووهران ما يعادل ٨٤ ألف هكتار ، شتية الإحتلال الفرنسي للإيالة في عام ١٨٣٠م (١١) .

كانت هذه المساحات من الأراضي والمزروعة بالحبوب تزود الدولة بإنتاج ضخم ، حيث كان يخصص قسم منه للسكان المحليين ، ولكن بكميات قليلة ، بينما بعد للقسم الآخر وهو الأهم للتصدير ، وقد تميزت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي حتى عام ١٨١٥م بوفرة إنتاج الحبوب ، وبشكل خاص للقمح ، فقد صدرت الإيالة في عام ١٨٠٨م مئة وخمسين ألف شحنة إلى أوربا ، بالمقابل فإن سنوات الحكم العثماني الأخيرة وخاصة بين ١٨١٦-١٨٣٠م تميزت بقلة الإنتاج ورداءة المحصول الزراعي (١٢) ، وكان هناك اهتمام ببعض الزراعات الصناعية مثل القطن والكتان والتبغ ، وذلك في سهل المتيجة من قبل عائلة أولاد شبل بالذات (١٣) .

٢- الأشجار المثمرة :

انتشرت زراعة الأشجار المثمرة على نطاق واسع في مناطق مختلفة من إيالة الجزائر ، ويعود الفضل في التوسع بزراعة هذه الأشجار إلى الأندلسيين المهاجرين من إسبانيا والذين نقلوا معهم عدداً كبيراً من هذه الغراس وزرعوها في الجزائر وأغلب أنواع الأشجار المثمرة الموجودة في الإيالة كانت مزروعة في أوربا ، فلانتشرت زراعة البرتقال والعنب حول الجزائر والبلدية والميدية ، أما زراعة الزيتون فكانت منتشرة في منطقة القبائل وعصابة ، بينما انتشرت زراعة التين في جميع أنحاء الإيالة (١٤) ، وكذلك زراعة اللوز والجوز والمشمش ، وأشجار النخيل التي كانت تعطي مردوداً اقتصادياً هاماً (١٥) .

الملاكين في سهل المتيجة ، فقد كتب في مؤلفه المرأة واصفاً هذا السهل بقوله " إن أراضي سهل المتيجة أغلبها مستنقعات مضرّة بالصحة في فصلي الصيف والشتاء (٣٩) .

ونرى هنا اتفاق للكتاب والمؤرخين حول كثرة المستنقعات في السهول الخصبة ، وأضرارها على الصحة العامة للمواطنين ، وتقصير الحكومة وعدم اتخاذها أي إجراء في سبيل ذلك ، مع العلم إن الفائدة الكبرى ستكون لها في حال عملت على تجفيف هذه المستنقعات ، وليس لصالح الفلاحين ، خاصة وأن أصحاب الملكيات الكبيرة في هذه السهول هم من الطبقة الحاكمة . يضاف إلى ذلك عدم استخدام الفلاحين للسماد الذي يعطي خصوبة للتربة ، وكانت الأراضي تترك في بعض الأحيان بوراً لعدة سنوات ، نظراً للصعوبات التي كان الفلاح الجزائري يعاني منها ، والتي ذكرناها سابقاً.

٥- المحاصيل الزراعية :

١- الحبوب :

احتلت زراعة الحبوب المكان الأول في إيالة الجزائر العثمانية، وبشكل خاص القمح القاسي الذي كان يستخدم في صناعة الخبز أو تحضير الكسكس^(٤١) . وكانت نوعية الحبوب مختلفة حسب مناطق زراعتها ، ففي مناطق الأطلس والهضاب الداخلية كان يزرع قمح جيد يفوق من حيث النوعية والجودة قمح سردينية ، حيث أقبال للتجار الأوروبيون عليه ، وعملوا على تصديره إلى بلدانهم لتلبية حاجات أسواقهم من هذا الصنف الممتاز والمرغوب لدى مواطنيهم .

وكانت زراعة الحبوب منتشرة بصورة خاصة في سهول مدينة قسنطينة وفي جهات غريس وقلعة بني راشد ومستغلم وتلمسان والتيطري ، وقدرت للمساحة المزروعة بالحبوب والتي يملكها البايك في الشرق القسنطيني حوالي

كانت فيه البلاد والرعية تثن تحت وطأة المجاعة ، وكانت الأسواق للداخلية شبه ميتة ماعدا بعض المحاصيل الضرورية للعيش ، لكن أسعارها كانت مرتفعة بحيث لا يستطيع جميع السكان شراءها .

٣- اختلال الميزان التجاري الجزائري بسبب انخفاض أسعار المواد الأساسية والمنتجة محلياً مثل : الحبوب والصوف والشمع والجلود ، بسبب تلاعب التجار الأجانب في أسعارها ، في حين زادت أسعار المواد المصنعة في أوروبا والمصدرة إلى إيالة الجزائر ، فانخفاض أسعار الحبوب جعل البلاد تعيش في أزمة اقتصادية حقيقية ، وانخفض المستوى المعيشي للفلاحين والصناع والتجار الصغار .

٤- تقنيات وأساليب العمل البدائية المستخدمة في الأعمال الزراعية :

كانت التقنيات المستخدمة بسيطة وتقليدية ، وتقتصر على المحراث اليدوي الخشبي البسيط الذي تجره الدواب (٣٦) ، والمنجل البسيط لجني المحصول ، وباستخدام مثل هذه الأساليب البسيطة ظلت كثير من الأراضي الخصبة تعاني من الإهمال ، وتنتشر فيها المستنقعات مثل : سهول مدينة الجزائر ووهران وعنابة ، فأراضي سهل المنيجة القريب من مدينة الجزائر كانت في أغلبها مستنقعات على الرغم من خصوبتها ، وكانت هذه المستنقعات تضرر بالصحة العامة ، خاصة في فصل الصيف والشتاء ، ولم تتخذ الحكومة أية إجراءات لتجفيف هذا السهل الحيوي والخصيب (٣٧) .

نستشهد هنا بالوصف الذي قدمه العالم دي فونتين (Des Fontaines) لسهل المنيجة أثناء زيارته لمدينة الجزائر في عام ١٧٨٤م إذ قال " إن مياه هذا السهل الراكدة في فصل الشتاء تسبب تلوث الهواء في فصل الصيف " (٣٨) . وهناك شاهد عيان آخر ، هو حمدان بن عثمان خوجة ، الذي يعد من أكبر

ريف الجزائر الوسطى ، على أنول الإنتاج وتطوير آلية عمل الزراعة ، من تراجع الاقتصاد الجزائري بصورة عامة ، وخاصة فيما يتعلق بالإنتاج الزراعي ، في السنوات التي سبقت الاحتلال الفرنسي (٢٤) . يضاف إلى ذلك اتباع السلطات الحاكمة سياسة الاستيلاء على الأراضي المنتجة للحبوب ، والضغط على الفلاحين لزراعة كميات نوعية من الحبوب لتصديرها عن طريق الدولة إلى خارج الإيالة ، عبر وكلاء للبلدك والمتعاملين معهم من اليهود وممثلي الشركات الاحتكارية الأوروبية مثل للشركة الفرنسية .

أدى اتباع الدولة لهذه السياسة الاحتكارية ، القائمة على تصدير بعض للمنتجات المنقاة والتي تلبى حاجة الأسواق الأوروبية ، إلى اضطراب في إنتاج المحاصيل المحلية وانخفاض أسعارها ، وإجبار الفلاح على بيعها إلى الحكومة ، وفي حال رفضه كان يتعرض للعقوبة ، وفي عام ١٨٠٨م كتلت الدولة تشتري من الفلاح صاع القمح بمبلغ قدره 80 ، 8 قرشاً ، في حين تقوم ببيعه إلى المحتكرين الأجانب بمبلغ وقدره 26,30 قرشاً للصاع الواحد (٢٥) .

من هنا نرى أن الدولة تقوم بسرقة مواطنيها بدلاً من تحسين ظروفهم وأحوالهم المعيشية ، ولا يوجد ما يفسر ذلك إلا شيء واحد ، هو أن الدولة لايهمها إلا مصلحتها بالدرجة الأولى ، وكذلك مصلحة عملائها من المحتكرين لتجارة البلاد ، وقد أدى احتكار الدولة لبعض المنتجات المحلية الهامة إلى النتائج التالية:

١- انخفاض كميات الحبوب المصدرة إلى أوروبا عبر الموانئ الأوروبية مثل : مرسيليا وليفرون ، خاصة في بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، في الوقت الذي كانت المواسم والأحوال الزراعية جيدة .

٢- أدى احتكار الحبوب وربطها بالدولة إلى تعميق القطيعة بين الرعية والحكام ، خاصة عندما اتخذت السلطات الحاكمة قراراً يشجع الأجانب على تصدير إنتاج الإيالة من الحبوب ، إلى الأسواق الأوروبية ، في الوقت الذي

٢- الظروف المناخية وأنماط الحياة :

كان للعوامل المناخية ونوعية التربة أثر مباشر على العملية الزراعية في العهد العثماني ، وأدى اختلاف المناخ من منطقة إلى أخرى إلى تنوع المزروعات ، حيث تركزت زراعة الحبوب والبقول في المناطق الساحلية ، وكانت الأشجار المثمرة تزرع في المناطق الجبلية ، وانتشرت المراعي بشكل كبير في مناطق الأطلس والسهول الوهرانية (٣٢) .

ساعد اختلاف أنماط الحياة على اعتماد زراعة معاشية استهلاكية في مناطق التل ، حيث اعتمد فيها الفلاح على سد حاجاته الأساسية من المواد الغذائية . لقد أثرت العوامل المناخية وأنماط الحياة في الاقتصاد الجزائري في العهد العثماني ، بحيث أصبح مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي اقتصاداً مغلقاً قليل المربود والإنتاج ، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى عزله عن سد حاجات البايك والسكان من المحاصيل الزراعية الأساسية (٣٣) .

٣- الإجراءات الإدارية المتخذة من قبل السلطات العثمانية :

لم تكن العوامل الطبيعية وحدها المسؤولة عن تراجع إنتاج الأراضي من المحاصيل الزراعية ، سواء كانت الأراضي عائدة للدولة أم للفلاحين ، بل لعبت الإجراءات الإدارية التي اتخذها حكام إيالة الجزائر بالإضافة إلى تصرفات الموظفين دوراً أساسياً في ذلك . فاتباع للسلطة الحاكمة سياسة المصادرة والغرامات ، وذلك عن طريق شن حملات صيفية تعرف باسم " المحلات " ، انعكس على إنتاج المواسم الزراعية ، وبشكل خاص منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث بدأ الإنتاج الزراعي يتأثر بشكل كبير عندما لجأت الحكومة إلى اقتطاع كميات كبيرة منه ، على شكل ضرائب فصلية وسنوية ، ولم تمنع بعض الإصلاحات ، التي أدخلها يحيى آغا قائد الانكشارية والمتصرف في

ويمكننا أن نلخص الأثر السيء الذي تركته هذه الكوارث على جميع

نواحي الحياة وبشكل خاص النشاط الاقتصادي ، في النقاط التالية :

١- ترك سكان الأرياف أراضيهم الزراعية ، وذهبوا إلى المدن من أجل البحث عن عمل لسد حاجتهم الضرورية ، الأمر الذي أدى إلى خراب أراضي الريف التي لم تجد من يعمل فيها لبعض الفترات ، فانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية عامة في المدن ، فأصبحت البلاد بركود اقتصادي قاتل انعكس بدوره على الأوضاع السياسية التي تعرضت لعدم الاستقرار ، ومما زاد في المشكلة استغلال الدول الأوروبية لهذه الظروف وتكثيفهم الهجمات ضد السواحل الجزائرية.

٢- تزامن الركود الاقتصادي ، الناتج عن هذه الكوارث ، مع ضعف السلطة العثمانية في الجزائر سياسياً ، الأمر الذي جعل الحكام العثمانيين العوبة بيد القوتين العسكريتين الحاكميتين في الجزائر وهما : الانكشارية والرياس ، وساعد هذا الضعف على تنافس الدول الأوروبية لانتزاع هذا الجزء من الدولة العثمانية المريضة ، فكان من نصيب فرنسا عام ١٨٣٠ م .

٣- أدى عدم استفادة الدولة العثمانية من الثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا واستخدامها في بناء قاعدة اقتصادية في البلدان التي كانت تسيطر عليها ، إلى انهيارها السريع ، وكان بقاءها في بلدان المشرق العربي حتى الحرب العالمية الأولى مسألة وقت ، وتتنافس بين الدول الاستعمارية ، واختلاف في خطة على تقسيم ممتلكاتها على حساب بعضها البعض .

٤- يمكننا هنا أن نطرح السؤال التالي : ما موقف الدولة العثمانية تجاه هذه الكوارث التي تعرضت لها إيالة الجزائر ؟ وما التعويضات التي قدمتها لرعاياها المنكوبين ؟ في الحقيقة إنها لم تقدم شيئاً ، واستمرت في سياستها العادية في فرض ضرائب جديدة وجمعها ، دون الأخذ بالحسبان ما تعانيه الرعية من دمار حقيقي في جميع نواحي الحياة بسبب هذه الكوارث .

العثمانية^(٢٧) . ونستشهد هنا بالنسبة إلى مدينة الجزائر بفانتور دو بارادي (Venture de Paradis) الذي علق على الحدث وأعطى أرقاماً إحصائية إذ قال " إنه خلال أربعة أشهر كان يموت يومياً في مدينة الجزائر بين ٢٠٠ و ٢٥٠ شخصاً، وذلك ماعدا الأسرى الأوروبيين واليهود^(٢٨) .

٤- وباء عامي ١٧٩٣-١٨٠٤م :

فذلك هذا الوباء بسكان ريف مدينة الجزائر مما أضر بالإنتاج الزراعي . وذلك إثر النقل عدوى الطاعون عن طريق سكان المدينة الهاربين إلى الريف . أما داخل مدينة الجزائر فقد تسبب هذا الوباء بقتل ١٢ ألف نسمة ، فانعكس ذلك على حركة الأسواق ، وكل أنواع النشاط التجاري في المدينة ، بحيث توقف هذا النشاط وخاصة في شهري أذار ونيسان من عام ١٧٩٣م^(٢٩) . كما تعرضت المدينة لوباء عام ١٨٠٤م ، حيث كان هذا الوباء يقتل من ٢٠ إلى ٢٥ شخصاً يومياً^(٣٠) .

٥- وباء عامي ١٨١٧-١٨١٨م :

انتشر هذا الوباء في جميع أنحاء إيالة الجزائر في الأرياف والمدن ، وتركز بشكل خاص في مدينة الجزائر ، الأمر الذي دفع الفلاحين والمزارعين إلى ترك أراضيهم الزراعية ، فانعكس ذلك على الحياة التجارية في المدينة ، حيث فقدت من الأسواق المواد الغذائية الأساسية القادمة من الريف ، وبلغ عدد السكان الذين قضوا لحبهم جراء هذا الطاعون ١٣٣٣٠ شخصاً ، بين ٢١ حزيران ١٨١٧م و٦ كانون الأول ١٨١٨م^(٣١) .

تبين لنا من العرض السابق مدى تأثير الكوارث الطبيعية على حياة ونشاط سكان إيالة الجزائر سواء في الريف أم المدينة ، فالعلاقة متكاملة بين سكان الريف والمدينة ، فالفلاح هو الذي يزود المدينة بالمواد الغذائية والأولية اللازمة للصناعة ، ويحرك بالتالي السوق الاستهلاكية .

سنة (٢٣) ، كما حدث طيلة أعوام ١٧٨٤م و ١٧٩٨م ، وقد أحصى في القرن السابع عشر الميلادي ٦١ عاماً مرت بدون وباء ، و ٣٩ عاماً انتشرت فيها الأوبئة في مختلف أنحاء البلاد ، وفي القرن الثامن عشر الميلادي تم إحصاء ٧٩ عاماً بدون أوبئة و ٢١ عاماً تعرضت فيها البلاد للأمراض المعدية (٢٤) .

يمكننا هنا أن نورد هذه الأوبئة التي تعرضت لها إيالة الجزائر ، والتي تركت آثارها السلبية على مختلف نواحي الحياة عامة والناحية الاقتصادية الزراعية بشكل خاص ، حسب سنوات حدوثها وفق ما يلي :

١- وباء عام ١٦٥٤م :

يعرف هذا الوباء لدى الباحثين بالكونية ، وقد قضى على أكثر من ثلث سكان مدينة الجزائر ، مما أدى بالتالي إلى شلل النشاط الاقتصادي في الريف والمدينة .

٢- وباء عام ١٦٦٤م :

أدى هذا الوباء إلى تناقص سكان مدينة الجزائر إلى النصف تقريباً ، حيث نزل عددهم إلى ٣٠ ألف نسمة ، وقتل هذا الطاعون أيضاً حوالي ١٠ آلاف أسير أوروبي في مدينة الجزائر (٢٥) .

٣- وباء عامي ١٧٨٤-١٧٨٨م :

أهلك هذا الوباء عدداً كبيراً من سكان مدينة الجزائر ، الأمر الذي دفع سكانها إلى هجرة منازلهم والخروج منها ، ولم يبق من سكانها سوى ٥٠٠٠ نسمة ، وامتد الدمار إلى ضواحي المدينة وقراها ، حيث أحصت الدراسات النتائج المدمرة لهذا الزلزال ، إذ توفي ١٦٧٢١ شخصاً في سنة واحدة ، من مختلف طوائف المدينة (٢٦) .

كانت هذه الأوبئة التي تعرضت لها مدينة الجزائر في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين عامة وشملت جميع أنحاء الامبراطورية

د- الزلازل :

تعرضت إيالة الجزائر في العهد العثماني إلى العديد من الهزات الأرضية، وشكلت هذه الهزات عاملاً سلبياً حيث شل البلاد في جميع نواحيها ، ونستعرض هذه الزلازل التي حدثت في النقاط التالية :

١- زلزال عام ١٦٣٢م : ويعتبر من الهزات الأرضية القوية ، حيث أهلك وقتل أناساً كثيرين ، بالإضافة إلى الخسائر المادية التي لحقت ببعض المدن، وخاصة مدينتي الجزائر والمدينة (١٩) .

٢- زلزال عام ١٧٥٥م : حدث هذا الزلزال في عهد الداي بابا علي ، وكان من أشد الزلازل التي تعرضت لها مدينة الجزائر في تاريخها ، حيث لم يبق أي منزل في المدينة بدون ضرر، وتوقفت بسبب ذلك جميع فعاليات الحياة وبشكل خاص الزراعية ، التي توقفت طيلة السنة (٢٠) .

٣- زلزال وهران عام ١٧٩٠م : واستمر هذا الزلزال على شكل هزات متتالية لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، بدءاً من شهر تشرين الأو عام ١٧٩٠م حتى كانون الثاني عام ١٧٩١م (٢١) ، وقضى الزلزال على حوالي ١٠٠٠ نسمة في هذه المدينة ، ألحق أضراراً مادية جسيمة (٢٢) .

٤- زلزال الأطلس : حدث هذا الزلزال في عام ١٨٢٥م ، واستمرت هزاته ثمانية عشر يوماً ، ونتج عن ذلك ترك الفلاحين لأراضيهم الزراعية وتعطلت أعمالهم جراء ذلك ، ودمرت مدينتا البليدة والقلعة ، وتحولت معظم مساكنهما إلى خرائب حقيقية .

هـ- الأوبئة الفتالة وخاصة الطاعون :

بالرغم من المناخ الصحي لمدينة الجزائر فلم تكن بمنأى عن مرض الطاعون ، الذي كان يظهر فيها مرة كل خمس عشرة أو خمس وعشرين

٣- مجاعة عامي ١٧٨٧-١٧٨٩م :

تعرضت البلاد لمجاعة قاسية في هذين العامين ، وكان لها آثار مدمرة على الازدهار الاقتصادي في البلاد ، وترافقت مع زحف الجراد على المحاصيل الزراعية.

٤- مجاعة عام ١٧٩٤م :

- نتج عن هذه المجاعة غلاء فاحش طال المواد الغذائية في أسواق المدن والريف على حد سواء ، ورافقته فوضى سياسية .

٥- اتصف الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي بأنه عهد المجاعات خاصة في السنوات ١٨٠٠م و١٨٠٦م و١٨٠٧م و١٨١٦م (١٨) ، وقد تزامن ذلك مع فترة الحصار الأوربي وبشكل خاص الفرنسي لإيالة الجزائر ، وضعف النشاط البحري الجزائري، الأمر الذي انعكس على الوضع الاقتصادي في الداخل ، وذلك جراء انقطاع عائدات النشاط البحري المتمثل في مهاجمة السواحل الأوربية .

- أثقلت هذه المجاعات والكوارث الطبيعية كاهل السكان الجزائريين الباقين على قيد الحياة ، دون اتخاذ أي إجراء من قبل السلطة العثمانية الحاكمة لتخفيف معاناة الشعب الرزح تحت نير الظلم من جهة ، وتحت وطأة هذه الكوارث وآثارها المدمرة من جهة أخرى .

- إن موقف الحكومة العثمانية السلبي ، وعدم مساهمتها في التخفيف من مصائب هذا الشعب ، حتى في سنوات الكوارث ، يعطينا الدليل بأن السلطة الحاكمة كانت عالة على الشعب الجزائري ، كما هو الحال في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية ، مما يفسر المقولة التاريخية بأن الدولة العثمانية كانت أداة استهلاك وليست أداة إنتاج .

الأمراض^(١٦) . بالإضافة إلى تلك سنوات الجفاف التي عانت منها إيالة الجزائر العثمانية , كما مرت البلاد في سنوات فيضانات أثرت هي الأخرى سلباً على جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحتى العسكرية , فعلى سبيل المثال , في عام ١٥٩٢م ضربت العواصف السواحل البحرية , وتركت أثراً مدمرة في عدد كبير من السفن وخاصة في ميناء الجزائر , كما اكتسحت الفيضانات في شهر أذار عام ١٦٧٣م مساحات شاسعة من الأراضي في سهل المتيجة القريب من مدينة الجزائر , وكذلك فيضان عام ١٦٩٤م^(١٧) .

ج- المجاعات :

تعرضت إيالة الجزائر إلى العديد من المجاعات , انعكست أثارها السلبية على جميع نواحي الحياة , نذكر هنا بعضها على سبيل المثال , حسب تسلسلها التاريخي :

١- مجاعة عامي ١٥٧٩-١٥٨٠م :

حدثت هذه المجاعة في السنوات الأخيرة من عهد البيلرباي الذي تميزت فيه إيالة الجزائر بالقوة والعظمة , حيث خطب ودها ملوك وأمراء الدول الأوربية , عندما كان بحارتها يهددون سواحل هذه الدول , فالمجاعة التي ضربت البلاد في هذين العامين أدت إلى وفاة عدد كبير من السكان , بلغ ٥٦٥٦ شخصاً في مدينة الجزائر وحدها , وذلك في فترة قصيرة لا تتعدى الشهر من ١٧ كانون الثاني إلى ١٧ شباط عام ١٥٨٠م .

٢- مجاعة عام ١٧٥٢م :

استمرت هذه المجاعة على مدار أربع سنوات , ومات ضحيتها حوالي ١٧٠٠ شخصاً في مدينة الجزائر وحدها , وأعقب هذه المجاعة زلزال عام ١٧٥٥م ليزيد في حجم الكارثة , وجعل الحياة شبه معنومة بسبب الدمار الذي جلبه , وأثاره السلبية على النشاط الاقتصادي في البلاد .

ويمكن إجمال الظروف الصعبة التي كان يعاني منها الفلاح الجزائري في

النقاط التالية :

١- الظروف الطبيعية :

أ- الجراد :

كان زحف الجراد على الأراضي الزراعية يحدث عملياً كل أربع أو خمس سنوات، وقد ساعد على ذلك الظروف المناخية السائدة في إيالة الجزائر والمتمثلة في المناخ الصحراوي في الجنوب ، وتأثير ذلك على مناطق الهضاب العليا في الوسط، ومناطق التل الزراعية القريبة من البحر المتوسط في الشمال . ففي عام ١٧٢٢م تعرضت الأراضي الزراعية لزحف جراد منمر أتلّف جميع نباتات الأرض ، وفي عام ١٨١٥م و١٨١٧م تكرر المشهد نفسه ، ولكن أكثر خطورة مما حدث في عام ١٧٢٢م ، حيث ظهر الجراد فجأة في أواخر فصل الربيع وبداية فصل الصيف ، بكثافة كبيرة جداً ، بحيث غطت أسرابه جميع الحقول والبساتين الموجودة في سهل المتيجة ، ومنطقة الساحل وضواحي مدن : الجزائر، البليدة ، القليعة ، وقد دمرت هذه الآفة كل المحاصيل في المناطق التي ذكرناها (١٥) .

ب- الجفاف :

يرجع الجفاف إلى عدم انتظام الأمطار وانحباسها في بعض الأحيان ، مما ينعكس على الموسم الزراعي كله ، ويدفع الفلاح الجزائري إلى الاستغاثة لهطول المطر، ولكن في أغلب الأحيان دون جدوى .

في مثل هذه الظروف المناخية المتحكمة بتساقط الأمطار تصبح المحاصيل الزراعية تحت رحمة ماء السماء ، فعندما تسقط الأمطار يكون الموسم جيداً ويعم الخير على جميع البلاد ، لكن في حال عدم هطول الأمطار فإن المحاصيل الزراعية تقل وترتفع أسعارها وتحدث المجاعة وتكثر

٢- أراضي الموات :

وهي الأراضي التي تركت بدون استغلال ، أو غير صالحة للزراعة ، بالرغم من الإمكانية المتاحة لامتلاكها والانتفاع منها بشرط العمل على استصلاحها ، إلا أن الأهالي في الريف الجزائري لم يقدموا على ذلك ، وخاصة في أواخر العهد العثماني ، والذي تميز بانتشار مثل هذا النوع من الأراضي ، إثر تناقص السكان، وتحول عدد كبير من أفراد القبائل من العمل بالزراعة إلى ممارسة الرعي .

بعد هذا العرض لأشكال الملكيات الزراعية لإيالة الجزائر في العهد العثماني ، ننتقل إلى الحديث عن الظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري، وانعكاساتها على حياته الاجتماعية ، وحياته المجتمع الجزائري الذي يعيش فيه.

٢- الظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري :

كان الفلاح الجزائري في العهد العثماني في وضع يرثى له ، مثله في ذلك مثل الفلاحين في مختلف البلاد التي خضعت للسيطرة العثمانية ، حيث لم تقدم السلطة الحاكمة على اتخاذ أي إجراء يساعد على تطوير أدوات الإنتاج وأساليبه ، مما انعكس على مستوى الإنتاج من جهة ، وتردي حالة الفلاح الجزائري من جهة أخرى ، وانعكس على الوضع الاقتصادي العام للدولة . ومما زاد الوضع سوء تدهور الحالة الصحية في أواخر العهد العثماني ، بسبب الكوارث والأوبئة والمجاعات ؛ مما أدى بالنتيجة إلى تناقص اليد العاملة في الأرياف بدءاً من القرن الثامن عشر الميلادي ، فانعكس ذلك على الأسواق في المدن التي أصيبت بالركود الاقتصادي، يضاف إلى ذلك عدم اهتمام الحكام بما حدث ، والعمل على إيجاد الحلول المناسبة ، والتخفيف من نتائج هذه الكوارث على الشعب الجزائري.

الأراضي ببعض الضرائب الفصلية ، تعرف بالعوائد مثل ضيفة الداي أو الدنوش ويطلق عليها أهالي بايلك التيطري اسم غرامة الصيف وغرامة الشتاء ، حيث بلغت في هذا البايك في أواخر العهد العثماني ٢٤٨٠٠٠ ريال بوجو (١٠) . وكانت هناك قبائل تقيم على أراضي العرش الموجودة في بعض المناطق الجبلية وأطراف الصحراء، لكنها ظلت غير معنية بالالتزامات التي ذكرناها سابقاً (المعونة ، الزمة ، الغرامة) ، لذلك لجأ حكام الإيالة منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي إلى شن الحملات العسكرية على هذه القبائل ، وإلزامها عن طريق شيوخها بتقديم الإعانات والهدايا (١١) .

١- أراضي الوقف :

فالوقف تعريفاً هو عمل خير دائم يعود ريعه لصالح الجهة الموقوف عليها ، سواء كان شخصاً أم مؤسسة ، وذلك بشكل منتظم ، وقد استخدمت كلمة حبس بدلاً من كلمة وقف في جميع مناطق المغرب العربي (١٢) . وكان الوقف الإسلامي يقسم إلى قسمين هما :

١- الوقف الخيري : يصرف لصالح الجهة التي وقف عليها ، وتميز هذا الوقف بالجانب الإنساني ، وقد ساعد على إرساء البنية التحتية للمجتمع الإسلامي في عصوره المتعاقبة (١٣) .

٢- الوقف الأهلي : انتشرت الأوقاف وبشكل خاص الأهلية في الجزائر ، وذلك في أواخر العهد العثماني ، وعلى وجه التحديد في المناطق القريبة من المدن الكبرى . وبلغت الملكيات الزراعية الموقوفة في ضواحي مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي حوالي ١٦٠٠ ملكية زراعية ، موزعة ما بين بستان وحديقة ومزرعة ، وبلغت الأوقاف الإجمالية ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة في المناطق الخاضعة لنفوذ البايك (١٤) .

كابني عامر، أما فيما يتعلق ببنايلك للشرق (قسنطينة) فقد عرفت هذه الملكيات بالعزل، وتنتشر على مساحة واسعة حول مدينة قسنطينة، وقدرت ب ١٦٠ ألف هكتار منها : ١٤٨ ألف هكتار تستخدم لزراعة الحبوب بجميع أنواعها، ١١ ألف هكتار مخصصة لزراعة الخضار والفواكه (٥)، وهي مقسمة إلى ٨٠٠ جابدة (١)، يستغل منها ٦ هكتارات، ويترك هكتاران كأراضي لرعي الحيوانات.

ويتم استثمار ملكية البنايلك وفق النماذج والطرق التالية :

- ١- الاستثمار عن طريق حكام البنايلك مباشرة.
- ٢- تأجير هذه الملكيات من الأراضي وفق نظام الخماسة (مقابل خمس إنتاجها السنوي).
- ٣- تسليم هذه الملكيات أحياناً إلى عشائر بعض المخزن مقابل خدمات عسكرية، ولا تدفع هذه العشائر إلا ضريبة العشر أي ما يعادل صاعاً واحداً من القمح وآخر من الشعير عن كل جابدة (٧).

٣- الأراضي المشاع :

استثمر هذا النوع من الملكية العقارية بشكل جماعي، فمن حق سكان القبيلة أو الدوار التصرف بها. وسمي هذا النوع من الأراضي في القسم الشرقي من الإيالة 'أضي العرش'، أما في القسم الغربي فكان يسمى بالسبيقة، وكانت هذه الأراضي توزع على أفراد القبيلة، ولكل حسب مقدرته وإمكاناته، ويترك جزء من هذه الأرض للرعي، وفي حال إهمال أحد أبناء القبيلة لحصته تقوم جماعته بتسليم الأرض لمن يقوم بخدمتها، وذلك عن طريق شيخ القبيلة أو الدوار (٨). وكان حكام الإيالة يفرضون على هذا النوع من الأراضي ضرائب سنوية مثل : الغرامة واللزمة والمعونة، وكانت الغرامة تسدد إما عيناً على شكل مواشي ومواد غذائية أو نقداً. ويضاف إلى ذلك مطالبة الحكام عن هذه

من الملكية من قبل أصحابه دون أن يكون لهم التزام تجاه الدولة سوى ضريبة العشر والزكاة^(٢) . وكانت الملكية الزراعية الخاصة في ضواحي مدينة الجزائر تشابه من حيث الاتساع والأهمية الملكيات الخاصة في ضواحي بايلك قسنطينة ، وتشمل ١١٢٥٠ هكتاراً ؛ يزرع منها ٩٠٠٠ هكتار بالحبوب بجميع أنواعها ، و ٢٢٥٠ هكتار تزرع بالخضار والفواكه ، وتسمى هذه الملكيات بأرض العرش . وبالإضافة إلى هذه الملكيات الخاصة الواقعة في ضواحي المدن ، هناك ملكيات خاصة في الأقاليم الريفية ولاسيما الجبلية ، وكانت هذه المناطق مأهولة بالقبائل الرحل أو أنصاف الرحل ، التي كانت تستقر في القرى لبعض الوقت من أجل زراعة الأراضي أو لأجل قضاء فصل الشتاء^(٣) .

٢ - ملكية البايك :

وهي الأراضي التي تعود في الأصل للدولة ، ويحق للحكام التصرف فيها ، وأصبحت هذه الملكية تابعة للبايلك عن طريق المصادرة أو الشراء ، وفي حالات كثيرة ، كان السكان المقيمون عليها يرحلون عنها بسبب عجزهم عن تسديد الضرائب الحكومية المفروضة عليهم ، أو في حال عصيانهم لأوامر وشروط قادة ورجال البايك^(٤) . أن أغلب أراضي البايك بمنطقة دار السلطان وهران وقسنطينة ، وتسمى هذه الملكيات في دار السلطان بالأحواش ، وتتألف من ثلاث عشرة مزرعة كبيرة يعمل فيها الخماسة ، وهم فلاحون أجراء يتقاضون خمس إنتاج الأرض ، وتضم كل مزرعة عدداً من الأبقار يتراوح ما بين ٦٠-٨٠ بقرة ، ومزارع الأبقار هذه كانت تزود مدينة الجزائر بالحليب والجبن والزبدة .

أما في بايلك الغرب (وهران) فكانت الملكيات تقدر ب ١١٢٥٠ هكتاراً ، وتقع في السهول القريبة من المدينة ، حيث تقيم عشائر الزمالة والدوائر ، وذلك في المناطق التي تقيم فيها العائلات المعادية للأتراك أو المتحالفة مع الإسبان

٣- المرحلة الثالثة :

وتتمتد من النصف الثاني للقرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م، وتتميز بالتقهقر والجمود في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية ، ففي الوقت الذي اتبعت فيه أوروبا أسلوب الزراعة الاقتصادية المعتمدة على الربح ووفرة الإنتاج ، وذلك باعتماد طرق وأساليب جديدة في الزراعة الحديثة ، في الوقت نفسه الذي عملت فيه على تطوير الصناعة لاستقبال وتصنيع المواد الزراعية الأولية وتصديرها نحو مستعمراتها ، بالمقابل كانت الأقطار الخاضعة للسيطرة العثمانية عامة والجزائر خاصة تعاني من ركود اقتصادي شامل طال جميع نواحي الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة .

ولاستعراض هذه النشاطات الاقتصادية الموجودة في إيالة الجزائر العثمانية ، لابد من معالجة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ضعفها وجمودها ، وساعدت على سوء الأحوال الاقتصادية في أغلب مراحل العهد العثماني .

أولاً- الزراعة :

تأثرت الزراعة الجزائرية بعوامل عديدة منها : طبيعة الملكية وآلية استخدام الأراضي الزراعية ، التي انعكست على أحوال الفلاح الجزائري من جهة وعلى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لإيالة الجزائر من جهة أخرى ، ولابد لنا ، قبل الحديث عن الزراعة وظروفها وأهم المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها الجزائر في العهد العثماني ، أن نعطي فكرة عن الملكيات الزراعية التي عرفتھا الجزائر في ذلك العهد.

١- الملكيات الزراعية الجزائرية في العهد العثماني :

١- الملكية الخاصة :

امتلك الكثير من العائلات التركية ، والقولوغلية والبرجوازية الجزائرية الأراضي الزراعية الخاصة في ضواحي المدن الكبرى ^(١) . ويستثمر هذا النوع

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية للجزائر في العهد العثماني

لبيان الوضع الاقتصادي لإيالة الجزائر في الفترة العثمانية لابد من استعراض جميع أنواع النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة ، وأثرها على الحياة السياسية لهذا الجزء الغربي من الامبراطورية العثمانية . وقد مر الاقتصاد الزراعي الجزائري في العهد العثماني بثلاث مراحل هي :

١- المرحلة الأولى :

وتشمل القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر الميلاديين ، وقد شهدت تحسناً في الأوضاع الاقتصادية عامة والزراعية خاصة، ويعود الفضل في ذلك إلى قنوم المهاجرين الأتليسيين الذين طردوا من إسبانيا، حيث سكن هؤلاء على سواحل الجزائر المتوسطية، ولعبوا دوراً هاماً وأساسياً في تطور الاقتصاد وزيادة إنتاج الأراضي الزراعية التي عملوا على استصلاحها، حيث عدت أراضي ضواحي مدن : الجزائر، دلس ، شرشال ، القليعة، والبليلة غنية بإنتاجها الوفير من الحبوب والخضار والفواكه بجميع أنواعها.

٢- المرحلة الثانية :

وتمتد بين النصف الأول من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر، وهي فترة ركود اقتصادي شامل ، بحيث لم تسجل إيالة الجزائر خلالها أي تطور فيما يخص النشاط الزراعي ، والمهن الصناعية ، وذلك بسبب الأوبئة والطاعون وسنوات القحط التي تعرضت لها البلاد ، وانعكست على جميع نواحي الحياة في إيالة الجزائر .

piraterie, Paris 1975, p. 103.

81- Grammont, H. D., : Histoire d'Alger sous la domination
turque 1515-1830, Paris 1887, p. 51.

82- Le docteur Shaw : op. cit., p. 196.

٨٣- الجيلاني , عبد القادر : تاريخ الجزائر العام , الجزء الثالث,
بيروت ١٩٨٣م , ص ٤٨٥.

84- Boyer : op. cit., p. 235.

٨٥- الجيلاني : المرجع نفسه , ص ٤٨٩.

86- Shuval : op. cit., p. 138

٨٧- عامر : المرجع نفسه , ص ٩٨.

٨٨- قنان , جمال : قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث
والمعاصر. الجزائر ١٩٩٤م , ص ٣٣ .

٨٩- المرجع نفسه , ص ٣٧ .

٩٠- العقاد , صلاح : المغرب العربي. القاهرة ١٩٦٨م , ص : ٥٠.

٩١ - الجيلاني : المرجع نفسه , ص ٤٨٧.

- 63- Personnel : op. cit., p. 237.
- 64- Shuval : op. cit., p. 116.
- 65- De Tassy : op. cit., p. 143.
- 66- Venture de Paradis : op. cit., p. 188.
- 67- Delphin : op. cit., p. 183-184.
- 68- Venture de Paradis : op. cit., p. 189-190.
- 69- Devoulx : op. cit., p. 21-22.
- 70- Shuval : op. cit., p. 117.
- 71- Devoulx : op. cit., p. 33.
- 72- Shuval : op. cit., p. 118.
- 73- Devoulx : op. cit., p. 31-32 . voir aussi Venture de Paradis :
p. 166. et Boyer : p. 165.
- 74- Thomas Shaw : op. cit., p. 312. voir aussi Venture de
Paradis : p. 166.
- 75- Shuval : op. cit., p. 124.
- 76- Boyer : op. cit. p. 146.

۷۷- فارس : المرجع نفسه ، ص ۹۰ .

- 78 Marçais, G., : " Les villes de la coté algérienne et la
piraterie au moyen age ". A.I.E.O, 1955, p. 120.

۷۹- فارس : المرجع نفسه ، ص ۹۰ .

- 80- Fontenay, M., et Tenenti, A., : " course et piraterie
méditerranéen de la fin du au début du XIXe siècle", dans
commission international d'histoire maritime course et

43- Deny, J., : " Les registres de solde de Janissaires conservés
à la bibliothèque national d'Alger ", r.a 1920, p. 36

44- Shuval : op. cit., p.106.

45- Shuval : op. cit., p. 109.

46- Venture de Paradis : op. cit., p. 172.

47- Venture de Paradis : op. cit., p. 168.

48- Shuval : op. cit., p. 116.

49- J. Deny : op. cit., p. 42.

50- Pétis de la Croix : un mémoire sur Alger 1695, p. 17.

51- Shuval : op. cit., p. 111.

52- Devoulx, A., : Tachrifat, recueil de notes historiques sur
l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, p. 26.

53- Thomas Shaw : op. cit., p. 313.

54- Shuval : op. cit., p. 111.

55- De Tassy : op. cit., p. 138. voir aussi Grammont, p. 46.

56- Venture de Paradis : op. cit., p. 170-173. voir également
Peyssonnel, p. 237.

57- Shuval : op. cit., p. 111.

58- Pétis de la Croix : op. cit., p.14-15.

59- Shuval : op. cit., p. 113.

60- Venture de Paradis : op. cit., p. 178.

61- Deny : op. cit., p. 45.

62- Venture de Paradis : op. cit., p. 178.

وتوزيعهم في الكنتينين السابعة والثامنة .

29- Boyer : op. cit., p. 133-134.

٣٠- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٩٧.

31- *Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIIIe siècle*, Paris
1963, p. 165.

* - استعمل شياور الأسير والبياسير لدفع مرتبات الجندي , وكلا
العملتين كان مستخدم في إيالة الجزائر , ولاندري سبب استخدامه
لهما في نفس الوقت .

32- Le docteur Shaw : op. cit., p. 188.

33- *Venture de Paradis* : op. cit., p. 165.

34- Boyer : op. cit., p. 128.

35- Le docteur Shaw : op. cit., p. 189.

36- Boyer : op. cit., p. 128.

36- Boyer : op. cit., p. 129.

37- Thomas Shaw : op. cit., p. 313. voir également *Venture de
Paradis* : op. cit. p. 181.

38- Thomas Shaw : op. cit., p. 313.

٣٩- عامر , محمود : تاريخ المغرب الحديث (الجزائر - تونس) ,

منشورات جامعة دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥ م , ص ٩٥.

٤٠- محمود عامر : المرجع نفسه , ص ٩٦.

41- De Tassy : op. cit., p. 57. voir aussi Grammont : op. cit.,
p. 46.

٤٧- فارس : المرجع نفسه , ص ٨٤ .

- 12- Boyer, Pierre : " Les renégats et la marine de la régence d'Alger, R.O.M.M, 1985, 94.
- 13- Laugier de Tassy : Histoire de la royaume d'Alger, Paris 1992, p. 125-126.
- 14- Shaw. Thomas : Travel or observation relation to several parts of barbary and the Levant, Oxford 1738, p. 313.
- 15- Colombe : op. cit., p. 178-179.
- 16- Dan, Pierre : Histoire de la barbarie et de ses corsaires, Paris 1649, p. 107.
- 17- De Tassy : op. cit., p. 125-126.

١٨- فارس : المرجع نفسه , ص ٨٣.

19- Colombe : op. cit., p. 180.

20- Colombe : op. cit., p. 175.

٢١- فارس : المرجع نفسه , ص ٨٦.

22- Le docteur Shaw : op. cit., p. 182.

23- De Tassy : op. cit., p. 125.

24- Boyer : op. cit., p. 127.

25- Le docteur Shaw : op. cit., p. 182.

26- Le docteur Shaw : op. cit., p. 183.

٢٧- فارس : المرجع نفسه , ص ٨٥.

٢٨- سعيدي , ناصر الدين : الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) , الجزائر بدون تاريخ , ص ٩٢.

* - لا يوجد في الوثائق التي درستها أي معلومات عن عدد الجنود

هوامش الفصل الرابع

١- فارس , محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث, بيروت ١٩٦٩ م ,
ص ٨١.

2- Raymone , André : Les grands villes arabes à époque
ottomane, Paris 1985, p. 68.

3- Shuval, Tal : La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle,
population et cadre urbain, thèse de doctorat, Aix- en
Provence, France 1994, p. 93.

4- Peyssonnel , J.A., : Voyage dans la régence de Tunis et
d'Alger, Paris 1987, p. 77.

5-. Rozet , N., : Voyage dans la régence d'Alger, Paris 1833, p.
374.

6-. Delphin, G., : Histoire des Pachas d'Alger 1515-1745,
extrait d'une chronique indigène, traduit et annoté par J.A
1922, p. 205.

7- Peyssonnel : op. cit., p. 77.

8- Shuval : op. cit., p. 94-95.

9- Le docteur Shaw : Voyage dans la régence d'Alger, traduit
de l'anglais par J. Mac, sans date, p. 182.

10. Colombe, M., : " Contribution à l'étude du recrutement de
l'odjag d'Alger, R.A, t 87, 1934, p. 172.

11- Shuval: op. cit., p. 96.

النساء قمن ببيع الحلي من أجل شراء سفن واستخدامها في النشاط البحري (القرصنة) بهدف الربح .

٦- إن تحول مفهوم للجهاد إلى (قرصنة) نبه الدول الأوروبية المتضررة من تزايد الهجمات الجزائرية على سواحلها ، الأمر الذي دفعها إلى الاتحاد فيما بينها لتشكيل قوة واحدة ، مما مكنها من مهاجمة السواحل الجزائرية في كل فرصة سانحة.

٧- استغلت الدول الأوروبية ضعف البحرية الجزائرية ، فعقدت فيما بينها معاهدة اكس لاشابل في عام ١٨١٨م بهدف للقضاء على النشاط البحري الجزائري (القرصنة) .

٨- سقطت الجزائر ضحية للصراع بين طائفتي الرياس والانكشارية الغرباء عن البلاد والمهتمين فقط بمصالحهم الخاصة . وكذلك ضحية التآمر الفرنسي المتعاون مع اليهود ، لتبدأ هذه الإيالة تاريخاً ونضالاً جديدين تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية .

وذلك للتعويض عن مستعمراتها التي خسرتها ، حيث أعارت على السواحل الجزائرية عام ١٨٣٠ م وقضت على البحرية والانكشارية ، لا بل على إيالة الجزائر . لتبدأ هذه الأخيرة حقبة جديدة في صراعها مع الاستعمار .

٥- نتائج النشاط البحري الجزائري :

يمكننا أن نلخص هذه النتائج في النقاط التالية :

- ١- بثت الهجمات البحرية الجزائرية الرعب والخوف على السواحل الأوروبية المتوسطية ، مما دفع حكام هذه الدول إلى الإسراع في توقيع المعاهدات مع الجزائر ، والاعتراف بسيادتها البحرية.
- ٢- استفادت الجزائر من خبرات الأسرى الأوروبيين في التجديف ، واستخدمتهم كأدلاء ساعدهم في إظهار مواطن الضعف على السواحل الأوروبية التي أسروا منها ، الأمر الذي سهل على البحرية الجزائرية عملية الهجوم والانتصار السريع على العدو.
- ٣- ساعدت الغنائم الهائلة التي حصلت عليها إيالة الجزائر من هذه الهجمات في دعم أسطولها الحربي ، وفي شراء الضباط الكبار العاملين في السلك البحري .
- ٤- لم تطل العائدات الاقتصادية للعمليات البحرية الجزائرية الطبقات الدنيا من السلم الاجتماعي ، وإنما تم تقسيمها بين الطبقات العليا الحاكمة ، وبشكل خاص الرئيس ، الأمر الذي عمق الصراع بينها وبين الانكشارية من جهة وبين الرعية من جهة أخرى .
- ٥- تحولت البحرية الجزائرية عن هدفها السامي في الجهاد إلى عملية (قرصنة) ضد السواحل الأوروبية وسفنها ، بقصد الفنى والشهرة ، والليل على ذلك مساهمة كل من لديه المقدرة على هذا العمل ، حتى

اليونان عام ١٨٢٧ م .

فعلى الرغم من ضعف البحرية الجزائرية في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وخاصة في ثلثة الأول، إلا أنها كانت تمتلك حوالي ١٦ قطعة بحرية مزودة ب ٣٩٨ مدفعاً، أثناء توتر علاقاتها مع فرنسا (٩٦) .

إذا بقيت البحرية الجزائرية مرهوبة الجانب خلال ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية على الجزائر، ورغم تعرضها للهجوم من قبل الدول الأوربية، والخسائر التي كانت تلحق فيها، كالت قاذرة وبسرعة مذهلة على إعادة بناء نفسها، وتهاجم السواحل الأوربية بقوة أكثر مما كانت عليه من قبل، وظللت البحرية الجزائرية القوة المسيطرة الأول على البحر المتوسط حتى عام ١٨١٥م، وذلك بفضل الرئيس حميسو السدي أعاد النشاط والقوة للبحرية الجزائرية، حيث وصل عدد قواتها في عام ١٨١٥م إلى ٣٠ ألف رجل (٩٧) .

يرجع نشاط البحرية الجزائرية إلى تطور صناعة السفن، التي كان لها دور قسري ميناء الجزائر، حيث توجد الأخشاب والمعادن الضرورية لصناعة السفن، ففي باب الواد كان يوجد مصنع لصناعة البوارج الضخمة، وكان هناك مصنع آخر في باب عزون مخصص لصناعة السفن والزوارق الصغيرة (٩٨) .

يعود ضعف البحرية الجزائرية إلى الظروف الدولية والحروب النابليونية، فخرج فرنسا خاسرة عام ١٨١٤م، وفرض معاهدة فيينا عليها عام ١٨١٥م، وانعقاد مؤتمر دولي بهدف القضاء على البحرية الجزائرية في اكس لاشابيل عام ١٨١٨م، عليها عوامل ساهمت في ضعف البحرية والإيالة الجزائرية، وقد تزامن هذا مع ضعف السلطنة العثمانية بصورة عامة، واستغلت فرنسا الظروف الدولية والحجج التي ابتدعتها مثل: قضية الديون الجزائرية عليها وحادثة كشاشة الذباب،

٣- النصف الثاني يقسم مئة سهم ويوزع وفق مايلي : ٤٠ سهماً للقبطان (قائد السفينة) ، ٣٠ سهماً للتأعسا ، ١٠ أسهم توزع على الضباط ، والباقي على البحارة والبولداشية (٨٧) .

ولم تقتصر البحرية الجزائرية على الأتراك والجزائريين فحسب ، بل كان يدخل فيها خليط من أقوام وجنسيات مختلفة شريطة اعتناقهم الإسلام ، فنجد في تاريخ هذه البحرية عدداً من رياس السفن كانوا من الأسرى الأوربيين دخلوا في الإسلام ، ولعبوا دوراً هاماً في التاريخ الجزائري عامة ، وتاريخ النشاط البحري للإيالة ضد السواحل الأوروبية بشكل خاص ، منهم العلي علي الذي أصبح قائداً للأسطول العثماني في عاصمة السلطنة ، وذلك نظراً لشجاعته وخبرته في الأمور الحربية البحرية.

٤- بعض إنجازات البحرية الجزائرية :

- ١- استطاع الأسطول الجزائري أن يهزم حملة شارلكان : الذي كان يمتلك أكبر أسطول حربي في تلك الفترة ، عام ١٥٤١م .
- ٢- شارك الأسطول الجزائري إلى جانب الدولة العثمانية في معركة ليبانتو في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في عام ١٥٧١م ، وذلك بعمارة بحرية قوامها ستون سفينة .
- ٣- شارك الأسطول الجزائري بدعمه قسوات برية في القضاء على الوجود الإسباني في تونس عام ١٥٧٣م (٨٨) .
- ٤- شارك الأسطول الجزائري إلى جانب الأسطول العثماني في فرض الحصار مالمطة عام ١٥٩٥م ، بعشرين سفينة حربية .
- ٥- شارك الأسطول الجزائري إلى جانب الدولة العثمانية في حرب

٣٨ إلى ٥٠ مدفعاً (٨٤) . وبلغ عدد الراس في عام ١٦٢٠ ثلاثمائة ريس ، ولديهم ثلاثة أنواع من المراكب هي :

١- الشبك : وهو عبارة عن مركب مؤلف من ثلاثة صوار وثلاثين مجدفاً وحمولته مئتا طن ، وعدد مدافعه من ٤ إلى ٢٤ مدفعاً ، وبحارته ما بين ٣٠ إلى ٢٠٠ نوتي .

٢- الغليظة : وهي عبارة عن مركب يحمل من ٢٠ إلى ٣٠ نوتياً ، ويصل عدد مدافعها إلى العشرين .

٣- التفتسون : هو مركب مخالف لجميع المراكب في شكله وسرعته . بالإضافة إلى هذه الأنواع الثلاثة هناك عدد كبير من الزوارق والقوارب التي تلحق بالأسطول الجزائري .

٣- طاقم السفينة وتوزيع الغنائم :

كان طاقم السفينة العثمانية في الجزائر يتألف من العناصر التالية :
باش ريس ، رئيس أعلى ، صوطو ريس ، نائب صوطو ريس ، رئيس العسة ، للورديان ، باش طبجي ، ضابط المدفعية ، باش دومانجي ، كاتب خزنجي المركب ، المسؤول عن خزانة البارود ، رئيس فرقة الانكشارية ، طبيب جراح والأغا (٨٥) .

وكان الورديان يأتي في أسفل السلم الاجتماعي لطاقم السفينة (٨٦) ، فهو المسؤول عن حراستها ، ويخبر قائدها عندما تتعرض للخطر أثناء قيامها بمهمتها .

وكان اقتسام غنائم الهجمات البحرية الجزائرية ضد السواحل والسفن الأوروبية يتم على النحو التالي :

١- الخمس لبيت المال وفق الشريعة الإسلامية .

٢- نصف الغنائم لصاحب السفينة المنتصرة .

لعدم قدرتهم على الفرار أمام السفن الجزائرية الخفيفة .." (٨١) . وإذا كان القرن السابع عشر الميلادي هو بحق العصر الذهبي للنشاط البحري الجزائري (القرصنة) ، فإن القرن الثامن عشر الميلادي يعتبر عصر انحطاطها وضعفها.

٢- عدد السفن وأنواعها :

هناك اختلاف بين الرحالة والمؤرخين فيما يتعلق بعدد السفن العربية التي كانت تملكها إيالة الجزائر العثمانية ، فالدكتور شاو (Shaw) يقول " بلغ عدد السفن الجزائرية عشرين عمارة (سفينة) بحرية ، ووصل عام ١٧٢٤م إلى أربع وعشرين عمارة ، تراوح تسليح اثنتين منهما بين عشرين واثنتين وخمسون مدفعاً ، وست فرقاطات مزودة ما بين ٣٨ إلى ٤٤ مدفعاً (٨٢) . وقدم عبد القادر الجيلالي رقماً أكبر بكثير من الذي قدمه Shaw إذ يقول " امتلك الأسطول الجزائري في ذروة مجده ، في القرن السابع عشر الميلادي ، ٢١٢ سفينة ، وربما وصلت إلى ٦٠٠ سفينة ، في حين بلغ عدد أفراد الجيش البحري في بعض الأحيان ٣٠ ألفاً ، وكان يتراوح عدد البحارة والنوامين على كل مركب ما بين الثلاثين والمئة رجل ، وبلغ عدد البحارة (القرصنة) الفعليين ستة آلاف ، وهم خليط من عرب وتوكر وبربر ومن أسلم من الأوروبيين... " (٨٣) .

نرى أن الرقم الذي قدمه الجيلالي مبالغ فيه ، لأن هناك رحالة آخرين قدموا أرقام قريبة من العدد الذي قدمه الدكتور شاو (Shaw) في الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي ، مقارنة مع العدد الذي أشار إليه الجيلاني ، فالرحالة الفرنسي بواييه (Boyer) قال " ... بلغ عدد سفن القوة البحرية الجزائرية في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، وبالتحديد عام ١٨١٢م خمس فرقاطات تحمل ما بين

وبعد عام ١٥١٨م اهتمت الجزائر بالبحر ، ولعبت دوراً هاماً في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وتركزت جهودها ضد السواحل الأوربية بصورة عامة ، وإسبانية وسواحلها وسفنها بصورة خاصة . وبلغت النشاط البحري الجزائري (القراصنة) ذروته في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي الذي اعتبر العصر الذهبي (٨٠) ، ولم تستطع الوسائل التي استخدمتها الدول الأوربية ، وبخاصة إسبانية ، من صد هجمات البصارة الجزائريين ، إن هذا يعطينا دليلاً واضحاً عن تطور السفن الجزائرية وسرعة حركتها والمهارة التي اتصف بها بحارتها . وقد أدت الهجمات المتكررة للبحرية الجزائرية ضد السواحل والسفن الأوربية إلى النتائج التالية :

١- حقق البحارة الجزائريون غنى فاحشاً ؛ بالإضافة إلى العتاد الذي غنموه ، ولعدد الكبير من الأسرى السذجين تم أسرهم من الشواطئ الأوربية.

٢- تخلى سكان المدن الساحلية الأوربية عن بيوتهم وهاجروا إلى المناطق الداخلية في دولهم ، الأمر الذي سبب لها ظروفاً اقتصادية وكارثة ديمغرافية ، وأدى بالتالي إلى إفقار هذه السواحل .

٣- دفعت هذه الهجمات البحرية الجزائرية حكام الدول الأوربية المتوسطة إلى الإسراع بتوقيع معاهدات مع السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر .

يصف هايدو نشاط البحارة الجزائريين (القراصنة) بقوله " كان القراصنة يبحرون في الشتاء والربيع ، ويجوبون في البحر شرقاً وغرباً ، ساخرين من سفننا ، في حين كان قراصنتنا منهمكين في اللهو ، وكان القراصنة الجزائريين يهاجمون السفن الثقيلة وينهبون ما فيها من عتاد ،

ثانيا - طائفة الرياس (الجيش البحري)

١ - البحرية الجزائرية ونشأتها :

أدخل رجال هذه الطائفة الجزائر إلى تبعية الدولة العثمانية ، ولعبوا دوراً هاماً في إلحاق تونس وطرابلس بالسلطنة . ويعود النشاط البحري الجزائري إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي تعرض لها المغرب العربي عامة ، والجزائر خاصة ، وإلى تدفق المهاجرين الأندلسيين عليه ^(٧٧) . فالنشاط البحري الجزائري (القرصنة) ومهاجمة السواحل الأوربية تعود إلى عام ١٣٦٠م ، وذلك حين بدأت السفن الحربية في بجاية ونلس تهاجم الجزر والسفن الأوربية في عرض البحر ، وتعود محملة بالأسرى والغنائم ^(٧٨) . تزامن إخراج العرب المسلمين من إسبانية عام ١٤٩٢م ، والحملات العسكرية الإسبانية ضد المغرب العربي عامة والجزائر بوجه خاص ، مع وصول البحارة العثمانيين إلى سواحل المغرب العربي بزعامة عروج وخير الدين بربروس ، فبعد احتلال الإسبان لعدد من المدن الساحلية الجزائرية ، طلب الأهالي نجدة الأخوين عروج وخير الدين المقيمين في تونس ، وهنا تحول الصراع من صراع محلي إلى صراع دولي بين الدولة العثمانية وإسبانية ، ولاسيما بعد إعلان خير الدين تبعيته للسلطنة العثمانية عام ١٥١٨م . وبما أن الدولة العثمانية دولة برية وليس لها خبرة في القضايا البحرية ، لذلك كان على الجزائر أن تعتمد على نفسها في تصنيع السفن . ويبعد ذلك جلياً من خلال الورشات الصناعية التي أقامتها في المدن الساحلية ، ولتأخذها ميناءً آمناً لحماية السفن عندما استطاع خير الدين تدمير البنيون (الصخرة) التي أقامها الإسبان في مواجهة مدينة الجزائر ، وذلك عام ١٥٢٩م . ومنذ ذلك التاريخ بدأ ما يسمى أوجاق الجزائر ^(٧٩) .

عساكرها ، فماذا يستطيع أن يفعل السكان المحليون تجاه ذلك ؟ إن هذا وحده يكفي لوصف حالة الخضوع من قبل السكان ، وعدم قدرتهم على فعل شيء تجاه السيطرة العسكرية على جميع نواحي الحياة في الإيالة.

٧- نستطيع أن نعطي دليلاً آخر على فوضى الجيش وخطره ، يتمثل ذلك بقيام الداي على خوجة بالتخلص من الفرق غير الانضباطية من القوة العسكرية ، حيث غادر قصر الجنينة واستقر بالقصبة ، وعمل على تجنيد عدد كبير من أفراد القبائل للوقوف في وجه فرق الانكشارية .

٨- يعطينا قيام السلطان العثماني محمود الثاني بتصفية الانكشارية دليلاً آخر على فوضى الجيش العثماني في جميع أنحاء الامبراطورية عامة وإيالة الجزائر بشكل خاص.

٩- إن الارستقراطية الإدارية العسكرية التي أقامها العثمانيون في جميع أنحاء السلطنة ، تعطينا دليلاً على العنصرية التركية تجاه رعاياها من جهة ، وعلى بث الفتنة بينهم من جهة أخرى ، عن طريق تقريب فئة على حساب فئة أخرى ، وطائفة على حساب طائفة ، وإعطائها امتيازات أرضية وإعفائها من الضرائب ، فكثير من العساكر كانوا يملكون أراضي واسعة في ضواحي المدن الكبيرة ، مثل حميدان بن عثمان خوجة .

١٠- انعكس الصراع بين الانكشارية (الجيش البري) وبين طائفة الرياس (الجيش البحري) على الأحوال الداخلية الإيالة ، وتركها فريسة سهلة للوقوع بيد الاستعمار الفرنسي في عام ١٨٣٠ م .

الغذائية والحاجيات الضرورية بأسعار مخفضة بالنسبة إلى باقي فئات المجتمع الجزائري وأحياناً بصورة مجانية، وأشاعوا الفساد والفوضى في تعاملهم مع الأهالي من جهة ثانية، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى التمرد وشق عصا للطاعة ضد السلطة العثمانية.

٢- شكل الأوجاق ارسنقراطية عسكرية وإدارية معفية من الضرائب والالتزامات الأخرى التي كانت مفروضة على السكان المحليين.

٣- لم يقتصر دور القوة العسكرية، في كل أنحاء السلطنة عامة وفي الجزائر خاصة، في المحافظة على الأمن ورد كيد العدوان الخارجي، بل أخذت تتدخل بصورة مكشوفة في سياسة وإدارة البلاد، بل في حياة السكان الخاصة.

٤- إن حرمان أبناء الأتراك من أمهات جزائريات (قولوغلي) من الوصول إلى المناصب الإدارية والعسكرية العالية، يشكل دليلاً واضحاً على العنصرية التي تتبعها هذه السلطة حتى تجاه أبنائها.

٥- يؤكد سماح السلطة لعناصر الجيش بممارسة المهن المختلفة التي يعرفونها، على انحلال هذا الجيش منذ البداية، وإن دخول العناصر التركية إلى سلك الجندية ومجيئها بالأساس إلى الجزائر كانا بدافع الغنى والمجد، وليس بهدف الدفاع عن الجزائر ضد الغزو الأجنبي.

٦- إن الفوضى المرتكبة من قبل عناصر الجيش للبري خاصة، تتأكد في تنبه خير الدين بربروس منذ البداية إلى خطر هذه العناصر على الوجود العثماني من ناحية، ولأن ذلك على الحياة الداخلية للسكان المحليين من ناحية أخرى، لذلك قام بتأسيس قوة من الحرس وجيشاً يتألف من ثمانية آلاف جندي، ووزع قياداتها على رفاقه. فإذا كانت السلطة العثمانية في الجزائر تخاف على نفسها من فوضى وتمرد

٢- مهمة الجيش في الحاميات

تتركز هذه المهمة على تأمين الأمن على الحدود ، وداخل البلاد . كان الجيش يشغل عدداً من الحاميات في المدن المختلفة والقلاع الرئيسية في البلاد (٧٢) . وينحصر دور هذه الحاميات بالدرجة الأولى في حماية المدن والمناطق المحيطة بها والواقعة تحت سلطة الإدارة العثمانية ، فالخدمة داخل الحاميات إجبارية ، ولايستثنى منها أي شخص مهما كانت صفته الاعتبارية . وحددت الخدمة العسكرية داخل الحاميات والمواقع بسنة واحدة (٧٣) . يعد تغيير المواقع العسكرية للمدن الساحلية جزءاً من العمل البحري ، وذلك وفقاً للاستراتيجية البحرية الجزائرية . وبلغ عدد الحاميات العثمانية الجزائرية ، في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، حوالي ٢٠ حامية ، يخدم فيها حوالي ١٠٠٠ جندي ، واستمر هذا العدد تقريباً حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد تعرض عدد كبير من الانكشافية إلى الموت في الحاميات ، فحسب إحصائيات Shuval توفي حوالي ١١ من عناصر الحاميات ، وذلك بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١ م ، و٢٠٠٠ عنصراً بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣ م (٧٥) . فالميزة الوحيدة للذين يخدمون في الحاميات والمواقع العسكرية هي أنهم يحصلون على الفلّى بسرعة مقارنة مع زملائهم الذين يخدمون في مدينة الجزائر (٧٦) .

ومن دراسة الجيش البري العثماني في إيالة الجزائر ، وحسب مراتبه المختلفة وعمليات تجديده ، والمهام الموكلة إليه للحفاظ على الأمن وقمع الثورات ، يمكن وضع النتائج التالية :

١- إن سلوك الأوجاق السيء وما رافقه من عمليات تعد على الرعية جعل السكان ينفرون منهم ، فمن جهة ، كانوا يحصلون على المواد

انتهاء فترة تدريبهم لامتحان . وذلك قبل التحاقهم بمكانهم في الجيش .
وكل ترقية لهؤلاء تتوقف على الامتحان الذي يمرون به (٦٩) . وبحسب
إحصائيات تال شوفال (T. Shuval) بلغ عدد حاملي هذه المرتبة
بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م أربعة عشر كاتباً ، في حين وصل هذا
العدد إلى ٤٣ كاتباً بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م (٧٠) .

٥- المهام الموكلة إلى الجيش :

إن مهمة الجيش عامة في جميع العصور وبالنسبة لجميع الدول .
هي الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن فيها . ولكن الجيش العثماني
في الجزائر كان له مهمات أخرى ؛ مثل جمع الضرائب وإقامة
الحاميات في المدن . وكانت نتائج هذه المهام سلبية على المدى البعيد ،
فقد أثارت سخط العامة من الشعب جزاء تصرفات عناصر السلطة
الحاكمة .. نوجز المهام التي كانت موكلة للجيش في النقاط التالية :

١- المحلات :

كانت المهمة الأولى للجيش جباية الضرائب ، ففي كل سنة كانت
تطلق محلات مكونة من طوابير عسكرية مهمتها جمع الضرائب من
بيليكيات الإيالة الجزائرية (٧١) . يبدأ موعد خروج المحلات في شهر
نيسان من كل عام ، وتستمر لمدة أربعة شهور بالنسبة إلى الأقسام
الغربية والجنوبية من الإيالة ، وستة شهور بالنسبة للقسم الشرقي . وكان
الدور الذي تلعبه المحلات هاماً جداً ؛ ولكنه تعرض للتغير في أواخر
القرن الثامن عشر الميلادي (٧٢) . لم تقتصر مهمة المعسكر المتنقل
على جمع الضرائب ، بل معاقبة القبائل المتمردة ، وإعلان الحرب ضد
مناطق الجوار ، وخاصة المغرب وتونس .

يمارسون في حياتهم العملية مهنة الطباعة عندما تم انتخابهم لمنصب
الداي، كما هو حال حاجي مصطفى الذي تم انتخابه عام ١٧٠٠م^(١٣).

بلغ عدد أفراد حاملي هذه الرتبة بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م
نحو ٩ أفراد، في حين وصل هذا العدد إلى ٩١ بين عامي ١٧٨٦ -
١٨٠٣م^(١٤).

كان أصحاب هذا اللقب من ميسوري الحال، وسمحت لهم ثروتهم
بالعيش الكريم برفاهية، وذلك مقارنة مع الفئات الأخرى لعناصر
الجيش العثماني العامل في إيالة الجزائر.

ح - الخوجة :

تعني كلمة خوجه هنا كاتب، وقد شكل أصحاب هذا اللقب هيئة
مميزة في تركيبة الأوجاق في إيالة الجزائر، وقد أحصى لوجيه دو تاسي
(Laugier de Tassy) عدد هؤلاء الكتاب ب ٨٠ كاتباً، وانخفض
عدد حاملي هذا اللقب بشكل ملحوظ نظراً لظروف الدولة العثمانية
وليالتها الجزائرية^(١٥).

كان أصحاب هذا اللقب يختارون حصراً من قبل الأتراك القادمين
من الشرق، بحيث لم يقبل أحد غيرهم وخاصة القولوغلوية أو الأسرى
الأوروبيين الداخلين حديثاً في الإسلام^(١٦)، وهناك من يقول : إن خيرة
الكتاب كان يتم اختيارهم من طبقة القولوغلوية المتعلمين^(١٧)، ونجد
عدداً من هؤلاء الكتاب في تشكيلات الجيش البحري، ويجب على
البولدش الذين أصبحوا كتاباً أن يمضوا جزءاً من تدريبهم في الوحدات
العسكرية المقاتلة، وخلال المعارك فضل عدد كبير منهم أن يبقى مقاتلاً
وبشكل خاص من يخدم بالبحرية^(١٨)، ويخضع هؤلاء الخواجات بعد

الشخص الذي يتقلده ، فقد وجد الأغوات مشكلات كثيرة في فتنرة حكمهم وخاصة في صراعهم مع أفراد طائفة الرياس ، التي كانت تنافسهم للسيطرة على الحكم في مدينة الجزائر .

كان الأغا ينير الحكم خلال فترة شهرين فقط ، ويتقاضى مبلغاً قدره ٢٠٠٠ باتاك ، والأغا القديم يحمل لقب معزول آغا كما ذكرنا سابقاً . وبلغ عدد الأغوات بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م نحو ١٤ آغا من المجموع العام للجيش ، في حين ارتفع هذا العدد إلى ٢٥ آغا بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م^(٥٩) .

ز - الأهجي :

بالإضافة إلى المراتب الست التي ذكرناها ، تأتي مرتبة الأهجي التي تحتل مكانة هامة في التسلسل العسكري لإيالة الجزائر . وتبدو هذه المرتبة للوهلة الأولى خارج نطاق الجيش ، إلا أنها ذات طابع مواز للقوات المسلحة بحكم عملها ، واستفادتها من الظروف والشروط الخاصة بهذه العناصر المسلحة . فكلمة أهجي في اللغة العربية تعني الطباخ ، ويجب أن يكون جميع عناصر هذه الفئة من الأتراك أو القبولغلية حصراً^(٦٠) . فأصحاب هذه المرتبة كانوا مرتبطين بالجيش العثماني الجزائري ، ويخدمون في المخيمات العسكرية والحاميات كما هو حال اليولداش ، ويتمتعون بمكانة خاصة لدى الأوساط الحاكمة العسكرية والإدارية^(٦١) . يبدأ الأهجي خدمته في الخيمة بمرتبة آس شي ، ويصل بعد ذلك إلى مرتبة آس شي باشي بالمخيم أو الحامية ، ويصلون بعد ذلك إلى مرتبة باس آشي باشي^(٦٢) ، وقد وصل عدد من أفراد هذه المرتبة إلى حكم إيالة الجزائر بمرتبة داي ، حيث كانوا

بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م فإن هناك ٢٨ كان عسراً يحملون
لقب بلوكباشي مقابل ٦٤٠ عسراً بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م ،
ويشكلون بذلك حوالي ٨% من مجموع مراتب الجيش العثماني في
الجزائر في تلك الفترة (٥٤) .

هـ - يايا باشي :

يوجد اختلاف بين الرحالة والذين درسوا دفاتر الانكشارية في
الجزائر حول تسمية هذه المرتبة ، إذ لم يجد هؤلاء هذه التسمية
بالتحديد ، وسمى لوجيسه دو تاسي (Laugier de Tassy) أصحاب هذه
المرتبة بأغا باشي ، أي بمعنى قائد لدى غرامون (Grammont) (٥٥) ،
في حين سماها فسانتور دو سارادي (Venture de Paradis) وبيسونيل
(Peyssonnel) مرتبة يايا باشي ، وكان صاحب هذه المرتبة مسؤولاً
عن قيادة محلة .. ويسمى بالأغا ، والأقدم من أصحاب هذه الرتبة
يصبحون كاخية (٥٦) . وحسب إحصائيات شوفال (Shuval) يوجد ٣
عناصر من أفراد الجيش يحملون هذا اللقب بين عامي ١٦٩٩ -
١٧٠١م ، وأربعة بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م (٥٧) ، مما يؤكد أهمية
حامل هذه الرتبة ودوره الفاعل في قيادة لواء عسكري حسب التصنيفات
الحديثة للجيش .

و - الأغا :

يأتي الأغا في قمة التسلسل العسكري العثماني في الجزائر ،
فعامل هذا اللقب يوصف بأنه قائد الجيش وحامي العدالة (٥٨) . وقد
وصل الأغوات إلى رأس السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر ، بين
عامي ١٦٥٩ - ١٦٧١م ، لم يكن هذا المنصب شرفياً من أجل مكافأة

ج- الأوضى باشي :

كان صاحب هذه المرتبة مسؤولاً عن أشرطة عسكرية (غرفة) ، وتعادل في التسميات الحديثة كلمة (شيف أو رئيس) ^(٥٩) ، كان الأوضى باشي مسؤولاً عن قيادة وحدة عسكرية مؤلفة من ٢٠ جندياً ، بلغ عدد حاملي هذه المرتبة ٨٢٨ شخصاً في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وفق تقديرات بيتي دو لا كروا (Pétis de la Croix) . لكن هذه الإحصائيات لأفراد هذه المرتبة كانت متداخلة مع أصحاب مرتبة البلوكباشي ^(٥٠) .

في الحقيقة ، إن هناك اختلافاً بين الرحالة حول عدد أفراد هذه المرتبة العسكرية فدراسة شوفال (Shuval) تبين أن عدد حاملي هذه المرتبة بلغ ١٢ عنصراً ، وذلك في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادين ، في حين ارتفع هذا العدد إلى ٣٠ عنصراً ، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادين ، فالنسبة بين وكلاء الخرج والأوضى باشي متقاربة ^(٥١) .

د- البلوكباشي :

إن مرتبة البلوكباشي تعادل قائد سرية ، وكان أصحاب هذه المرتبة - بحسب التشريعات العثمانية - يشكلون هيئة منفصلة عن الأوجاق ، وكانوا يشكلون قوادة للنبات أو الطوابير مع حمل لقب آغا ، وعندما كانت تنتهي مهمتهم يعودون إلى مرتبة البلوكباشي ^(٥٢) . وأحصى توماس شاو (T.Shaw) عدد حاملي هذا اللقب ب ٨٠٠ عنصر أي ضعف مرتبة الأوضى باشي ^(٥٣) . ولكن حسب إحصائيات شوفال (Shuval) فإن عدد أفراد هذه الفئة :

١- ضعف الجيش العثماني في الجزائر ، اما بسبب الحروب التي خاضتها الإيالة مع القوى الأوروبية ، أو بسبب الصراعات الداخلية بين فئات الجيش ، أو التمردات والثورات المحلية الشعبية رداً على الإجراءات والأوامر التي كانت تتخذها الحكومة العثمانية ، وخاصة السياسة الضرائبية الجائرة بحق الرعية.

٢- طلب إيالة الجزائر من استانبول تزويدها بالعناصر العسكرية ، حيث كانت هذه العناصر لاتعرف شيئاً في أمور القتال والحرب ، لذلك كان عليها أن تقضي فترة في التدريب على السلاح وفنون القتال الفردي.

٣- مزاولة الضباط القدامى لمهلهم في أيام السلم ، وتوقيع المعاهدات مع الدول المعادية ، مما يؤدي إلى تناقص عدد أفراد القوى العسكرية.

ب- وكيل الخرج :

وهي المرتبة الثانية في السلم العسكري. وذلك حسب ما ورد في ملاحظات الرحالة، وتعادل متعهد التموين أو منظم الأرزاق التي تعطى للعساكر. ويستم اختيار وكيل الخرج من بين أقدم عناصر الخيمة العسكرية^(٤٦) . وكان صاحب هذه المرتبة مكلفاً بشراء أدوات المطبخ على نفقته الخاصة، ثم يعرض له فيما بعد من خزينة الجيش، وكان مكلف بالمهمتين التاليتين: الأولى عسكرية أي قيادة الخيمة، والثانية إدارية أي شراء احتياجات عناصر خيمته وتزويدها بالمؤن اللازمة^(٤٧). ووفق إحصائيات شوفال (Shuval) في دفتائر الجند نجد ٣% من العسكر هم من الذين يحملون هذه المرتبة بين عامي ١٦٩٩م و١٧٠١م. وارتفعت هذه النسبة لتصل إلى ٥% بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م، وكان هؤلاء يقبضون مرتباً أعلى بمرتبتين من اليولداش^(٤٨) .

مرتّباً مهماً ، ويتمتع باحترام العام ، إذا كانت الرتبة العسكرية تعطى حسب الأقدمية والجدارة، وعلى هذا المنوال كانت الطريقة المعتادة للتدرج في المراتب العسكرية للأوجاق^(١١) ، لكنها لم تكن النموذج الأمثل والوحيد، لأنه حسب دراسات المختصين وجدت بعض حالات شراء المناصب، مثل شراء جندي شاب لمنصب جندي أقدم منه^(١٢)، فإذا كانت عملية الغش موجودة في الرتب الدنيا للتشكيلات العسكرية، فكيف هو الحال بالنسبة للمراتب العليا الأكثر أهمية وشرفاً ورفعة؟ كان أغلب عناصر الجنود في الجزائر يمضون خدمتهم العسكرية في الجزائر، وبشكل خاص عناصر الجيش البري^(١٣)، ولا يعرف العمر الذي يبدأ فيه الجندي خدمته العسكرية^(١٤)، ولا المدة التي يقضيها تحت الراية العثمانية.

بعد هذه المقدمة يمكننا أن نستعرض وفيما يأتي عرض للمراتب العسكرية التي يمر بها الجندي التركي:

أ- اليولداش :

يسمى العسكري البسيط (الغري) يولداش ، وتعني في اللغة العثمانية رفيق ، وبشكل هؤلاء الغالبية العظمى من أفراد الجيش العثماني (الأوجاق) في إيالة الجزائر ، فعلى سبيل المثال ، أجرى تال شوفال (Tal Shuval) عملية إحصائية لأفراد هذه المرتبة العسكرية على ٣٣٠ عسكرياً من الجيش فوجد أن ٢٦٤ منهم من مرتبة يولداش ، وذلك في عامي ١٦٩٩م و١٧٠١م ، أي بنسبة تقدر بحوالي ٨٠%، وبقيت هذه النسبة كما هي تقريباً بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م ، فإن النسبة بقيت تقريباً كما هي ، حيث وجد ٦٣١ من اليولداش بين ٧٩٦ عنصراً عسكرياً^(١٥) .

إن وجود هذا العدد الكبير من اليولداش بين عناصر الجيش يؤكد لنا الحقائق التالية :

ويتسلم كل عسكري راتبه شخصياً ؛ وذلك في قصر الداي من قبل المحاسب الخاص لهذه العملية (٣٥) . ويتلقى الجنود الأغرار (اليولداش) في الأسابيع الأولى من إقامتهم بعض القواعد الضابطة للتنظيمات العسكرية الخاصة بالإيالة (٣٦) . وكان سلاح الجنود الفردي مؤلفاً بشكل رئيسي من :

بنادقية ، يطقان ، ومسدسين ، وفي حال فقد العسكري أحد هذه الأسلحة يقطع الخوجة ثمنه من راتبه ، وكان يعطى للاتكشاري رطل من الخردق ، وكان عليه أن يشتري البارود بنفسه (٣٧) .

٤- المراتب العسكرية :

تبدأ المراتب العادية من مرتبة الجندي العادي الذي كان يلقب باليولداش أو الرفيق ، ثم يرفع إلى أسكي بولداش (رفيق قديم) بعد قضائه سنوات عديدة بالخدمة العسكرية (٣٨) . ويتدرج هؤلاء أيضاً في المراتب العسكرية في حال أثبتوا الشجاعة والانضباط والسييرة الحسنة. وتقسم الخدمة العسكرية لدى أفراد الاتكشارية إلى ثلاث مراحل أساسية:

١- الجنود الأغرار : ويكلفون بالتدريب على القتال وفنون الحرب في المواقع العسكرية التي جرى تعيينهم فيها .

٢- الجنود المدربون ، ويقسمون إلى قسمين : أحدهما فعال ، والثاني مقاتل.

٣- الأفراد القدامى والمتقاعدون ويستخدمون في الخدمات الثابتة (٣٩) . يتدرج الجندي من مرتبة يولداش ، حسب جدارته وانضباطه ، حتى مرتبة آغا ذي القميرين (أي يعطى احتفاظه بمنصبه لمدة شهرين قمريين فقط) ، بعدها يتكامل عن منصبه ليصبح آغا شرفياً أو معزول آغا ، ويقود فرقة من السباهية (الخيالة) (٤٠) . وكان الآغا يقبض

١٠ سفرات في مدينة وهران ، و ٥ سفرات لكل مدينة من المدن التالية :
قسنطينة ، عنابة ، بسكرة ، بجاية ، تلمسان ، معسكر ، مستغانم ، تبسة ،
وثلاث سفرات لكل من المراكز التالية : سابلو ، بوغني ، سوق حمزة ،
سور الغزلان ، القل ، وزمورة (٣٠) .

وكانت مخصصات الجند من الطعام داخل الثكنات قليلة جداً ،
فكان يعطى لكل جندي أربع خبزات وزنها نصف رطل يومياً ،
مصنوعة من طحين القمح والشعير بنسبة ٢ إلى ١ (٣١) . وكان مرتب
الجندي الأولي هو ٢٧٥ أسبراً أي ما يعادل ٤ فرنك فرنسي و ٥٩,٠٩
سنتيماً ، ويصل المرتب الأعلى يصل إلى ٦ بيا ستر (٥) أي ما يعادل
٥٩ فرنكاً فرنسياً و ٦٠ سنتيماً وذلك لمدة شهرين (٣٢) . لكن الدفع الكبير
للجنود يزداد مع فصل الربيع حيث يبدأ النشاط البحري (القرصنة) ،
إذ يحصل المشاركون فيها من الجلود على نصيب من الدراهم الأمر
الذي يمكنهم من شراء سلاح أبيض أو سلاح ناري ، ويتحسن مستوى
غذائهم في هذا الموسم ، فالجنود الذين يخدمون في البحرية يعطون
بعض المواد الغذائية مثل : البسكويت ، زيت الزيتون ، الزيتون ، الخل
والتين المجفف ، أما من يبقى داخل الثكنات فغذاؤهم البرغل والسرز
ويقدم لهم اللحم والتين مرة واحدة في الأسبوع ، وفي أيام الأعياد كانت
الرواتب تزداد إلى الضعف (٣٣) .

وكان العساكر الجدد الذين يخدمون في قصر الجنيّة والقصبة
يأخذون خروفاً ونصفاً في الأسبوع ، ويستفيدون من الهدايا المقدمة إلى
القصر ، بحيث يصبحون أحياناً أغنياء مقارنة مع رفاقهم القدامى (٣٤) .
وتتم عمليات دفع الرواتب للجنود بصورة منتظمة مرة واحدة كل
شهرين ، وذلك بحضور الداي وأغا الجيش والأغسا باشا وضباط الديوان ،

في حالات الاستنفار العام والحروب ، وكان الجنود يوزعون في الثكنات العسكرية حسب نظام دقيق ، وفيما يأتي أهم ثكنات مدينة الجزائر :

١- دار الانكشارية : مقسمة إلى ٢٧ غرفة تضم ٨٩٩ انكشارياً موزعين على ٤٨ مجموعة (أوجاق).

٢- ثكنة باب عزون : مقسمة إلى ٢٨ غرفة تضم ١٦٦١ انكشارياً موزعين على ٦٥ مجموعة.

٣- ثكنة الخراطين بناحية بساب عزون : مقسمة إلى ٣٠ غرفة تضم ٢٧٨٢ انكشارياً موزعين على ١١٥ مجموعة.

٤- ثكنة الأوسطى موسى أو ثكنة باب الجزيرة : مقسمة إلى ٣١ غرفة تضم ١٨٣٣ انكشارياً موزعين على ٧٢ مجموعة.

٥- ثكنة بساب البصر أو الأدرج : مقسمة إلى ١٥ غرفة تضم ٦٠٢ انكشارياً موزعين على ٢٧ مجموعة.

٦- ثكنة الرحبة القديمة والجديدة : مقسمة إلى ٥٥ غرفة تضم ١٩٤٥ انكشارياً موزعين على ٨٨ مجموعة.

٧- ثكنة العريش .

٨- ثكنة التماقين (*)

وكان للثكنات العسكرية مظهر بناء كبير على طراز بناء الفنادق، مع فارق واحد هو أن المساحة الداخلية غير منسجمة مع مساحة الغرف، ويمكننا الدخول إلى الثكنة عبر ممر ذي عقود يوجد تحتها ، بحسب العادة، سفن من ورق، إن هذا الممر يؤدي إلى مساحة داخلية محاطة بأروقة تفتح عليها أبواب غرف العساكر، وكانت الغرف مزينة بشكل جميل (٢٩) .

أما خارج مدينة الجزائر فإن العناصر التركية كانت موزعة على الحاميات العسكرية وعددها ١٥ حامية ، وموزعة على ٧١ سفرة ، منها

الثاني - في الوقت الذي عجزت فيه الدولة العثمانية عن مواجهة الأخطار الأوروبية التي تعرضت لها في الحوض الشرقي للمتوسط، رأت أن تدعم قوة الجند في إيالة الجزائر ، وأن تهاجم السواحل الأوروبية ، فتستفيد من البحرية الجزائرية القوية في تلك الفترة من جهة ، وتحقق أهدافاً سريعة وإيجابية من جهة أخرى نظراً لقرب السواحل الأوروبية من إيالة الجزائر .

كانت الطبقة العسكرية التركية في الجزائر تتمتع بامتيازات كثيرة كونها تحتل المرتبة العليا في السلم الاجتماعي ، وكانوا يختارون السداي والبايات من هذه الطبقة ؛ بالإضافة إلى أنها كانت معفية من الضرائب وجميع الالتزامات المالية تجاه الحكومة (٢٦) . وكان عدد من هؤلاء الجنود يمارسون في حالات السلم مهناً مختلفة مثل : التجارة ، بناء البيوت وشراء الأراضي والعقارات الزراعية ، وخاصة في ضواحي المدن الكبيرة ، ويستخدمون العبيد والفلاحين للعمل فيها ، واستغفرت الطبقة العسكرية من السلم والهدوء لممارسة مهنتها وأعمالها الحرة ، فعلى سبيل المثال ، شهد عهد الداي عثمان الذي حكم الجزائر بين عامي ١٧٦٦-١٧٩١م حالة من السلم والازدهار على الصعيدين الداخلي والخارجي ، فانعكس ذلك على إيالة الجزائر عامة وعلى الطبقة العسكرية بشكل خاص (٢٧) .

أما فيما يخص الحصون العسكرية فسي الجزائر فيمكننا أن نذكر عدداً هاماً منها ، حيث كان يقسم فيها الجنود الأتراك وهي : حصن القصبة ، برج النجمة ، البرج الجديد ، بطارية الباب الجديد وبطارية سيدي رمضان ، وغيرها (٢٨) .

كان العرب من الجنود يقيمون بتكنات خاصة بلغ عددها في مدينة الجزائر ثمانين تكنات ، في حين كان للمتزوجون يقيمون في بيوتهم ؛ إلا

بلده الأصلي ؛ وكذلك اسم المهنة التي يزاولها وكانت تسجل ألقابهم أحياناً وكان الجيش العثماني في الجزائر يتألف من ٤٢٤ أورطة مقسمة إلى غرف يقيم في كل غرفة بين ١١-٣٠ رجلاً ، وكانت هذه الأورطات موزعة على تكتلات المدينة البالغة ثمان (٢٤) فالقسم الأكبر من هؤلاء الجنود المسجلين في الجزائر هم أناس غير معترف بهم ، وليس لهم أي مصدر للعيش ، ولهم سمعة سيئة ، وهذه الصورة السيئة تكاد نراها لدى الغالبية العظمى منهم ، وجعلت الأهالي ينفرون ويبتعدون عنهم (٢٥).

وعلى الرغم من هذه السمعة السيئة لهؤلاء الجنود القادمين إلى الجزائر، فقد كان ينظر إليهم من قبل السلطات العثمانية الحاكمة في الجزائر. بعد تسجيلهم على دفاتر الانكشارية ، على أنهم أناس شرفاء. فلماذا جندت الدولة العثمانية وسلطانها الحاكمة في الجزائر هؤلاء الناس ذوي السمعة السيئة ، بالإضافة إلى كلفتهم الباهظة ؟ هل كان ذلك من أجل الدفاع عن الجزائر وحمايتها من الغزو الأوروبي ؟ أو لإبعاد هذه العناصر المشاغبة والخطيرة على مركز السلطنة في استانبول كما ذكرنا سابقاً ؟ الحقيقة هي أن الدولة العثمانية كانت تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق الهدفين التاليين :

الأول - إحكام سيطرتها القوية على الإيالة ، وخاصة بعد نهاية فترة حكم البتربايات ، وبداية مرحلة الصراع بين الانكشارية والرياس ، الأمر الذي كان يهدد بخروج الجزائر من قلبك السياسة العثمانية وحلبتها الاستعمارية. فالجيش المرسل إلى الجزائر كان له دوران ، الأول هو دعم السلطة الحاكمة وإمدادها بالقوة اللازمة لقمع محاولات الفتنة والشغب والثورة ، والثاني هو مهاجمة السواحل الأوروبية لتحقيق الغنى والشهرة.

٣- عدد الجيش وتنظيمه في الثكنات :

لم يكن عدد القوة العسكرية ، البرية والبحرية ، ثابتاً في إيالة الجزائر على الرغم من عمليات التجنيد المستمرة التي ذكرناها سابقاً ، حيث لعبت الدولة العثمانية فيها دوراً بارزاً في تاريخها الطويل . ويرجع ذلك إلى أن عدداً من الجنود الأتراك كانوا يتركزون إيالة الجزائر نظراً لظروفهم الحياتية الصعبة ، أو بسبب الهجمات الأوربية على الجزائر ، وكذلك لموت عدد كبير منهم في ساحات المعارك ، لذلك نرى أن عمليات التجنيد كانت شبه مستمرة وسنوية تقريباً .

أما فيما يتعلق بعدد القوة العسكرية فإن الرحالة الأوربيين يقدمون أرقاماً متباينة فالدكتور شلو (Shaw) يقول " بلغ عدد القوة العسكرية العاملة في الجزائر من ٢٥ إلى ٣٠ ألف عنصر ، ويصل العدد أحياناً إلى ١٠٠ ألف ، يوزعون على النحو التالي : من ١٥ إلى ١٦ ألف جندي تركي والباقي مؤلف من البدو المقيمين في القسم الجنوبي من الإيالة ، والخاضعين لسلطة الهادي وكانت تربطهم به علاقات متينة... " (٢٢) . فسي حين يذكر لوجيه دو تاسي (Laugier de Tassy) أن عدد الجيش العثماني في الجزائر لم يتجاوز في أحسن الأحوال والظروف أكثر من ١٢ ألف مقاتل (٢٣) . يعود الفارق الكبير بين هؤلاء الرحالة إلى اختلاف المصادر التي أخذ عنها كل منهما ، أو إلى محاولة شاو (Shaw) تضخيم العدد الذي ذكره لإظهار الجزائر بأنها مركز متقدم لتجميع القوة العثمانية بهدف مهاجمة السواحل الأوربية . فكل عسكري عثماني يصل إلى الجزائر عليه أن يسجل قبل كل شيء على دفاتر الجند ، ويتضمن تسجيله اسم والده واسم

تضعف في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، نظراً لضعف الإيالة
وندره مهاجمتها للسواحل الأوربية ، ففي هذه الظروف اعتمدت الجزائر
على دعم الدولة العثمانية ، وأرسلت بعثات عسكرية جزائرية ، أو كان
لها مندوبون في استانبول لتتسيق هذا الدعم (١٩) . وهنا نرى استغلال
حكام السلطنة العثمانية لهذا الوضع من أجل المحافظة على استمرار
السيطرة العثمانية وتوطيد نفوذها على الإدارة الجزائرية وتنفيذ ما يطلب
إليها من أوامر سلطانية . ومهما يكن من الأمر ففي جميع الأحوال ، فقد
كانت عمليات التجنيد تخدم السلطة العثمانية الحاكمة في استانبول
والجزائر ، ولم يزل الرعية المحكومة من هذه العمليات سوى تحملها
قساوة الجند في تعاملهم معهم ، وبشكل خاص أثناء قيامهم بعملية جمع
الضرائب ، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى التمرد والعصيان المسلح ، وأدى
ذلك إلى تدهور أحوال الإيالة الاقتصادية والاجتماعية ، وإلى توسيع هوة
الحقد والكراهية بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة ، وكانت عمليات
التجنيد مكلفة للإيالة التي كانت مجبرة لدفع الأموال اللازمة لإتمام هذه
العمليات ، بالإضافة إلى الرشوة التي كانت تدفع من قبل السلطات
الجزائرية للسلطة العثمانية لتسهيل هذه العمليات (٢٠) .

وفي أواخر العهد العثماني في الجزائر اضطرت الحكومة إلى
مضاعفة أعداد الجند ، بسبب ازدياد الهجمات الأوربية ضدها وضعف
السلطنة ، فلجأت إلى التجنيد المحلي من الدواوير والزمول وقبائل المخزن
مثل الزواوة ، عام ١٨١٧م ففي عهد السداي علي ، حيث جند حوالي
٢٠٠٠ من رجال القبائل ، ونقل مركز الحكم من قصر الجنبلة إلى
القصبة (٢١) .

(Laugier de Tassy) فوصفهم " بأنهم أشقياء ومحكوم عليهم بالإعدام... " (١٧) . وكان حكام الدولة العثمانية يدعمون عمليات التجنيد ويؤيدونها ؛ وذلك لكي يبعثوا العناصر المشاغبة والسقوية إلى الجزائر . وكانت عمليات نقل المجندين تتم عن طريق السفن الجزائرية ، ولم يكن هناك وقت محدد لقنوم هذه السفن ، بل كان يحدث مصادفة في إحدى الحالات التالية :

١- عندما تقوم السفن الجزائرية بعمليات بحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

٢- أثناء إبحار السفن الجزائرية إلى المشرق لمساعدة الأسطول العثماني في معاركه ضد أعدائه .

٣- عند قيام هذه السفن بعمليات تجارية في الحوض الشرقي للمتوسط ، حيث كانت تستغل هذه الفرصة لنقل الجنود (١٨) .

هنا لابد من طرح السؤال التالي : لماذا لم تتم عملية نقل الجنود في أوقات منظمة ومحددة من قبل حكام الأيالة وحكام السلطنة ؟ اليس هذا نوعاً من الإهمال ؟ لاسيما وأن كلا الطرفين بحاجة إلى بعضهما البعض ، فالجزائر بحاجة إلى هؤلاء الجنود لقمع الثورات الداخلية وتثبيت الحكم ولمهاجمة السواحل الأوربية لتحقيق الغنى والشهرة والمجد ، والدولة العثمانية من جهتها كانت تحتاج إلى هذه العمليات لتحقيق هدفين ، أولهما : إبعاد هذه العناصر المشاغبة عن مركز السلطة . والثاني : العمل على استمرار نفوذها وسيطرتها على إدارة الجزائر .

بقي تجنيد العناصر من الأناضول وإرسالهم إلى الجزائر كبيراً طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، أي في عصر قوة السلطنة العثمانية والإيالة الجزائرية معاً . غير أن عمليات التجنيد بدأت

يقوضونها مع القوى الأوروبية الكبرى آنذاك ، أم في حال وقوع هؤلاء الجنود في الأسر^(١٣).

ويشير الرحالة الإنكليزي شاو (Shaw) إلى أن عمليات التجنيد كانت تتم كل خمس أو ست سنوات ، وكان الجزائريون يرسلون سفنهم إلى الأناضول لجلب هؤلاء الجنود^(١٤) . بينما أصبح هذا التجنيد في القرن التاسع عشر الميلادي يتم كل سنة تقريباً ، نظراً لحاجة الإيالة الماسة إلى الجند^(١٥) . هنا نطرح على أنفسنا السؤال التالي : لماذا كانت عمليات التجنيد تتم في الأناضول وليس في الجزائر نفسها بسين السكان الأصليين ؟ ألا يدل ذلك على طابع العقيدة العثمانية القائم على التمييز ؛ لاسيما وأن الهدف الأساسي من عمليات التجنيد هو دعم الجيش العثماني في الجزائر من أجل الدفاع عنها ومهاجمة السواحل الأوربية ، إن استخدام هؤلاء الجنود كان يتم وفق الخطة ، التي يرسمها القائمون على هذه البعثات المرسلة إلى الأناضول ، بخصوص المصير الذي ينتظرهم في الجزائر ، والامتيازات التي سيحصلون عليها جراء مهاجمة السواحل الأوربية . على أية حال ، كانت حاجة الجزائر إلى هؤلاء الجنود ذات أثر إيجابي وهام في العلاقة بين السلطنة والإيالة ، مما أدى بالأخيرة إلى عدم قطع صلاتها مع الدولة العثمانية ، بالمقابل ، استغلت هذه الأخيرة حاجة الجزائر للجند من أجل فرض سيطرتها الفعلية على حكامها ورعيتهما ، ولكن صفات هؤلاء الجنود الأخلاقية ورتبتهم الاجتماعي كانت غير مقبولة في الجزائر ، فكتابات الرحالة الأجانب تصف هؤلاء الجنود بأنهم كانوا ينتسبون إلى أدنى الطبقات الاجتماعية ، فالأب دان (Dan) " يصفهم بالرعاة الفقراء أو بأنهم أناس منحطون..."^(١٦) ، أما لوجيسه دو تاسي

١ - أصول الانكشارية الجزائرية :

يمكن التحقق من أصول هؤلاء العساكر بالاعتماد على السجلات العسكرية ، التي كان يدون فيها اسم الشخص ، ثم المدينة التي ولد فيها ، وديانته وثقافته التي كانت تميزه عن سكان البلاد الأصليين ^(٧) ، ونجد أحيانا أسماء المناطق الأصلية لهؤلاء الجند وألقابهم مثل التركي ، والعلاج (معنق الإسلام) ، وكانت الغالبية العظمى التي تشكل الجيش العثماني من الأتراك ^(٨) ، بالإضافة إلى قسم آخر من البدو القاطنين في الناحية الجنوبية لإيالة الجزائر والخاضعين لسلطة الداي ، أو من الذين تربطه بهم علاقات تحالف وصداقة ^(٩) .

إلا أن الغالبية العظمى من هؤلاء الجنود كانت ترجع بأصولها إلى الأناضول ، حيث كانت عمليات التجنيد تتم هناك ، وذلك وفق ماورد في إحصائيات كولومب (Colomb) المتعلقة بالسجلات العسكرية للجيش العثماني ^(١٠) ، وهناك نسبة صغيرة من هؤلاء الجنود تعود أصولها إلى مناطق أخرى من الامبراطورية العثمانية مثل : ألبانيا (وبشكل خاص من مدينة باسا الواقعة في الجزء الأوربي للامبراطورية العثمانية) ، والبوسنة ، وجزيرة قبرص ، وكريت وجزيرة رودوس ^(١١) . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدداً من العساكر الذين دخلوا حديثاً في الإسلام كان لهم امتيازات الانكشارية والرياس ، وقد وصل هذا العدد أحياناً إلى نصف الجيش ، وبشكل خاص القوة البحرية في القرن السابع عشر الميلادي ^(١٢) .

٢ - عمليات التجنيد :

كانت عمليات التجنيد تتم تحت إشراف بعثات جزائرية - عثمانية ، كان المسؤولون عن إدارة إيالة الجزائر يبلغون استأبول في حال نقص عدد الجنود لديهم ، سواء بسبب الموت أثناء المعارك التي كانوا

أولاً- الانكشارية (الجيش البري) :

حكمت البلاد العربية التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية من قبل طبقة كان أغلبية أفرادها يجندون جميعهم من خارج حدودها ، وكانت هذه الطبقة تزود الدولة العثمانية بالقسم الأكبر من الموظفين السياسيين والعسكريين^(١) . ولم تخرج إيالة الجزائر عن هذه القاعدة ، وحكمت في بداية القرن السادس عشر الميلادي ، وبعد إعلان خير الدين بربروس تبعيته للدولة العثمانية ، من قبل جيش أجنبي أطلق عليه اسم الأوجاق أو الجيش التركي^(٢) . وكان الانكشاري يجمع بين مهنتين في الوقت نفسه ، مهمة إدارية مدنية ، ومهمة عسكرية ، بالإضافة إلى قيامه بعمله الخاص ، وكان يحق له العمل بالتجارة والصناعة وأحياناً بالزراعة^(٣) ، فعلى سبيل المثال كان العسكر من فئة البلوكباشي يختارون كسفراء لدى الدول الأجنبية^(٤) ، بمعنى آخر لعبت المؤسسة العسكرية العثمانية في الجزائر دوراً مهماً على الصعيدين الإداري والعسكري ، لكن منذ عام ١٦٦٠م بدأ الباشوات المرسلون من استانبول لإدارة الجزائر يفقدون تأثيرهم الحقيقي على قرارات الجيش العثماني في الإيالة ، وبدأ الباشا المنتخب من قبل الجيش يلعب الدور الأساسي في إدارة الدولة عسكرياً وإدارياً^(٥) .

يتبين لنا من هذا التمهيد الدور الفاعل والحقيقي الذي كان يلعبه الجيش في إدارة إيالة الجزائر وتصريف أمورها الداخلية ، وتوجيه سياستها الخارجية ، لكن هذه الإدارة العسكرية الحديدية انعكست على الأوضاع الداخلية في البلاد ، وبشكل خاص على للرعية ، التي كانت مبعدة عن لعب أي دور في إدارة الدولة ، الأمر الذي دفعها إلى التمرد والعصيان ، وتعدت ثورات بلاد القبائل وثورة القولوغلية خير مثال على ذلك.

الفصل الرابع

الحياة العسكرية للجزائر في العهد العثماني

يشكل الجيش سندا أساسياً لأية دولة من الدول ، حيث توكل إليه السلطة الحاكمة القيام بمهمتين أساسيتين: الأولى داخلية وتقوم على حماية الأمن داخل البلاد ، والثانية خارجية للدفاع عن البلاد ضد أي عدوان تتعرض له . واعتمدت الدولة العثمانية في الجزائر على الجيش ، بعدما شكلت نواته في عام ١٥١٨م عندما أعلن خير الدين بربروس تبعيته للدولة العثمانية ممثلة بالسلطان سليم الأول . الذي قام بإرسال ٢٠٠٠ جندي من الانكشارية إلى الجزائر ، وسمح له بجمع عدد مماثل من المتطوعين ، حتى وصل عدد أفراد هذا الجيش إلى ٤٠٠٠ جندي ، ثم تزايد عدده عندما أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني ٤٠ سفينة تحمل ٦٠٠٠ جندي إلى حاكم الجزائر صالح ريس من أجل مساعدته في استعادة وهران والمرسى الكبير من أيادي الإسبان ، ومنذ ذلك التاريخ لعبت الهجرة والتجديد الطسوعي من جميع أنحاء الامبراطورية ، وبشكل خاص الأناضول ، دوراً هاماً في تزويد إيالة الجزائر بالعناصر العسكرية^(١) . ينقسم الجيش في الجزائر إلى قسمين رئيسيين هما : الانكشارية ، وطائفة الرياس ، وسنقتاول كل قسم على حدة ، ونبين التنظيم والمراتب المتبعة فيهما ، ونتائج الصراع بين هاتين الطائفتين على الأوضاع الداخلية والخارجية لإيالة الجزائر في الفترة العثمانية .



- 31- Walsin , Esterhazy : Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger , Paris 1840 , p. 165 .
- 32- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 100 .
- ٣٣- عامر : المرجع نفسه , ص ٩١ .
- ٣٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٧٥ .
- 35- Boyer , Pierre : L'évolution de l'Algérie médiane de 1830 - 1956 , Paris 1960 , p. 52 .
- 36- Boyer , Pierre : " Contribution é l'étude de la politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger (XVI- XIX siècle) , revue de l'occident musulman et de la méditerranée , 1966 , p. 16 .
- ٣٧- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ٧٩ .
- ٣٨- الناصري , أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى, الدار البيضاء ١٩٥٦م , ص ١١٠ .
- ٣٩- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ١٧٢ .
- 40- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 120 .
- ٤١- عامر : المرجع نفسه , ص ٩٠ .
- 42- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 123-124 .
- ٤٣- عامر : المرجع نفسه , ص ٨٩ .
- 44- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 123 .
- 45- Venture de Paradis : op, cit., p. 256

- ١٣- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٢٧ .
- 14- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 97 .
- 15- Le Docteur Shaw : op, cit., p. 167 .
- ١٦- فارس : المرجع نفسه , ص ٧٣ .
- ١٧- عامر , محمود : تاريخ المغرب العربي (الجزائر - تونس) , منشورات جامعة دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥ , ص ٨٨ .
- ١٨- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٢٨ .
- 19- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 124 .
- 20- Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIIIe siècle , Paris 1963 , p. 190-191 .
- 21- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 98-99 .
- ٢٢- عامر : المرجع نفسه , ص ٨٩ .
- ٢٣- فارس : المرجع نفسه , ص ٧٣ .
- 24- Le Docteur Shaw : op, cit., p. 155 .
- 25- Julien , Charl André : Histoire de l'Afrique du nord , Paris 1937 , p 376 .
- ٢٦- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٢٩ .
- ٢٧- فارس , محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر , منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٢-٢٠٠٣ , ص ١٦٩ .
- 28- Boyer : La vie quotidienne ..., op, cit., p. 100 .
- ٢٩- عامر : المرجع نفسه , ص ٩٠ .
- ٣٠- الوليش , فتيحة : الحياة الحضريّة في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر , رسالة ماجستير جامعة الجزائر , الجزائر ١٩٩٢-١٩٩٣ م , ص ١٦ .

هوامش الفصل الثالث

- ١- عيد القادر ، نور الدين : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي ، قسنطينة ١٩٦٥م ، ص ٨٦ .
- 2- Serres , J., : La politique turque en Afrique du nord sous la monarchie de juillet , Paris 1925 , p. 9 .
- 3- Serres : op, cit., p. 10.
- ٤- سعيدوني ، ناصر الدين : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠ ، الجزائر ١٩٧٩م ، ص ٢٥ .
- 5- Emerit , M., : " Le voyage de la condamine à Alger 1731 , R.A 1934 , p. 292 .
- 6- Weissman , N., : Les janissaires , thèse de doctorat , Paris 1964 , p. 69 .
- ٧- سعيدوني : المرجع نفسه ، ص ٢٥ .
- ٨- فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ٧٢ .
- 9- Le Docteur Shaw : Voyage dans la régence d'Alger , Tunis sans date , p. 167 .
- 10- Boyer , Pierre : La vie quotidienne é Alger à la veille de l'intervention française , Paris 1963 , p. 97 .
- 11- Boyer , Pierre : " Des Pachas triennaux à la révolution d'Ali Khodja Dey (1571 - 1817) , R.A., n° 495 , p. 115 .
- 12- Tachriffat : Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger , publié par Albert Devoulx , Paris 1853 , p. 20 .

الباي الأموال والهدايا على مستقبله ، كل حسب رتبته الاجتماعية ، فمثلاً يكون نصيب الداي ما قيمته عشرين ألف دورو من المصوغات والهدايا ، والفخزدار ما قيمته حوالي ألف دورو . إن لهذه الهدايا والترصيات اعتبارات هامة فعلى أساسها يستطيع الباي أن يكسب عطف الداي وديوانه ، أو على العكس يثير غضبه ويدفعه إلى الانتقام منه ، ففي الحالة الإيجابية يكرم الداي ويلبس الخلعة ويبقى في ضيافة الداي لمدة سبعة أيام هو وحاشيته ، ثم يلتحق بعد ذلك ببيلاكه (١٣٥) .

٢- عائدات بيت المال :

تحتل هذه العائدات مكانة مرموقة في النظام المالي الجزائري في العهد العثماني، ويأتي دخلها من المصادر التالية :

١- مردود الأملاك العقارية التي تعود ملكيتها المباشرة إلى البايك : كانت هذه الأملاك حوالي خمسة آلاف بناية في مدينة الجزائر وحدها ، وبلغ ثمنها بأربعين مليون فرنك فرنسي (١٣٦) .

٢- التركات والودائع العمومية التي تعود ملكيتها إلى بيت المال في حال موت أصحابها ، وذلك بعد دفع حقوق الغائبين والورثة ، والمصاريف المترتبة عليها مثل : نفقات دفن ، أجور موثقين وكتاب ، وذلك بشرط ألا تتجاوز جميع هذه المصاريف ٧% من التركات والودائع (١٣٧) . بالرغم من المصاريف السابقة الواجبة على هذه التركات ، فإنها كانت تساهم بجزء كبير من الأموال التي قدرت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بملايين الفرنكات الفرنسية .

٣- عائدات الأوقاف : كانت هذه العائدات تشكل مصدراً هاماً من موارد بيت المال ، وكانت تمدّه بموارد مالية أحياناً ، على الرغم من أنها موجهة إلى أعمال الخير وخدمات المجتمع الضرورية بمختلف أنواعها .

١ - الدنوش :

كلمة دنوش : هي لفظ محلي جزائري معناه المحاسبة على الضرائب ، وشاع استعمال هذا اللفظ في الالتزامات المالية . وتساهم في الدنوش بيليكيات قسنطينة ، وهران ، التيطري ، ومنطقة سباو ودار السلطان ، بتقديمها كميات كبيرة من الثروات والأموال . وكان قسم من الدنوش يذهب إلى الخزينة العامة للدولة ، وقسم آخر كان يذهب كهدايا وعلى شكل ترضية مادية وعينية إلى موظفي الدولة ، وكان على الباقي أن يقدم دنوشه في مواعيد محددة ، ووفق طرق متعارف عليها ، وذلك مرة واحدة كل ثلاث سنوات ، وهذه العملية تسمى الدنوش الكبرى ^(١٣١) . وتجب الإشارة بأن الدنوش والعوائد الفصلية ، تتعرض للزيادة والنقصان تبعاً للأحوال الاقتصادية السائدة في كل منطقة ، فبإمكان قسنطينة يحتل المرتبة الأولى من حيث كمية الدنوش التي يساهم بها ، أما منطقة سباو ودار السلطان فلا تمتد الخزينة بهذا النوع من العوائد إلا بكمية قليلة .

يمكننا هنا أن نقدم وصفاً لعملية نقل الدنوش من الباليكيات إلى الجزائر ، ويتلخص في استعداد الباقي (في كل منطقة) ورجال حاشيته لحمل الدنوش إلى العاصمة بمرافقة ثلاثة آلاف فارس من القبائل الحليفة له ^(١٣٢) ، وهو على رأس قافلة الدنوش المؤلفة عادة من ثمانين بغلاً ^(١٣٣) ، والمحملة بأكياس النقود والمصنوعات المحلية مثل الحايك والبرانس البيضاء والسوداء وأقمشة الصوف والجلود والعطور والسروج المطرزة ، فضلاً عن عدد من العبيد وقطعان الخيل والبغال والمواشي ، وكميات من العسل والزبدة والأرز والحبوب والزيتون ^(١٣٤) . وعندما تصل القافلة إلى ضواحي مدينة الجزائر يخرج لاستقبالها آغا العرب والخزنجي وبعض الموظفين من ذوي الرتب الرفيعة ، ويتم ذلك في عين الربط (وهو مكان في مدينة الجزائر يعرف اليوم بساحة الأول من أيار) ، بعد ذلك يقوم هؤلاء باصطحاب القافلة إلى قصر الداوي في احتفال بهيج يوزع خلاله

٣- عائدات سكان المدن :

أهم هذه العائدات ضيفة الباي وضيفة السلطان ، حيث تؤخذ الأولى من سكان المدن التي لا يوجد فيها مفرزة عسكرية ثابتة ، وتتراوح ما بين ٨٠٠- ٢٠٠٠ ريال وأربعة عشر حصاناً ، أما الثانية فكانت تقدم للأشاع عن طريق شيخ البلد ، وكانت هذه الضيفة أهم من الأولى وتختلف كميتها من مدينة إلى أخرى ، وذلك حسب الأحوال الاقتصادية للمدن (١٢٨) .

٤- رسوم النقابات المهنية والحوانيت التجارية :

كان أسماء النقابات المهنية في المدن يكلفون بتزويد خزينة الدولة بمبالغ مالية تختلف حسب أهمية النقابة ، وأحياناً كانت النقابات تزود موظفي الدولة ببعض المواد المصنعة من قبلها بصورة مجانية ، فعلى سبيل المثال كانت حوانيت الحدادة في مدينة مليانة تتكفل بتزويد أوجاقها بما يحتاجون إليه من أسلحة وسروج والأجمة للخيول (١٢٩) ، وكان يتوجب على كل حانوت دفع ضريبة شهرية للدولة مقدارها ٣٠ سنتيماً فرنسياً ، وكل دكان يستخدم حالة يجب أن يدفع عنه ٣٠ فرنكاً فرنسياً و ٩ فرنكات عن كل برميل خمر يبيعه ، بالإضافة إلى دفع أجر شهري عن الدكان إلا إذا كانت من ملكية الحكومة (١٤٠) . يضاف إلى هذه الرسوم ، ما كان يجبي من الأماكن التي كانت تستخدم للدعارة ، حيث كان المسؤول عن هذه البيوت ، ويسمى المزوار ، يدفع للدولة مبلغاً يصل أحياناً إلى ٢٤٠٠٠ فرنك سنوياً في مدينة الجزائر وحدها (١٤١) .

٥- الرسوم المفروضة على اليهود والنصارى :

ترجع هذه الرسوم إلى الجزية المفروضة على أهل الذمة والقاطنين في البلاد الإسلامية ، وكان يتكفل بدفع هذه الرسوم أمين أهل الذمة نيابة عن أفراد طائفته بمعدل قرش عن كل فرد . كانت هذه الرسوم على الرغم من قلة مبالغها

تضيف إلى خزانة الدولة مبالغ مالية ضخمة قد تصل إلى ألف بدقة شيك (١٤٢) .
وقد تحدث الأب دان (Dan) في كتابه البلاد البربرية عن هذا الموضوع إذ
قال: "إن الرسوم السنوية المفروضة على اليهود تعادل ستة آلاف ليرة
ذهبية" (١٤٣) .

٦- الفوائد المترتبة عن أنظمة التعامل التجاري :

تتمثل هذه الفوائد في الرسوم الجمركية ، رسوم الأسواق ورسوم الأرباح
الناتجة عن تصدير المواد الأولية التي تحتكرها الدولة .

أ- الرسوم الجمركية :

تفرض على السفن عندما تتوقف في الأراضي الجزائرية ، وكانت تقدر
ب ٢٠ قرشاً على السفن التابعة للإيالة أو الدولة العثمانية ، و ٤٠ قرشاً على
السفن التي تعود ملكيتها إلى الدول الأوروبية التي تربطها علاقات جيدة مع
الجزائر ، و ٨٠ قرشاً على أية سفينة تعود ملكيتها إلى دولة معادية ، وتضطر
إلى التوقف في إحدى الموانئ الجزائرية (١٤٤) . يمكن أن نطلق على هذا
الرسم اسم رسم السفن ، وهناك رسم آخر يفرض على البضائع التي تحصلها
للسفن سواء كانت معدة للتصدير أم للاستيراد ، ويبلغ ١٢ % على المواد
المستوردة و ٢ % على المواد المصدرة ، يضاف إلى هذه الرسوم مبلغ وقدره
١٢ فرنكاً فرنسياً عن كل سفينة مقابل الاسترشاد بمنارة المرسى (١٤٥) .

ب- رسم الأسواق :

عينت السلطة الحاكمة رجلاً خاصاً من أجل القيام بهذه المهمة والعمل
على جباية الرسوم المترتبة على الأسواق وتنظيمها ، فبالإضافة إلى جانب هذا الموظف
عينت الدولة أشخاصاً آخرين ، أوكلت إلى كل منهم مهمة مراقبة دخول وخروج
سلعة محددة في الأسواق ، وفيما يتعلق بالرسوم المتعلقة بالسلع يمكننا أن نذكر
بعضها ، فعلى سبيل المثال : رسم قنطار الكتان الصغير ٢٥ درهماً ، رسم حمل

التمر ٥٠ درهماً ، رسم حمل الزيتون ٥٠ درهماً ، فما هي الأرباح التي يحصل عليها الفلاح أو التاجر من عمله ، خاصة إذا كانت الرسوم والضرائب المفروضة عليه باهظة للغاية ؟ ألا يمكننا القول بأن السياسة العثمانية الاقتصادية المتبعة هي سياسة استعمارية أهلكت البلاد والعباد بتتويع الضرائب ، وإلهاء الشعب الفقير ، سواء داخل المدن أو في الأرياف ، بجمع مبالغ ضرائب ورسوم لا طاقة له على تحملها خاصة في سنوات الجفاف والكوارث الطبيعية . بقي علينا الحديث عن الصنف الثالث من فوائد التعامل التجاري ، والمتمثل بالرسوم المفروضة على الصادرات لبعض المواد الأولية المطلوبة في أوروبا مثل : الحبوب ، الزيتون ، الصوف ، العسل ، الجلود والملح . إن السياسة الاستعمارية للبابلك تظهر في فرض الرسم على هذه المواد ، فقد كان البابلك يأخذ هذه المواد سواء عن طريق شرائها بأسعار رخيصة للغاية أو عن طريق الحصول عليها على شكل ضريبة ، ويقوم بدوره ببيعها إلى البيوت التجارية اليهودية أو إلى وكلاء التجار الأوروبيين المقيمين في الإيالة ، وذلك بفائدة تتراوح ما بين ٥٠-٦٠% من ثمنها الأصلي^(١٦) . فهل يوجد تفسير لهذه السياسة العثمانية غير العمل على تجويع الشعب ، وجعله أداة طيعة في يد السلطة الحاكمة ، لكن السلطة العثمانية ضعفت وسقطت في النهاية ، وكانت سياستها المالية التي اتبعتها أحد عوامل انهيارها ، فالدولة منهارة داخلياً ومحاصرة خارجياً ، فما كان أمامها إلا الاستسلام في النهاية وتسليم البلاد لاستعمار جديد ، وبدأت حقبة استعمارية جديدة من تاريخ هذا البلد استطاع أن يتغلب عليها في نهاية المطاف .

٧- المصادرات :

اتبعت السلطة العثمانية في الجزائر ، كما هو الحال في المناطق التي خضعت لها ، عمليات المصادرة والغرامة والعزل من المناصب ، وذلك للحصول على الثروات والأموال ، خاصة عندما تشتد عليها الضائقة المالية^(١٧) . وأحياناً

تحت تأثير الضغط العام للمعادي للاحتكارات اليهودية ، فعلى سبيل المثال تسبب هذا الضغط في الانتفاضة الشعبية ضد اليهود في عام ١٨٠٥م ، التي قام بها الانكشارية والسكان على حد سواء ، وقتل فيها كبير اليهود نفتالي بوشناق (١٢٨)

٨- الأرباح الناجمة عن النشاط البحري (القرصنة) :

شكل النشاط البحري الجزائري (القرصنة) لفترة طويلة مورداً للرزق ومصدراً للثروة ، وكانت عاملاً حاسماً في دعم الاقتصاد الجزائري ، خاصة في مدينة الجزائر عاصمة الإيالة . وكانت هذه المهنة في نظر المؤرخين ، مربية للغاية وتشكل العمود الفقري في دعم الخزينة الجزائرية ، والدليل على ذلك أنه بنهاية هذا النشاط انتهت الدولة ، حيث كانت الدولة تقال من الغنائم التي تعود فيها سفنها حصة تتراوح ما بين السبع أو العشر . كما كان لها نسبة تصل إلى ١٢ % من السفن التي تحتجزها في موانئ الجزائر ، بالإضافة إلى حصتها من المبالغ التي تدفعها الدول الأوروبية من أجل فداء أسراها (١٢٩) . لكن عوائد النشاط البحري (القرصنة) بدأت تنقص منذ القرن الثامن عشر الميلادي ، على الرغم من فترة الازدهار التي شهدتها في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي ، ويعود الفضل في ذلك إلى عاملين هامين :

الأول : بسبب الجهود التي بذلها الرياس المشهورون مثل : الرئيس حميدو . والثاني : يعود إلى الظروف الدولية في الساحة الأوروبية ، التي سمحت لهذه القرصنة الجزائرية بالازدهار ثانية ، خاصة اشتعال الحروب النابليونية (١٣٠) . وبفضل هذه الظروف استطاعت عوائد النشاط البحري (القرصنة) أن تغطي ما بين عامي ١٨٠٥-١٨١٥م العجز المالي للإيالة ، بعد أن حققت أرباحاً بالغة وصلت إلى ثمانية ملايين فرنك فرنسي .

لكن حملة اللورد إكسموث وضعت حداً للنشاط البحرية الجزائرية ، حيث تمكنت من تحطيم أغلب السفن ، وأطلقت سراح ما تبقى من الأسرى الأوربيين والبالغ عددهم ١٦٠٦ أسير وتم ذلك دون مقابل (١٥١) . ويضاف إلى ذلك ما نتج عن تدمير السفن الجزائرية المشاركة في معركة نافارين إلى جانب الدولة العثمانية ، وفرض الحصار البحري على الجزائر وهذان عاملان لعبا دوراً هاماً في تدهور أرباح النشاط البحري (القرصنة) ، لا بل كانا السبب في تدميرها إلى غير رجعة (١٥٢) .

٩- الأتوات والهدايا :

امتلكت مراسلات القناصل وكتب الرحالة وسجلات الدولة الجزائرية بقوائم طويلة للأتوات التي كانت تفرض على الدول الأوربية ، والهدايا التي بدأت تأخذ طابعاً حكومياً لأنها كانت تقدم من قبل قناصل تلك الدول ، لكن هذه الأتوات والهدايا بدأت في أواخر العهد العثماني تفقد قيمتها كالتزامات مالية تساهم بدخل جيد في خزانة الدولة ، وأصبحت عبارة عن هدايا دبلوماسية وترضييات تقدم مقابل السماح للدولة التي قدمتها بحرية الملاحة واحتكار بعض الموانئ التجارية .



هوامش الفصل الخامس

1- Boye, Pierre : La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention Française, France 1963, p. 178.

٢- سعيدوني , ناصر الدين : دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة , دار الغرب الإسلامي , الطبعة الأولى , بيروت ٢٠٠١م , ص ٨٠.

3- Boyer : op, cit., p. 178.

٤- سعيدوني , ناصر الدين : الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني (المؤسسة الوطنية للكتاب , الجزائر بدون تاريخ , ص ٥١.

٥- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ٨٢-٨٣.

٦- الجابدة : تعادل وسطياً عشرة هكتارات من الأرض.

٧- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٥٢.

٨- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ٨٤.

٩- سعيدوني , ناصر الدين : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠ , الجزائر ١٩٧٩م , ص ٩٥.

١٠- سعيدوني . النظام المالي ... , ص ٩٨.

١١- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ٨٥.

١٢- نمير , عقيل : المؤسسات الخيرية في مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر , دراسة مقارنة للوقف , الترجمة العربية , دمشق ٢٠٠٣م , ص ٢٤.

١٣- سيدي خليل : المذهب المالكي , ترجمة دافيد سنتيلانا , ميلان ١٩١٩م , ص ٢٤.

١٤- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ٨٦ .

- ١٥- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ١٠١ .
- ١٦- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ١٠٢ .
- ١٧- سعيدوني , ناصر الدين : " الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني " , المجلة التاريخية المغربية , العدد ٣٩-٤٠ , تونس ١٩٨٥م , ص ٤٣٦ .
- ١٨- سعيدوني : الأحوال الصحية ... , ص ٤٣٧ .
- ١٩- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ٤٣٥ .
- 20- Grammont, H.-D : Histoire d'Alger sous la domination turque , 1515-1830 , Paris 1887 , p. 310 . voir aussi , Magaly Morsy : " Le tremblement de terre de 1755d'après les témoignages d'époque , Hespéris , Tamuda , volume VI , 1975, p. 90.
- ٢١- الراشدي , أحمد بن سحنون : الثغر الجماني في ابتسام الثغر تحقيق وتقديم المهدي , البوعبدلي , قسنطينة ١٩٧٣م , ص ٢١٢ .
- ٢٢- سعيدوني : الأحوال الصحية ... , ص ٤٣٥ .
- ٢٣- غطاس , عائشة : " الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني " الثقافة , مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر , السنة الثالثة عشرة , العدد ٧٦ , الجزائر , المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية , ص ١٢٢ .
- 24- Berbruger A. : D'un mémoire sur la peste en Algérie depuis 1522 jusqu'en 1819 , exploration scientifique , tome II , Paris 1847 , p. 239. voir également Tal Shuval : La ville d'Alger à la fin du XVIIIe siècle , population et cadre urbain , thèse de doctorat , Aix-en - Provence , France 1994, p. 79.

٢٥- سعيدوني : الأحوال الصحية ... , ص ٤٣٤ .

26- W. Shaler : Esquisse de l'Etat d'Alger, traduire de l'anglais par Mac Carthy , Paris 1830, p. 103.

27- Panzac, D., : La peste dans l'empire ottomane , 1700-1850, Luven 1985, p. 29.

28- Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIIIe siècle , Paris 1983, p. 154-155.

29- L'Abbé G. T. Raynal : Histoire philosophique et politique des établissement et de commerce des européens dans l'Afrique septentrionale, Paris 1826, p. 112.

٣٠- سعيدوني : دراسات تاريخية ... , ص ١١١ .

31- M. Guyon : " sur la peste d'Alger 1817-1818 " in moniteur algérien, n° 109 1834, p. 62 . regarde également J. Marchika : La peste en Afrique du Nord 1363-1830 , Alger 1927, pp. 149-173.

٣٢- سعيدوني : الأحوال الصحية ... , ص ٤٣٥ .

٣٣- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٥٢ .

34- Baron , p., de Berthezène : Dix- huit mois à Alger , Montpellier 1834 , p. 12.

٣٥- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٥٦ .

36- Boyer : op, cit.; p. 179.

٣٧- سعيدوني : الأحوال الصحية ... , ص ٥٧ .

38- Des Fontaines et Peyssonnel : Voyage dans les régences de

Tunis et d'Alger , Tome II , Paris 1838 , p. 139.

٣٩- خوجة ، حمدان بن عثمان : المرأة ، ترجمة محمد بن عبد الكريم ، بيروت ١٩٧٢م ، ص ٦٥-٦٦.

٤٠- الكسكوس : وهي أكلة شعبية مشهورة في أفريقيا الشمالية وتتألف مكوناتها الأساسية من القمح واللحم والخضروات.

41- Baudicour L., : La colonisation de l'Algérie , Paris 1856 , p. 19.

٤٢- سعيدوني : الأحوال الصحية ... ، ص ٥٨.

43- Boyer : op, cit., p. 181 .

٤٤- سعيدوني : الأحوال الصحية ... ، ص ٥٩.

45- Le docteur Shaw : Voyage dans la régence d'Alger , traduit de l'anglais par J. Mac Carthy , deuxième édition , Tunis sans date , p. 19.

46- Boyer : op, cit., p. 181 .

47- Le docteur Shaw : op, cit., p. 14 .

٤٨- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... ، ص ٥٩.

49- Boyer : op, cit., p. 181 .

٥٠- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... ، ص ٥٩.

٥١- سعيدوني : المرجع نفسه ، ص ٥٩.

٥٢- سعيدوني : المرجع نفسه ، ص ٥٩.

٥٣- سعيدوني : المرجع نفسه ، ص ٦٠.

54- Le docteur Shaw : op, cit., p. 39-40-41 .

٥٥- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... ، ص ٦٠.

٥٦- المرجع نفسه , ص ٦١.

٥٧- المرجع نفسه , ص ٦١.

58- Le docteur Shaw : op, cit., p. 73-74.

٥٩- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦١.

60- Boyer : op, cit., p. 189.

61- Boyer : op, cit., p. 184.

62- Boyer : op, cit., p. 184.

٦٣- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦٥.

64- Boyer : op, cit., p. 186-187.

٦٥- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦٧.

66- Rozet M. : Voyage dans la régence d'Alger , Paris 1833 ,
p. 97-98.

67- C.A.O.M.(Centre d'Archive d'Outre Mer) : 15 m z n° 159
, sans pagination.

68- Venture de Paradis : op, cit., p. 119.

٦٩- نمير : للمؤسسات الخيرية ... , ص ١٩٥ .

70- Rozet : op, cit., p. 98-100 . voir également Tal Shuval , p.
378.

71- Venture de Paradis : op, cit., p. 109.

٧٢- أرشيف ما وراء البحار : ١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٥ , دفتر رقم ١٠٥ , ص

٣٨ , وميكرو فيلم رقم ٢٦ , دفتر رقم ١٠٧ ص ٨٣ . وميكرو فيلم رقم

٢٨ , دفتر رقم ١٠٩ ص ٦٨ : وميكرو فيلم رقم ٣٠ دفتر رقم ١٢٩ ص

٥٣.

٧٣- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦٨ .

٧٤- المرجع نفسه , ٦٨ .

75- Le docteur Shaw : op, cit., p.104 .

٧٦- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٦٧ .

77- Le docteur Shaw : op, cit., p. 35-36 .

٧٨- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٦٧ .

79- Boyer : op, cit., p. 191.

80- Boyer : op, cit., p. 191.

81- Venture de Paradis : op, cit., p. 297.

٨٢- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ١٩١ .

٨٣- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦٧ .

84- Venture de Paradis : op, cit., p. 121-122 .

٨٥- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦٩ .

86- Le docteur Shaw : op, cit., p. 112-113.

87- Venture de Paradis : op, cit., p. 123.

٨٨- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٦٩ .

89- Venture de Paradis : op, cit., p. 121.

٩٠- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٧٠ .

91- Boyer : op, cit., p. 155. voir aussi Venture de Paradis , p. 227.

92- Boyer : op, cit., p. 192.

93- Au capitaine , B.H. : Etude sur la caravane de la Mecque et de commerce de l'intérieur d'Afrique , Paris sans date , p. 4.

94- Julien, Charles André : Histoire de l'Algérie contemporaine , la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871 , Paris 1964 , p. 18.

٩٥- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ٣٩ .

96- Boyer : op, cit., p. 194.

97- Carette, E., : Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique et États barbaresques , Paris 1844 , p. 21-22. voir également Prax M. : L'Algérie , commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan , Paris 1849 , p. 29.

٩٨- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ٣٩ .

٩٩- المرجع نفسه , ص ٣٩ .

100- Boyer : op, cit., p. 194.

101-Amine, Mohamad : " conditions et mouvement des échanges de la régence d'Alger " , in Revue d'histoire ,aghebine n° 74 , mai – zaghuan Tunis 1994 , p. 37.

102- Venture de Paradis : op, cit., p. 124.

103- Venture de Paradis : op, cit., p. 125.

١٠٤- القفاز : هو وحدة قياس للحبوب . وكان يستخدم في عناية بدلاً من الصاع, وحدة القياس المتداولة في البلاد , والقفاز الواحد يساوي ١٥ كيلة في البايك و ١٤ في المناطق الأخرى .

105- Venture de Paradis : op, cit., p. 126.

106- Boyer : op, cit., p. 195.

107- Amine : op, cit., p. 39.

١٠٨- حمدان بن عثمان خوجة : المرجع نفسه , ص ٢٧٣.

109- Amine : op, cit., p. 39.

110- Juchereau S. D. : Considérations statistiques , historique , militaires et politiques sur la régence d'Alger , Paris 1831 , p. 86.

111- Shaler : op, cit., p. 92.

112- Venture de Paradis : op, cit., p. 134-135.

113- Amine : op, cit., p. 30.

114- Amine : op, cit., p. 32.

115- Amine : op, cit., p. 33.

116- Venture de Paradis : op, cit., p. 135.

117- Shaler : op, cit., p. 105.

118- Saidouni, Nasser al-Din : La vie rurale aux environs d'Alger à la fin de l'époque ottomane 1791-1830 , thèse de doctorat , à Aix- en Provence , France 1987-1988 , p. 625.

119- Saidouni : op, cit., p. 626.

١٢٠- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ٧٠.

١٢١- المرجع نفسه , ص ٨٩.

122- Feraud , F. : Notice historique sur la tribu des Oulad abd al-Nour , Constantine 1864, p. 54-122.

123- Feraud : op, cit., p.151.

124- Venture de Paradis : op, cit., p. 25.

١٢٥- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ٩٣.

١٢٦- المرجع نفسه , ص ٩٦-٩٧.

127- Robin , N. : " Note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande Kabylie " , R. A, n° 17 , 1873, p. 200.

١٢٨- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ٩٨.

129- Robin : op, cit., p. 200.

١٣٠- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٩٨.

١٣١- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ٩٩.

132- Hamdan ben Utoman Khoja : Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger , intitulé en arabe , le miroir, T. I, Paris 1833, p. 16.

133- Ben Jaloul : " La prise d'Alger en 1830 d'après un écrivain musulman d'Afrique , R. P. C., 1856, p. 72.

134- Rozet : op, cit., p. 396.

135- Venture de Paradis : op, cit., p. 242-250.

١٣٦- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ١٠١.

137- Aumerat, J. F, La propriété urbaine et le bureau de bienfaisance musulman d'Alger, Qlger 1900, p. 5.

138- Khoja : op, cit., p. 111-112.

١٣٩- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ١٠٤.

140- Julien : Histoire d'Alger ..., op, cit., p. 14.

141- Boyer : la vie quotidienne ..., op, cit., p. 251.

142- Le docteur Shaw : op, cit., p. 176.

١٤٣- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٥ .

144- Dan , P. : Histoire de la barbarie et de ses corsaires, des royaumes et des villes d'Alger , de Tunis , de salé et de Tripoli, deuxième édition , Paris 1637, p. 83.

١٤٥- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ١٠٧ .

146- Dapper , D.O.M. D : Description de l'Afrique, Amsterdam 1686, p. 178.

147- Lespes : Alger , esquisse de géographie urbaine , 2ème édition, Paris 1830 , p. 145.

148- Hamdan Khoja : op, cit., p. 120.

149- Grammont : op, cit., p. 361.

150- Dapper : op, cit., p. 178.

١٥١- سعيدوني : النظام المالي ... , ص ١١٣ .

152- Tamimi : op, cit., p. 207-237.

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية للجزائر في العهد العثماني

لدراسة الحياة الاجتماعية لابد لنا من معرفة عدد سكان إيالة الجزائر ، والطبقات الاجتماعية التي تشكل الهرم الاجتماعي الجزائري ، وعلاقات هذه الطبقات مع بعضها البعض ، ودورها في بناء المجتمع الجزائري ، وأثر ذلك على جميع نواحي الحياة في البلاد . إن دراسة الحياة الاجتماعية تساعدنا على فهم مظاهر الحياة العامة للجزائر وأثرها على حياة المجتمع الجزائري .

١ - عدد السكان :

تختلف روايات الرحالة والباحثين المتعلقة بتحديد عدد سكان إيالة الجزائر في العهد العثماني ، وتعطينا معلومات متضاربة حوله . فالقنصل الأمريكي سالر (Shaler) أعطى معلومات حول هذا العدد ، فقد قدر عدد سكان الإيالة بمليون نسمة ، وهناك تقديرات أخرى تقول : كان عدد سكان الإيالة عشرة ملايين نسمة ، نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه للغاية ، خاصة وأن الظروف التي كانت تعيشها الإيالة سواء كانت صحية أم حربية أم معيشية لا تسمح بقبول هذا العدد . وقد قدر عددا كبيرا من المؤرخين والكتاب الجزائريين عدد سكان الجزائر في أواخر العهد العثماني بثلاثة ملايين ونصف نسمة ، وهذا التقدير أقرب إلى الواقع . ومن هؤلاء بوتان (Boutin) وقد اتفق معه بعض المعاصرين مثل تشارل أندريه جوليان (Charles André Julien) ، أجيرون (Ageron) ، غاليسو (Gallissot) وغيرهم . وكانت غالبية سكان الإيالة تعيش في الأرياف ، بحيث لا يشكل سكان المدن إلا نسبة ضئيلة جداً حوالي ٥% من مجموع السكان الذين يقطنون في الإيالة ^(١) . بالمقابل تختلف نسبة سكان المدن ، من حيث الكثافة ، من

إقليم إلى آخر داخل الإيالة ، ففي بيلكية الغرب تصل إلى ٨% ، في حين وصلت في وسط الجزائر إلى ٦% ، وتنخفض إلى حوالي ٣% في بيلكية الشرق . وقد تناقص عدد سكان مدينة الجزائر (مقر الحكم التركي) في القرن الثامن عشر الميلادي بسبب الكوارث الطبيعية والأوبئة التي تحدثنا عنها سابقاً ، بحيث لم يكن سكان المدينة يتجاوزون خمسين ألف نسمة ، وذلك بعد أن كان عددهم يصل إلى ١٣٠ ألف نسمة في القرن السابع عشر الميلادي موزعين على خمسة عشر ألف منزلاً^(٢) ، في حين كان عدد سكان مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي موزعين على خمسة آلاف منزل ، منها مئة وثمانون للطائفة اليهودية وكانوا موزعين على النحو التالي :

- ١- ثلاثة آلاف تركي من المشرق .
- ٢- ستة آلاف من القولوغلية ، وهم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات .
- ٣- اثنان وثلاثون ألفاً من سكان البلاد الأصليين^(٣) .
- ٤- سبعة آلاف يهودي .
- ٥- ألفان من الأسرى الأوربيين .

جاء الاحتلال الفرنسي ليزيد الأحوال سوءاً ، الأمر الذي دفع سكان المدن الرئيسية في الإيالة إلى الهجرة إلى الأرياف ، فقد انخفض عدد سكان مدينة الجزائر إلى خمسة وعشرين ألفاً . أما مدن الإيالة الأخرى لم يكن وضعها أفضل من عاصمة الإيالة ، فكان عدد سكان قسنطينة ٢٥ ألف نسمة ، تلمسان ١٤ ألف نسمة ، و ١٠ آلاف نسمة لكل من مدينتي وهران ومعسكر .

وهكذا نرى أن سكان المدن والأرياف الجزائرية كان يتزايد ويتناقص تبعاً للظروف السياسية والحربية في الإيالة ، ولا ننسى كذلك الظروف الطبيعية والكوارث والأمراض التي أنهكت قوة البلاد الاقتصادية ، وسببت عدداً كبيراً من الوفيات بين السكان . الأمر الذي انعكس على النشاط الاقتصادي في جميع

أنحاء البلاد سواء أكان في المدن " حرف " أم في الأرياف " الأعمال الزراعية".
يضاف إلى ذلك عدم اتخاذ السلطة الحاكمة أي إجراء يخفف الوطأة على
رعاياها، وبشكل خاص في سنوات الرخاء التي تخللت الكوارث أو أعقبتها .

١- التنظيم الاجتماعي لسكان المدن :

اتخذ هذا التنظيم في مجتمع مدينة الجزائر شكلاً هرمياً قسم فيه السكان
إلى طبقات اجتماعية ، وذلك حسب النفوذ والسلطة من جهة ، وحسب الجاه
والثروة من جهة أخرى ، وكان السلم الاجتماعي لإيالة الجزائر في العهد
العثماني يضم للفئات الاجتماعية التالية :

١- الطبقة التركية الحاكمة :

كانت هذه الفئة تحتل أعلى مرتبة في السلم الاجتماعي على المستويين
العسكري والمدني ، ولم يتجاوز عدد أفراد هذه الفئة ، حسب التقديرات المتوفرة ،
عشرين ألف نسمة (٤) ، وكانت هذه الفئة منعزلة ، كما هو الحال في جميع
الأقاليم العربية التي خضعت للسيطرة العثمانية ، عن سكان البلاد الأصليين ،
وتعود عزلتها إلى الأسباب التالية :

أ- رغبة الأتراك في المحافظة على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم التي جاؤوا فيها
من الأناضول ، وذلك أثناء قنومهم كعساكر إلى إيالة الجزائر بدءاً من أوائل
القرن السادس عشر الميلادي .

ب- رغبة العنصر التركي بالسيطرة على المناصب الحكومية العليا العسكرية
والمدنية (٥).

ج- النظرة الفوقية التي كان ينظر فيها الأتراك إلى شعوب البلاد المحتلة من
قبلهم سواء أكان ذلك في الأقاليم العربية الشرقية أم الغربية .

ولكي يحافظ الأتراك على وضعهم الاجتماعي كانوا يستقدمون ، بين
الحين والآخر ، جماعات من الأناضول للعمل في فرق الجيش ، وبسبب سياسة

العزلة والنظرة الفوقية لهذه الفئة التركية الحاكمة أصبحت علاقاتها مع بقية فئات المجتمع الجزائري تتصف بالعدائية والكراهية المتبادلة ، فهابو (Haëdo) الذي كان أحد الأسرى الأوربيين في سجون الجزائر ، وكان يعيش أحداث الإيالة يوماً بيوم (كان شاهد عيان) ، حيث وصف لنا في كتابه عن إيالة الجزائر ، العلاقة بين الفئة الحاكمة والفئة المحكومة بقوله : " لا يوجد في الامبراطورية العثمانية علاقة أسوأ من علاقة الترك بالعرب في مملكة الجزائر " (١) .

ويمكننا أن نلخص نتائج هذه العلاقة السيئة في النقاط التالية:

- ١- إبعاد السكان الأصليين عن المساهمة في المناصب الحكومية العسكرية والمدنية .
- ٢- عدم اندماج العنصر التركي مع السكان الأصليين على عكس ما حدث في تونس في عهد الأسرة الحسينية .
- ٣- حدوث بعض التقارب بين الأتراك وأبدانهم من أمهات جزائريات (الكراغلة) في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، والسماح لهذه الفئة باستلام بعض المناصب المدنية والعسكرية العليا في الإيالة .
- ٤- السماح للكراغلة وفرق من قبيلة زواوة الأمازيغية في القضاء على عصيان الانكشارية ، وذلك في عهد الداي علي خوجة في عام ١٨١٧م (٢) . وقد تشكلت الأقلية التركية في غالبيتها من الجنود الأتراك الذين قدموا إلى الجزائر ، وسجلوا في دفاتر الانكشارية ويعرفون باسم الليولداش . وكان يوجد في مدينة الجزائر وحدها ٤٢٤ أوجاق يضم كل منها بين ١١-٣٠ رجلاً (٣) . إن هؤلاء الجنود كانوا يتوزعون على حاميات المدن ، ونظراً إلى قلة عدد أفراد هذه الفئة الحاكمة وانعزالها عن باقي فئات المجتمع الذي تعيش فيه ، لم تفلح التركيبة الجغرافية في بنية مجتمع إيالة الجزائر وخاصة في المدن ،

ولا في طريقة الحياة وأسلوب المعيشة . على الرغم من بقائها في الجزائر حوالي ثلاثة قرون ونصف .

٢- طبقة الكراغلة (القولوغلية) :

تأتي هذه الفئة في المرتبة الثانية من حيث الأهمية - على الرغم من حرمانها لكثير من الحقوق والواجبات في المناصب الحكومية العليا بقسميها العسكري والمدني - في السلم الاجتماعي . وتكونت هذه الفئة نتيجة الزواج الحاصل بين الأتراك والنساء الجزائريات ، وظهرت هذه الفئة للمرة الأولى في المدن التي تقيم فيها الحاميات التركية وهي : الجزائر ، تلمسان ، معسكر ، بني راشد ، مستغانم ، مازونة ، مليانة ، المدية ، البليدة ، القليعة ، بسكرة ، قسنطينة وعنابة . تكاثرت عدد أفراد هذه الفئة مع مرور السنين حتى وصل إلى ٦٠٠٠ نسمة في مدينة الجزائر وحدها ، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي^(٩) . ثم تزايد عدد أفراد الكراغلة إلى أن وصلوا إلى حوالي ٩٠٠٠ نسمة في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي ، وذلك في وقت تعرضت فيه الإيالة لانهيار ديمغرافي مريع ، لكن كان عدد أفراد هذه الفئة عشية الاحتلال الفرنسي ٤٠٠٠ نسمة في مدينة الجزائر وحدها ، و٢٠٠٠٠ نسمة في كل أنحاء البلاد^(١٠) ، حسب تقديرات سلطات الاحتلال ، التي نستشهد بها كمصدر أساسي في كثير من الإحصائيات لعدم وجود مصادر محلية تتحدث عن ذلك ، أو أنها أثقلت مع دخول قوات الاحتلال ، ولم يبق أماناً إلا ما كتبه كتاب ومؤرخو الاحتلال عن إيالة الجزائر وخاصة في بعض القضايا الدقيقة . وأصبح أفراد هذه الفئة يلعبون دوراً أساسياً في مجتمع مدينة تلمسان ، وذلك عندما أصبحوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان هذه المدينة^(١١) . وبالرغم من أصلهم التركي فإنهم لم يكونوا مرغوبين من قبل السلطة الحاكمة التي حاربتهم

بإبعادهم عن المناصب الكبرى ، لخوفها من سيطرتهم على شؤون البلاد بحكم قرايئهم من الأهالي ، والخوف من تشكيل حلف وطني يهدد السلطة الحاكمة وامتيازاتها .

بدأت العلاقة بين هذه الفئة والسلطة الحاكمة بالتوتر منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي وبالتحديد عام ١٥٩٦م ، واشتد التنافس بين الفئتين حتى انتهى عام ١٦٢٩م إلى صدام مسلح ، وذلك عندما حاول عناصر من فئة الكراغلة الحد من نفوذ الأتراك والسيطرة على مقاليد الحكم محليهم ، بعد حصولهم على المساعدة من قبائل زواوة العاملة في الجيش التركي .

تدبى الأتراك إلى مؤامرة الكراغلة عن طريق جواسيسهم من بني مزاب ، الأمر الذي أدى بالنهاية إلى اكتشاف خطة الكراغلة ، وتمكنت السلطة الحاكمة من القضاء على تمردهم في ١٢ أيار ١٦٢٩م ، ولقي الكثير من عناصر الكراغلة مصرعهم ، والتجأت جماعة منهم في عهد عيدي باشا إلى وادي الزيتون بعد أن صودرت أملاكها وثرواتها ، وعملوا بالزراعة وشكلوا طبقة مستقلة ظلت معزولة عن سكان المنطقة التي سكنوا فيها (١٢) .

لم تستطع السلطة الحاكمة على الرغم من المذابح التي ارتكبتها بحق للقولوغلية ، الحد من شوكتهم إلا بعد أن سمح لهم الداي شعبان أغا (١٦٦١ - ١٦٦٥م) بالانضمام إلى الأوجاق (١٣) .

تمكن بعض القولوغلية من الوصول إلى المناصب الرفيعة في إيالة الجزائر ، فقد تولى على بايلك الغرب مصطفى العمر بين عامي ١٦٣٦ - ١٦٤٨م ، والكرغلي محمد النباح على بايلك التيطري بين عامي ١٦٠٨ - ١٦٧١م ، وعلى بايلك الشرق الباي أحمد بين ١٨٢٦ - ١٨٣٧م . وأدت سياسة التقارب بين القولوغلية والسلطة الحاكمة إلى نقمة الأهالي على القولوغلية ، وأصبح الجزائري ينظر إليهم نظرة حقدهم مثلهم في ذلك مثل السادة الأتراك

المسيطرين على مقاليد السلطة في البلاد . وبلغ التحالف بين الكراغلة والسلطة الحاكمة ذروته ، وذلك عندما استعان الداي علي خوجة بهذه الفئة و ببعض من فرق زواوة من أجل قمع ثورة الانكشارية في عام ١٨١٧م . حيث تمكنت هذه الفئة بالتعاون مع زواوة من القضاء على ١٢٠٠ انكشاري . ومن بينهم ١٥٠ ضابطاً من صف البلوكباشي والأوضاباشي^(١٠) .

٣- طبقة الحضر (المغاربة أو البلديين) :

تتألف هذه الطبقة المتعارف عليها بالتسمية الشعبية " البلدية " (بمعنى سكان البلاد الأصليين قبل وصول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر) من مجموعات السكان القاطنة في المدن الجزائرية التي تعود أصولها إلى الفترة الإسلامية . كان لهذه الطبقة عادات وتقاليد اجتماعية خاصة بها ، وكانت طبقة ميسورة الحال يعمل أبناؤها في مختلف المهن الصناعية ، وكانوا يتولون وظائف في السلك القضائي والتعليمي ، ومن بين أفرادها العلماء والفقهاء (١٥) .

شكلت طبقة الحضر غالبية سكان مدن إيالة الجزائر في العهد العثماني ، ففي مدينة الجزائر كان عدد أفراد هذه الطبقة ما بين ٦٠-٦٥% من مجموع سكان المدينة ، فالرحالة الفرنسي فاننور دو بارادي (Venture de Paradis) قدر عدد أفراد هذه الفئة في مدينة الجزائر ب ٣٢ ألف نسمة من مجموع السكان الكلي للمدينة البالغ ٥٠ ألف نسمة في القرن الثامن عشر الميلادي ، في حين قدر روزيه (Rozet) وهو رحالة فرنسي آخر عدد أفراد هذه الفئة ب ١٨ ألف نسمة من المجموع العام لمدينة الجزائر والبالغ ٣٠ ألف نسمة حسب تقديره في القرن الثامن عشر الميلادي^(١١) .

انضم إلى طبقة الحضر بعض الأندلسيين المهاجرين من إسبانيا ، بسبب قرارات الحكومة الإسبانية المتعلقة بطرد العرب المسلمين في عام ١٦١٠م . وكانت طبقة الحضر تعمل في التجارة والصناعة والحرف اليدوية ، ولم يكن لها

طموح بالمناصب السياسية بشكل عام ، وهذا لم يمنع من وصول بعض أفرادها إلى المناصب الهامة ؛ وخاصة في مجال الإفتاء والقضاء الشرعي . ولعبت هذه الطبقة دوراً هاماً في المجتمع الجزائري ، وذلك كونها كانت تشكل قاعدة اقتصادية هامة في البلاد بسبب نشاطها الاقتصادي الذي أدى إلى تجمع الثروة بيد أبنائها .

٤- طبقة الأندلسيين^(٢):

كانت هذه الطبقة من أهم العناصر الحضرية التي تسكن المدن في إيالة الجزائر ، وكانوا على صلة ومعرفة بالبلاد الجزائرية منذ الفترة الإسلامية ، وقد تكاثروا الأندلسيون مع وصول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر وتشجيعهم للجهاد البحري ضد الدول الأوربية خاصة إسبانيا في البداية التي طردت العرب المسلمين ، وأصبحت هذه الطبقة تؤلف نسبة كبيرة من سكان المدن الساحلية إثر صدور قرارات الطرد الجماعي للعرب المسلمين ، وقد تميزت السنوات ١٦٦٧ - ١٦٧٠م بوصول أعداد كبيرة من الأندلسيين إلى سواحل المدن الجزائرية ، حيث بلغ عددهم في مدينة الجزائر وحدها ، حسب إحصائيات ناصر الدين سعيدوني حوالي ٢٥ ألف نسمة^(١٧) في حين قدر هايدو (Haëdo) عدد منازلهم في عام ١٥٧٠م بحوالي ألف منزل ، وعدد سكانها التقريبي حوالي ٤٢٠٠ ، وذلك في حال اعتبرنا أن العائلة تتألف من أربعة أفراد أحياناً^(١٨) . وعمل أفراد هذه الطبقة في مهن ووظائف متنوعة ، إذ نجد منهم الرياس البحريين ، وملأك وتجار العقارات ، التجار ، الفقهاء ، وكذلك مسؤولين عن مؤسسات المياه المختلفة الموجودة في مدن الإيالة^(١٩) .

اندمجت طبقة الأندلس بالسكان الأصليين واعتبرت جزءاً منهم بشكل تام ، وذلك اعتباراً من القرن الثامن عشر الميلادي ، وبدل على ذلك عقود الأوقاف المسجلة باسم هذه الطبقة ، التي كانت تشكل جماعة مستقلة تحمل اسم جماعة

الأندلس ، وكان لها في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ستة أوقاف مؤرخة باسمها في نهاية عام ١٧٢٠م (٢٠) . ولعب الأندلسيون بنشاطهم وثرواتهم التي نقلوها معهم إلى المدن الجزائرية بعد طردهم من إسبانيا ، أو حصلوا عليها من الأعمال التجارية أو النشاط البحري (القرصنة) التي قاموا فيها ، دوراً هاماً في إعادة نهوض المدن الجزائرية من أنقاضها والعمل على إحيائها ، وذلك بعد أن كانت على شفير الهاوية والزوال مثل بعض المدن الساحلية كشرشال ، البليدة والقلعة وغيرها من المدن الأخرى .

كما لعب أفراد طائفة الأندلس دوراً هاماً في تطوير القطاع الزراعي في إيالة الجزائر ، حيث أدخلو مزروعات جديدة عرفتها إيالة الجزائر لأول مرة مثل : القطن الذي زرع في مستغانم ، والعناب الذي زرع في عنابة ، وكذلك تربية دودة القز وإنتاج الحرير الطبيعي في مدينة القليعة (٢١).

٥- طبقة الأشراف :

تتنسب هذه الطبقة إلى آل البيت ، وهي قليلة العدد إذا ما قورنت مع طبقات مجتمع مدينة الجزائر بصورة عامة ، وطبقة البلديين خاصة . تتألف هذه الطبقة من ٢٠٠-٣٠٠ أسرة فقط (٢٢) ، وكانت تتمتع برعاية واحترام العامة وحكام الجزائر العثمانيين الذين أوقفوا لهذه الجماعة الوقف ، وأسسوا لها زاوية خاصة فيها عام ١٧٠٩ م عرفت بزاوية الأشراف . وأصبحت هذه الزاوية مع الزمن تمتلك أوقافاً كثيرة إلا أنها تعرضت للمصادرة كغيرها من أوقاف إيالة الجزائر ، وذلك من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي في عام ١٨٣٢م ، وقد اندمج أغلب أفراد هذه الجماعة بطبقة الحضر ، التي تشكل ، كما ذكرنا سابقاً ، مع جماعة الأندلس وسكان البلاد الأصليين الغالبية العظمى من سكان إيالة الجزائر العثمانية .

٦- البرانية :

تطلق هذه التسمية على الجماعات السكانية التي هاجرت من الأرياف إلى المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة وتلمسان وغيرها بقصد العمل والإقامة . وفرض - الوضع الاجتماعي ونوعية النشاط الاقتصادي في المدن - على هذه الجماعات أن تنظم نفسها حسب أصولها ومواطنها الأولى ، وقد اختلفت كل جماعة بعمل معين ضمن المدن التي هاجرت إليها وتحت إشراف أمينها الذي يختاره البايك ، وكان يقع على عاتق أمين كل جماعة القيام بتنظيم أمورهما ، وبشكل خاص فيما يتعلق بأمور الشرطة والقضايا العدلية (٢٣) .

إن كلمة براني " أجنبي " أخذت في الجزائر معنى إدارياً تدل على هؤلاء السكان الذين قدموا من الأرياف ودخلوا إلى المدن الجزائرية دون أن يكونوا مواطنين من سكان هذه المدن . إن الغالبية العظمى من جماعة البرانية المقيمين في مدينة الجزائر كانت مقتصرة على الرجال ، بحيث كان محرماً على نساء هذه الجماعة ، وخاصة أهل المزاب الانتقال مع أزواجهن ، بالمقابل كان الرجال يعودون إلى بلدتهم الأصلي مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث سنوات (٢٤) . وفي الوقت الذي كانت توصف طبقة الحضر (البلديين) بالبرجوازية ، فإن طبقة البرانية وبشكل خاص جماعة بسكرة كانوا يوصفون بطبقة عمال الجزائر (٢٥) .

تصنف طبقة البرانية إلى الجماعات التي تنتمي إليها والقائمة من مناطق الجزائر المختلفة ، وكانت كل جماعة تحمل اسم المنطقة القادمة منها ، ولإعطاء فكرة واضحة عن هذه الطبقة المهاجرة داخلياً من الأرياف إلى مدن الإيالة ، نقسم الطبقة إلى الجماعات التالية :

أ- جماعة بني ميزاب :

ينتسب إلى هذه الجماعة سكان قرى وادي ميزاب ، مناطق الشعانبة ، ورقلة والقرارة ، وكان لهذه الجماعة أمين خاص مسؤول عنها وعن أعمالها . احتكرت هذه الجماعة مطاحن الحبوب والمخابز في المدن وبشكل خاص مدينة

الجزائر ، ولوكل إليها أيضاً الإشراف على الحمامات وعلى مزارع الحيوانات ونحبها^(٢٦) . بالإضافة إلى هذه المهام كان بعض أفرادها يعمل في الحوانيت الخاصة بإنتاج وبيع الفحم والفواكه وبعض المقاهي^(٢٧) .

نالت جماعة بني ميزاب وأمينهم ثقة الطبقة الحاكمة العثمانية في إيالة الجزائر ، وقد تزايد عددها حتى وصل في مدينة الجزائر وحدها ، في بداية القرن التاسع عشر الميلادي إلى ألف نسمة ، وكان لأمينها راتب سنوي قدره ٤٥٠ ريال بوجو ، بالإضافة إلى المكافأة التي كان يحصل عليها من جماعته القاطنة في المدن التالية: البليدة ، قسنطينة ، بسكرة ، وهران ، ويضاف إلى ذلك الضرائب التي كان يفرضها على جماعته وعلى عملهم في الأسواق ، حتى أصبح يضاهي بالتغنى باي التيطري .

ب- جماعة البساكرة :

قُسمت هذه الجماعة إلى المدن الكبرى من مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوغرت طلباً للعيش ، وعمل أفراد هذه الجماعة في بعض المهن المتواضعة مثل : حراس لبليين ، حمل السلع والبضائع كالفحم والحطب والحبوب ، العمل في الورشات البحرية . وكان معظم أفراد الجماعة نظراً لفقرهم المدقع ينامون على قارعة الطريق أمام الحوانيت^(٢٨) ، وكان يدير أمورها أمين خاص يعرف لدى العامة بالبسكري سيدنا . وعلى الرغم من لباسه المتواضع ؛ إلا أنه كان يحظى بنفوذ قوي لدى الحكام ، وكان يتقاضى لقاء إشرافه على جماعته ١٤ خبزة في اليوم ، قلة زيت ، وكيسين من الحبوب ، وأربعة أمتار من القماش كل شهرين ، كما كان يتقاضى من كل بسكري قادم إلى مدينة الجزائر (وعلى شكل ضريبة) مبلغاً قدره ٥٠ بوجو سنوياً^(٢٩) .

ج- جماعة الجيجلية :

قدمت هذه الجماعة ، كما يبدو من التسمية ، من مدينة جيجيل ، وكانت هناك علاقة تربط أهل جيجيل بالأثراك منذ أيام عروج وخير الدين عندما استقروا في الجزائر وأعلنوا تبعيتهم للدولة العثمانية . تجلت هذه العلاقة عندما طلب خير الدين مساعدتهم للقضاء على ثورة ابن القاضي ، وتبع هذه الخطوة ، في السنوات التي تلت ذلك ، حصول أهالي جيجيل على حظوة ودعم حكام إيالة الجزائر من الأثراك ، وساعد الكثير منهم في القدوم إلى مدينة الجزائر ، والحصول على عمل، الأمر الذي مكّنهم بالتالي من جمع ثروة كبيرة ، وتجلي ذلك من لباسهم المميز عن سكان المدينة والسماح لهم بحمل سلاح كان محرماً على غيرهم من أهل المدينة الأصليين . وكان لباسهم موشى بالذهب الذي كان غير مسموح بحمله لدى فئات أخرى من سكان المدينة ، وكلفت الدولة الجماعة الجيجيلية بالعمل بأفران الخبز التابعة للبايك التي كانت تخبز للعساكر والأسرى الأوربيين (٣٠) ، بحيث أصبحت هذه المنشآت حكرًا على أفراد هذه الجماعة الغربية أصلاً عن سكان المدينة .

د- جماعة الأغواط :

يرجع أصل هذه الجماعة إلى مدينة الأغواط ، الواقعة بالصحراء بالقرب من مدينة بسكرة ، وإلى قبيلتي الزناجرة وأولاد نائل ، وكلها تقع جنوب إيالة الجزائر على أطراف الصحراء . كان أفراد هذه الجماعة يقومون بأعمال متواضعة في المدينة مثل : التنظيف ونقل البضائع للتجار والسكان ، والعمل في أسواق مدينة الجزائر وغيرها من الأعمال البسيطة .

هـ- جماعة القبائل :

جاء أغلب أفراد هذه الجماعة من المناطق الجبلية القريبة من مدن : الجزائر , تلمسان , البلدية , المدية وقسنطينة , وعملوا بالمهن الحرة والأعمال الزراعية في ضواحي هذه المدن (٣١) . ينتسب معظم أفراد جماعة القبائل في مدينة الجزائر إلى قبائل فليسة وزواوة (جرجرة) , وكانت هذه القبائل مستقلة عن السلطة الحاكمة ولا تدفع لها أية ضريبة أو أتاوة . كان سكان قبائل زواوة يشكلون ٣٠٠ قرية , وتمتد مساكن قبائل فليسة من مدينة دلس حتى مدينة القال , لكن أفراد هذه القبائل جاءت إلى المدن وخاصة مدينة الجزائر للعمل فيها . شكل أفراد هذه القبائل جماعة خاصة بهم لها امتيازات معينة حصلت عليها من السلطة الحاكمة مثل السماح لأفرادها بالعمل في الحراسة الليلية , وفي ورشات صناعة السفن ودكاكين بيع الزيت (٣٢) . وبلغ عدد سكان قبيلة جرجرة في بداية القرن التاسع عشر الميلادي أربعة آلاف نسمة في مدينة الجزائر وحدها , وعلى الرغم من الظروف الصحية السيئة التي تعرضت لها إيالة الجزائر عامة , والعاصمة بشكل خاص , فإن عدد أفراد جماعة القبائل بلغ عشية الاحتلال الفرنسي حوالي ٣٥٠٠ نسمة . لكنه انخفض إلى ألف نسمة في السنة الأولى للاحتلال بسبب عودة القسم الأكبر من أفراد هذه الجماعة إلى مواطنها الأصلية .

و- جماعة الزنوج :

يرجع أصل هذه الجماعة إلى البلاد الواقعة جنوب صحراء الجزائر والتي يطلق عليها اسم إفريقية السوداء , وقد بلغ عدد أفرادها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ما بين ٢٠٠٠ - ٣٥٠٠ نسمة (٣٣) .

كانت تجارة هؤلاء العبيد مربحة , وكان يؤتى بهم إلى المدن الجزائرية للخدمة والقيام بأعمال الغسيل والتنظيف , وكان عدد كبير من نساء هذه الجماعة

يمارس البغاء ^(٣٤) . ويعمل في منازل الأتراك والسكان الأصليين الميسورين , وقد قدر عدد أفراد هذه الجماعة الذين كانوا يصلون إلى مدينة الجزائر سنوياً في بداية القرن التاسع عشر الميلادي بين ١٥٠-٥٠٠ شخص , وكان ثمن العبد يتراوح وسطياً مابين ٣٠٠-٥٠٠ ريال بوجو جزائري , والأطفال ٨٠ ريال بوجو ^(٣٥) .

ونلاحظ أن أفراد الجماعات البرانية كانوا ينزحون بكثرة إلى المدن الجزائرية الكبرى , وذلك عندما يعم الرخاء وتتوفر فرص العمل , وتجلى ذلك بوضوح , وبشكل خاص , في الفترة الأولى من الاحتلال العثماني , حيث ارتفع عدد أفراد هذه الجماعات إلى أن وصل إلى اثني عشر ألف نسمة , وعلى العكس من ذلك نرى عددهم كان يتناقص زمن الأزمات الاقتصادية التي كانت تؤثر على جميع السكان دون استثناء سواء كانوا أغنياء أم فقراء .

كان أفراد الجماعات البرانية يقاسون شظف العيش في سبيل الحصول على لقمتهم , وكان البعض منهم ينام في الشوارع أو أمام المحلات التجارية , فهذه الجماعات التي انتقلت إلى المدن وتركزت مناطقها الأصلية لتأمين لقمة العيش , اصطدمت بظروف اقتصادية صعبة أحياناً مما دفعها إلى العودة إلى مواطنها الأصلية .

٧- اليهود :

تشكل الطائفة اليهودية أحد أهم العناصر البشرية المهمة في المدن الجزائرية الكبرى في تركيبة المجتمع , ويرجع أصل هذه الطائفة إلى السكان المحليين الذين اعتنقوا اليهودية , والذين استقروا في الجزائر قبل وصول المسلمين إليها , بالإضافة إلى اليهود الإسبان الذين طردوا مع العرب المسلمين من إسبانيا منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي ^(٣٦) , يضاف إلى ذلك من انضم إلى هذه الطائفة من يهود ليفورن

القادمين من موانئ المدن الإيطالية بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وذلك لممارسة التجارة والإتجار بغنائم النشاط البحري الجزائري (القرصنة)، وعقد صفقات تجارية كبيرة ومربحة بين الدول الأوروبية وحكومة الجزائر، بمعنى آخر قيامهم بدور الوسيط بين الطرفين الأوربي والجزائري . وعلى الرغم من قدم هذه الطائفة في الجزائر إلا إنها كانت تصنف في أسفل السلم الاجتماعي . وكان اليهود يعاملون من قبل السكان المحليين كأهل كتاب" ذمي^(٣٧) .

بلغ عدد أفراد هذه الطائفة في القرن السادس عشر الميلادي في مدينة الجزائر وحدها حوالي ٥٠٠٠ نسمة . وقد تزايد هذا العدد حتى وصل إلى ١٠٠٠٠ نسمة في منتصف القرن السابع عشر للميلادي من مجموع سكان مدينة الجزائر . وكان عدد أفراد هذه الطائفة عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر ٥٠٠٠ نسمة . وذلك في الوقت الذي كان فيه مجموع أبناء الطائفة اليهودية كلها في إيالة الجزائر حوالي ٣٠٠٠٠ نسمة^(٣٨) .

كان لهذه الطائفة في مدينة الجزائر ، كغيرها من المدن العربية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية ، حي خاص يسمى حي اليهود ، وكان أغلب أفراد هذه الطائفة يعملون في مهنتي الصياغة والتجارة . مما أدى بالنتيجة إلى تراكم الثروة في أيديهم.

لكن هل كان جميع أفراد هذه الطائفة أغنياء ويعملون في التجارة أو غيرها من المهن المربحة ؟ أو أن ثورات الأهالي ضد اليهود، وخاصة ثورات عام ١٨٠١م، ١٨٠٤م، ١٨٠٥م، ١٨١٥م، كانت حقدًا على السلطة الحاكمة التي اعتمدت على اليهود كوسطاء تجاريين مع الدول الأوروبية وليس على السكان المسلمين ؟ أو أن ذلك كان سياسة عثمانية خبيثة هدفها إضعاف طوائف المجتمع الجزائري عن طريق بث الفرقة بينها ؟ على أية حال يبقى أبناء هذه

الطائفة جزءاً من النسيج الاجتماعي لإيالة الجزائر، وأي خطر أو فتنة داخلية يؤثر على استقرار السلطة الحاكمة .

٨- الأجانب والأسرى الأوروبيين :

يتمثل الأجانب المقيمون في مدن الإيالة الجزائرية - وخاصة في مدينة الجزائر مركز الإيالة - بالتجار والقناصل الأوروبيين وعائلاتهم ورجال البعثات التبشيرية (٣٩) ، بالإضافة إلى الأسرى الأوروبيين الذين كانوا يخطفون من سواحل الدول الأوروبية عن طريق رجال البحرية الجزائرية .

كان هؤلاء الأسرى يشكلون الغالبية العظمى بين الأجانب المقيمين في المجتمع الجزائري عامة ، وفي مجتمع مركز الإيالة بصورة خاصة .

يعتبر القرن السابع عشر الميلادي العصر الذهبي للنشاط البحري الجزائري (القرصنة) ، فقد امتدت هجماتهم إلى سواحل أوربة الشمالية والبرازيل والأرض الجديدة ، بعد أن كانت تقتصر في القرن السادس عشر الميلادي على البحر المتوسط ، ويقدر عدد الأسرى الأوروبيين في السجون الجزائرية بين عامي ١٦٢١-١٦٣٧م بنحو ٢٥ ألف أسير ، وقدرت الغنائم التي حصلت عليها البحرية الجزائرية نتيجة هذه الهجمات بحوالي ثلاثة ملايين جنيه (٤٠) .

أما ما يخص أعمال هؤلاء الأسرى فقد كلفوا بمهام مختلفة مثل : العمل في ورشات بناء السفن ، ومقالع الحجارة ، ومصانع الأسلحة ، وقد عمل عدد منهم كمجدفين على السفن الجزائرية بحكم خبرتهم البحرية ، وهناك عدد منهم كان يعمل في البساتين وخدمة المقاهي والمنازل والحانات (٤١) .

كما وصل عدداً منهم إلى بعض المناصب العالية في حكومة الجزائر العثمانية وعلى سبيل المثال : العنج علي أصبح على رأس الحكومة ، وكان آخر وأقوى حاكم عثماني في إيالة الجزائر في مرحلة البكربيك .

وقد تناقص عدد الأسرى الأوروبيين في السجون الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي لأسباب عديدة أهمها :

- ١- ازدياد الهجمات الأوروبية المنظمة ضد السواحل الجزائرية .
- ٢- ضعف البحرية الجزائرية وعدم تطوير صناعة السفن .
- ٣- الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها إيالة الجزائر عامة، ومدينة الجزائر خاصة.
- ٤- الصراع بين طائفة الرباس والانكشارية على السلطة ، وما نتج عنه من إهمال للتحصينات البحرية ، والعجز عن مهاجمة السواحل والسفن الأوروبية .
- ٥- ظهور بعض التحالفات الأوروبية للحد من الهجمات الجزائرية ضد سواحل دولهم وسفنهم ، وانتقالهم من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم .

ونتيجة لهذه الأسباب مجتمعة تناقص عدد الأسرى بحيث لم يتجاوزوا في الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي أكثر من عشرة آلاف أسير، واستمر هذا العدد بالتناقص حتى اضطرت الحكومة الجزائرية إلى إطلاق سراح الأسرى الأوروبيين بعد حملة اللورد إكسموث الإنكليزي ضد الجزائر عام ١٨١٦م ، ولم يكن في سجون الإيالة الجزائرية إلا عشرون سجيناً عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر وإعلان نهاية العهد العثماني .

أما القناصل ومبعوثو الدول الأوروبية وممثلو الشركات والوكالات التجارية، فكانوا يعيشون منعزلين عن باقي السكان ، ولا يخضعون للأحكام المالية والقضائية والقوانين التي يخضع لها بقية سكان البلاد .

كان ممثلو الدول الأوروبية يقيمون في حي باب الواد أو في حي باب عزون ، أو كانوا يختارون منازلهم على المرتفعات المشرفة على مدينة الجزائر، وغيرها من مدن الإيالة الجزائرية التي يقطنون فيها .

٣- سكان الأرياف :

يشكل سكان الأرياف الجزائرية حوالي ٩٥% من مجموع سكان إيالة الجزائر في العهد العثماني . ويمكننا تصنيفهم حسب علاقاتهم مع السلطة الحاكمة ومع بعضهم بعضاً ، ووفق طريقة تنظيمهم وحياتهم المعيشية إلى الفئات الاجتماعية التالية :

١- قبائل المخزن (سكان متعاونون) :

كانت هذه الفئة من السكان متعاونة مع السلطة الحاكمة . وتشكل مجموعات سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية لما تقوم به من أعمال وتؤديه من أدوار ، ولا يعود أصل هذه القبائل إلى لون اجتماعي واحد أو طائفة بحد ذاتها ، فنجد بين هذه القبائل العبيد ، الكراغلة ، عرب الصحراء وسكان الهضاب والجبال .

لعبت قبائل المخزن دور حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة في المدن والسكان في الأرياف حسب ما تقتضيه مصالحها وتعاونها مع السلطة الحاكمة . إن التحالف وإسناد المهام الإدارية والعسكرية لقبائل المخزن يرجع في المغرب العربي إلى أيام الموحدين ، ومن بعدهم الزيانيون في تلمسان ، وبنو حفص في تونس وبجاية ، وحافظ الأتراك على هذا النوع من القبائل ، وذلك خدمة لهم ولسياساتهم تجاه الرعية التي يحكمونها (١٢) . ودعم الأتراك هذه القبائل وقربوها إليهم ، ولوكلوا إليها مهام إدارية وعسكرية من أجل مصلحتهم بالدرجة الأولى ، ويمكننا أن نلخص المهام التي أوكلت إلى هذه القبائل بالنقاط التالية :

- أ- العمل على جمع الضرائب من سكان الأرياف الذين يرفضون دفعها .
- ب- تزويد الإيالة بقوة عسكرية ضاربة بلغ عددها في بعض الأحيان ٣٠٠٠٠ ألف عسكري منهم ١٥٠٠٠ محارب وفارس ، وكانوا ينتمون إلى قبائل

المخزن التالية : الدواير ، الزمول ، العزارة ، الزمالة ، العبيد الزواننة .

ج- منع القبائل الصحراوية والجبلية من الاعتداء على أراضي البايك .

د- مشاركة قوات البايك في الحملات الصيفية التي تخرج لإخضاع القبائل

العاصية وإجبارها على دفع ما يترتب عليها من ضرائب .

أما الحقوق التي كانت تستفيد منها هذه القبائل يمكن تلخيصها في النقاط

التالية :

١- التمتع بالأمن والحماية من قبل سلطات البايك .

٢- إعفاء هذه القبائل من الضرائب كاللزمة والغرامة والحكر ، وغيرها من

مطالب المخزن التي تفرض على الرعية .

٣- اكتفاء السلطة ببعض الضرائب التي تدفعها قبائل المخزن ، والتي لم تكن

تتعدى حصاناً واحداً وبعض الخراف سلوياً .

٤- مساعدة قبائل المخزن بالمنح والتجهيزات العسكرية من أسلحة وعتاد

ومؤونة مجاناً .

٢- قبائل الرعية (سكان خاضعون) :

كانت هذه القبائل خاضعة مباشرة للسلطة العثمانية الحاكمة في البلاد ،

وتشكل مجموعات سكانية مقيمة بالدواير والقرى المنتشرة في المناطق الخاضعة

لمراقبة قبائل المخزن . وكانت هذه القبائل تجبر على دفع الضرائب الكبيرة

بالقوة ، وذلك إلى درجة أنها كانت تضطر إلى بيع محاصيلها الزراعية بأسعار

زهيدة لدفع هذه الضرائب ، ولا يحق لهذه القبائل شراء الأسلحة والبارود

والاتصال بالقبائل الخارجة على سلطة البايك .

اتخذت الحكومة العثمانية في الجزائر إجراءات لمنع هذه القبائل الخروج

من قبضتها ، عن طريق وضع قيادة ، من الأتراك والكراغلة وشيوخ من القبائل

المتعاونة مع البايات ، على رأس قبائل الرعية الكبيرة ، وقد بلغ عدد القواد

الذين كان لهم نفوذ على قبائل الرعية في مدينة قسنطينة وحدها حوالي ٢٤ قائداً و ١١ شيخاً (١٣) .

أدت سياسة الاضطهاد والتعسف التي كانت السلطة الحاكمة تمارسها تجاه قبائل الرعية إلى قيامها بالتمرد والعصيان ضد الحكام الأتراك وحلفائهم من قبائل المخزن ، لتحسين ظروفها المعيشية والتخلص من الضرائب الثقيلة المفروضة عليها ، وأدى ضغط السلطات الحاكمة على هذه القبائل إلى تفككها وضعفها ، وأصبح ولاؤها لبعضها يتوقف على الظروف المعيشية وليس على الأصل المشترك .

٣- المجموعات السكانية الخارجة عن سلطة البايك :

تتألف هذه المجموعات من القبائل التي كانت تعيش في المناطق الجبلية الحصينة كالبايور ، جرجرة ، الونشريس ، شمال قسنطينة والأوراس ، وهناك قسم منها بقي خارج سلطة الحكام وظل مقيماً بأراضي الجنوب الملازمة لحياة الرعي والترحال ، وهناك قسم من هذه المجموعات السكانية يقيم في الهضاب الوهرانية ومناطق الأطلس الصحراوي .

قدر عدد هذه المجموعات السكانية في عام ١٨٣٠م بحوالي ٣٢٠.٠٠٠ نسمة حسب بعض الإحصائيات ، من أصل مجموع السكان الذي بلغ ثلاثة ملايين نسمة عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٤) .

اتبعت السلطات التركية الحاكمة عدة إجراءات للحد من استقلال هذه القبائل وتمرد بها ، أهمها :

أ- إقامة الحاميات العسكرية في مناطق هذه القبائل ، وعزلها في المناطق الجبلية الحصينة أو في المناطق الصحراوية .

ب- العمل على مراقبة الأسواق الموسمية والأسبوعية الواقعة بالقرب من مواطن هذه القبائل المستقلة ، حيث يجري التعارف وعقد الأحلاف وتبادل الرأي ، وكانت الدولة تنصب على هذه الأسواق من قادة الأتراك ، وكانت

تفرض على البضائع المحمولة إلى الأسواق ضريبة مقدارها ١٠% ، وبهذه الطريقة استطاعت الحكومة فرض جزء من سلطتها التجارية على هذه القبائل.

ج- في حال عدم إعطاء هذه السياسة أية نتائج إيجابية كانت السلطة تلجأ إلى القوة ، وتدمر المواقع الحصينة وتنتلف الأمتعة والأقوات ، حتى تضطر القبيلة المتمردة إلى المهادنة والخضوع .

٤- المجموعات السكانية المتحالفة (الأخلاف) :

كانت هذه المجموعات تتعامل مع السلطة الحاكمة عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين أصبحوا يحكم العرف والعادة يتوارثون حكمها ، وكانوا يعتمدون في ذلك على نسبهم أو كفاءتهم الحربية.

تميزت العائلات التي كانت تحكم هذه المجموعات المتحالفة بالطابع الروحي ، وذلك في غرب إيالة الجزائر (عائلات المرابطين) ، بينما غلب الطابع الحربي على المجموعات السكانية التي كانت تقطن القسم الشرقي والجنوبي من إيالة الجزائر ، في حين اعتمدت العائلات التي فرضت زعامتها على هذه المجموعات في مناطق جرجرة والباور والصومام على أصولها العريقة (الأشراف) .

ساعدت المناطق الشرقية للإيالة ، وعدم تعرضها لثورات مدمرة ، على تزايد نفوذ المجموعات القبلية الكبرى التي أصبحت تسيطر على ثلثي بابلك الشرق ، الأمر الذي اضطر السلطة الحاكمة للتعامل معها والاعتراف بزعامتها شيوخها مثل مشيخات: النمامشة، الحنانشة، الحراكتة، أولاد بوعزيز. اتخذت السلطة الحاكمة عدة تدابير لربط هذه المشيخات فيها وإخضاعها، من أهمها:

١- التقرب إلى شيوخها والمرابطين وأصحاب الرأي لدى هذه المجموعات ،

وذلك عن طريق إلغاء الضرائب المخزنية وتقديم الهدايا لهذه الزعامات ، وإصدار مراسيم التولية ، كل ذلك مقابل خدمات محدودة يقدمها هؤلاء شيوخ تتلخص في تأمين سلامة الطرق الموجودة لديهم أثناء مرور الحاميات التركية ، وجمع الضرائب من الدواير التابعة لهم . بمعنى آخر قيام هؤلاء الشيوخ بدور الوسيط بين الحكومة والأهالي .

٢- خلق التنافس والتناحر بين القبائل ، وذلك بتشجيع الصراع العشائري بينها على مصادر المياه والرعي ، وهما العنصرين للضروريان لمواشي هذه القبائل .

٣- شن الحملات العسكرية بين الحين والآخر في حال امتناع هذه القبائل عن تقديم التزاماتها المخزنية من الضرائب ، أو في حال محاولة بعض زعماء القبائل التخلص من رقابة البايك .

يمكننا أن نلخص الحياة الاجتماعية التي عاشها سكان إيالة الجزائر في العهد العثماني في النقاط التالية :

١- يتميز الوضع الاجتماعي في إيالة الجزائر العثمانية بقلّة سكان المدن مقارنة مع سكان الأرياف ، أي بنسبة ٥% للأولى و ٩٥% للثانية .

٢- الاختلاف في التوزيع الجغرافي لسكان الأرياف في مجموعاتهم السكانية ، بحيث بقيت القبائل المتحالفة مع الأتراك أو المخزنية تشكل نسبة قليلة بالنسبة للسكان الخارجين عن سلطة البايك .

٣- اتخذ المجتمع الجزائري تركيباً هرمياً من حيث الامتيازات والمكانة الاجتماعية ، فكان على رأسه الطبقة الحاكمة قليلة العدد وكثيرة الامتيازات ، ثم تأتي بعدها طبقة الكراغلة ، ثم طبقة الحضر بما فيها الأندلسيين والأشراف الذين تولوا مناصب تعليمية ودينية هامة ، ثم طبقة البرانية ، وأخير الجالية اليهودية والأسرى الأوروبيون في أسفل السلم الاجتماعي .

٤- تحتل قبائل المخزن مركز الصدارة في مجتمع الأرياف ، ثم تليها القبائل المتحالفة مع السلطة ، ومن ثم وقبائل الرعية في أسفل السلم الاجتماعي .

٥- كانت تحكم القوة العسكرية والمالية في الحياة الاجتماعية لإيالة الجزائر في العهد العثماني ، فالقوة العسكرية كانت أقصر الطرق للوصول إلى أعلى المراتب في السلطة ، في حين كانت الإمكانيات المالية وسيلة ناجعة للحصول على الامتيازات ، نذكر هنا العلوج الذين اندمجوا في مجتمع الأقلية للتركية ، واستطاعوا الوصول إلى أعلى المناصب في الدولة مثل بلرباي ، وعلى سبيل المثال للعليج علي الذي أصبح حاكماً للجزائر العثمانية ، وذلك بعد دخوله الإسلام.

٦- عمل الحكام الأتراك على الحد من انتقال السكان من منطقة إلى أخرى دون الأخذ بالحسبان عملية تزايدهم وحاجتهم إلى المراعي والأراضي الزراعية ، حيث تم إسكان عشائر المخزن في الأراضي الخصبة للإيالة ، وإبقاء قبائل الرعية تعمل في تربية الماشية والزراعة في الأراضي التابعة للبايلك ، أو في الأراضي المشاع ، الأمر الذي أدى إلى استقرار الأوضاع في الأراضي الخصبة أو بلاد البايك ، وتركت المناطق الممتدة أو المستقلة وهي في أغلبها أراضي غير خصبة تحت تصرف رؤسائها المحليين من مرابطين وشيوخ.

٧- انتشار البدو في أواخر العهد العثماني ، حيث تحول عدد كبير من السكان من حياة الاستقرار وممارسة العمل الزراعي إلى حياة الترحال التي ارتبطت بتربية الماشية والبحث عن الكلأ . وقد أثر هذا التحول على الوضع الاقتصادي واحتياجات السكان الذين أصبح نشاطهم ، بعد تحولهم إلى البدو ، يهدف إلى توفير الاستهلاك المحلي ، في الوقت الذي كان فيه البايك يحتاج إلى المحاصيل الزراعية لسد حاجات سكان المدن ، وإرضاء متطلبات الأسواق الأجنبية حتى يستطيع أن يحصل على المواد الأوروبية المصنعة والجاهزة .

٨- لم تستطع طبقة الحضر في المدن ، ما عدا مدينتي قسنطينة وتلمسان ، أن تفرض تقاليدها ولهجتها وأسلوب حياتها على باقي الطوائف حتى أواخر

العهد العثماني ، ويرجع ذلك إلى انفتاح المدن الساحلية على الخارج وتكاثر الأسرى الأوروبيين والعلوج فيها ، وإلى انعزال الحكام العثمانيين واحتفاظهم بمعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، بحيث يمكننا أن نصف مجتمع مدينة الجزائر بأنه مجتمع شبه أمي وذلك في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين ، لكن مجتمع المدن الساحلية تحول تدريجياً في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر الميلادي إلى مجتمع يسوده التجانس ، ويغلب عليه الاندماج من حيث اللغة ونوعية الثقافة والانتماء الحضاري ، وقد ساعد هذا التحول العوامل الرئيسة التالية :

- أ- ضعف البحرية الجزائرية .
- ب- تناقص الأسرى الأوروبيين في سجون الجزائر .
- ج- تزايد احتكاك الحكام بالسياسة الداخلية للبلاد .
- د- نمو الشعور الديني ضد الهجمات الأوروبية المتكررة .

هوامش الفصل السادس

- 1- Galissot, R. : " Essais de la définition du mode de production de l'Algérie précolonial ", R.A. n° 2 , 1968 , p. 386-387.
- 2- Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIIIe siècle , Paris 1963, p. 108-109.
- 3- Julien, Charles André : Histoire de L'Algérie contemporaine , la conquête et les début de la colonisation 1827-1871 , Paris 1964 , p. 277.
- ٤- لمزيد من المعلومات عن هذه الفئة راجع النظام المالي لناصر الدين سعيدوني في الفصل الثالث .
- 5- Rozet , M.P., m Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique , Tome II , Paris 1833 , p. 276-277.
- 6- Haëdo , Fray Diégo de : Histoire des rois d'Alger , vu et annotée par H. D. Grammont , Alger 1881 , p. 219.
- 7- Nettement , A. : Histoire de la conquête d'Alger Paris 1856 , p.97-98.
- 8- Boyer, Pierre : La vie quotidienne à Alger à veille de l'intervention française , Paris 1963, p.127.
- 9- Albertini, E., Marçai, G., : L'Afrique du Nord française dans l'histoire , Paris 1937 , p. 222.
- ١٠- سعيدوني , ناصر الدين : الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) .

الجزائر بدون تاريخ ، ص ٩٥.

11- Boyer , Pierre : " Le problème kouloulghli dans la régence d'Alger ", R.O.M.M., n° 8 spécial, 1970 , p. 87.

١٢- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... ، ص ٩٥.

13- Boyer : Le problème kouloulghli..., op, cit., p. 84.

١٤- سعيدوني ، ناصر الدين : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠، الجزائر ١٩٧٩م ، ص ٤٤.

١٥- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... ، ص ٩٧.

16- Venture de Paradis : op, cit., p. 109. voir aussi Rozet , p. 70.

*- لم يشكل الأندلسيون طبقة خاصة بهم، ولكن سكان الجزائر أطلقوا عليهم هذه التسمية وأخذوا يعرفون بها.

١٧- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... ، ص ٩٨.

18- Diégo de Haëdo : Topographie et histoire générale d'Alger, in revue africaine , n° 14 , 1870, p. 495.

19- Férid khiari : " Une communauté , Resurgente : les Andalous en Alger 1570-1670, R. H. M., Tunis 1993, p. 119.

20- C.A.O.M., : lmi 70, p. 41.

21- Devoulx , A., : Notice sur la corporation religieuse d'Alger, Alger 1912 , p. 71-72.

٢٢- سعيدوني ، ناصر الدين : دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية ، الفترة الحديثة ، الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠٠١م، ص ٢٤٣.

- ٢٣- سعيدوني : الجزائر في التاريخ ... , ص ٩٩.
- 24- Shuval , Tal : La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle : population et cadre urbain , thèse pour le doctorat , Aix en Provence , France 1994 , p. 223.
- 25- Boyer : La vie quotidienne à Alger ... , op, cit., p. 165.
- 26- Venture de Paradis : op, cit., p. 119.
- ٢٧- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٠.
- 28- Boyer : La vie quotidienne à Alger ... , op, cit., p. 164.
- ٢٩- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٠.
- 30- Venture de Paradis : op, cit., p. 119.
- ٣١- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠١ .
- 32- Venture de Paradis : op, cit., p. 118.
- 33- Boyer : La vie quotidienne à Alger..., op, cit., p. 165.
- ٣٤- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠١.
- 35- Boyer : la vie quotidienne à Alger..., op, cit., p. 166.
- ٣٦- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٢.
- 37- Boyer : La vie quotidienne à Alger..., op, cit., p. 171.
- ٣٨- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٣.
- 39- Boyer : op, cit., p. 253.
- ٤٠- فارس , محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي , بيروت ١٩٦٩م , ص ٩٢.
- ٤١- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٥.
- ٤٢- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٦.
- ٢٧٩ -

٤٣- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٨ .

٤٤- سعيدوني : المرجع نفسه , ص ١٠٩ .



الفصل السابع

الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠م

مقدمة:

مرت للعلاقات بين فرنسا وإيالة الجزائر بفترات من السلام والتعاون المتبادل - خاصة ضد عدو الدولتين التقليدي شارلكان ملك إسبانيا - وكذلك بفترات من العداء والتوتر. ففي القرن السادس عشر الميلادي كانت العلاقات بين الطرفين جيدة، حيث سمح للفرنسيين باحتكار صيد المرجان، وبناء مستودع تجاري لنقل المنتجات التي يحصلون عليها والمسموح لهم بنقلها إلى فرنسا، لكن هذه العلاقات ساءت في القرن السابع عشر الميلادي، وساد جو من التوتر بين الدولتين، للأسباب التالية:

- ١- قيام الفرنسيين بتحويل مستودعهم التجاري إلى مركز عسكري.
 - ٢- نقص الفرنسيين لشروط المعاهدات والاتفاقيات الموقعة مع إيالة الجزائر، وخاصة فيما يتعلق بتجارة الحبوب والمواشي.
 - ٣- قضية الأسرى ومحاولة فرنسا التفاوض مع حكام الجزائر من أجل إطلاق سراحهم، وقد تجاوبت الحكومة الجزائرية ووافقت على تبادل الأسرى، في الوقت الذي رفضت فيه فرنسا ذلك بسبب حاجتها إلى البحارة الجزائريين.
- عادت العلاقات الطبيعية بين البلدين في القرن الثامن عشر الميلادي وزال التوتر، الذي حصل في القرن الذي سبقه. ولعبت الجزائر دوراً هاماً في دعم فرنسا عشية قيامها بثورتها عام ١٧٨٩م، وقدمت لها المساعدات وخاصة الحبوب واللحوم، بالإضافة إلى قروض مالية بدون فائدة، لكن فرنسا أنكرت هذا الجميل وبدلاً من تقديم الشكر للجزائر تأمرت عليها وحاصرت سواحلها عام ١٨٢٧م، وتبع ذلك باتخاذ قرار احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م، بسبب مطالبة حكومة الجزائر بحققها بإعادة القروض التي قسمتها لفرنسا في الأوقات العصيبة التي مرت بها، في الوقت الذي تخلت عنها الدول الأوربية الحليفة معها.

١ - أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر

يمكننا أن نقسم الأسباب التي دفعت فرنسا إلى إعلان حربها على الجزائر واحتلالها إلى مباشرة وغير مباشرة .

أ- الأسباب غير المباشرة (الأسباب البعيدة)

١ - الأسباب السياسية

خسرت فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلانيين عدداً كبيراً من مستعمراتها في عدد من بلدان العالم مثل : الهند وكندا ومصر وذلك لصالح بريطانيا ، كما دفعتها الهزائم التي تعرضت لها في الساحة الأوروبية إلى تغيير استراتيجيتها ، والبحث عن آفاق جديدة ومستعمرات تعوض فيها عن خسارتها. وفي مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م حصلت فرنسا على موافقة أغلب الدول على غزو الجزائر^(١). واستغلت ذلك من أجل تحويل الجزائر إلى مستعمرة وقاعدة عسكرية استعمارية فرنسية في إفريقيا تساعدها في الانطلاق نحو مناطق أخرى في القارة ، والتعويض عن المستعمرات التي خسرتها في مناطق آسيا وإفريقيا^(٢) .

٢ - الأسباب الاقتصادية

ازدادت شدة التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية الكبرى في القرن التاسع عشر الميلادي وخاصة بعد قيام الثورة للصناعية ، مما دفعها إلى التسابق لاحتلال المناطق الغنية بالمواد الخام اللازمة لتغذية المصانع ، ثم تحويل هذه البلدان إلى أسواق لتصريف منتجاتها المصنعة . ففرنسا ، باعتبارها إحدى هذه الدول ، فكرت باحتلال الجزائر ، وذلك في الوقت نفسه الذي كانت فيه الأخيرة تزودها بالحبوب واللحوم والمساعدات الأخرى. وأصمت أنبيها عن سماع مطالبات الحكومة الجزائرية بديونها ، وكانت فرنسا تضرر السوء للجزائر منذ ذلك الوقت^(٣) ، وبحسب المثل القائل مبادلة الخير بالشر. فالسيطرة على مقدرات الجزائر

الاقتصادية كانت هدفاً لفرنسا، حيث اعتقد الكثيرون بأن الأراضي الجزائرية غنية بمنتجات تشبه منتجات القارة الأمريكية. وقد أشار كلير مونت تونير في تقريره الذي قدمه إلى مجلس الوزراء الفرنسي، إلى غنى سهول الجزائر وتوسع غابلاتها ومناجمها وكثرة عدد قطعان ماشيتها^(٤). وبالتالي فتحت شهية أقطاب السياسة الإستعمارية الفرنسية وحولت أنظارها نحو الجزائر، وبدأت تعد المسوغات والحجج الواهية لاحتلال هذا البلد الغني بإمكاناته المادية والبشرية.

٣- الأسباب الاستراتيجية

اعتقد الفرنسيون أن احتلالهم للجزائر سيقضي على التفوق البريطاني في البحر الأبيض المتوسط، ويعود هذا الاعتقاد إلى أيام نابليون بونابرت، فالحملة العسكرية التي قادها على مصر عام ١٧٩٨م كانت جزءاً من هذا المشروع الذي يرمي إلى ضرب التفوق البريطاني في المتوسط، وتحويل هذا البحر إلى بحيرة فرنسية.

وقد ازداد اهتمام نابليون بالجزائر بعد أن ضمن عرش إسبانيا ونصب أخاه جوزيف ملكاً عليها، ففي عام ١٨٠٨م أرسل نابليون القائد المهندس بوتان في مهمة تجسسية إلى الجزائر، للحصول على معلومات تهم جميع نواحي الحياة فيها. وكان تقرير بوتان ذا أهمية كبرى، حيث قدمت المعلومات القيمة التي احتواها نقاط استناد استراتيجية اعتمدت عليها الحملة العسكرية الفرنسية التي قدمت لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠م^(٥)، فالمسؤولون العسكريون الفرنسيون، وخاصة وزير الحرب كلير مونت تونير، يرون أن بريطانيا هي العدو الدائم لفرنسا، لذلك فإن وجودها في جبل طارق وجزيرة مالطا يشكل خطراً حقيقياً على النشاط البحري الفرنسي، الأمر الذي لثار الشكوك الفرنسية حول إمكانية سيطرة انكلترا على الجزائر، مما يؤدي بالنتيجة إلى خلق مولتها المقابلة للساحل الجزائري وهي: ميناء مرسيليا وميناء طولون، ورأى الفرنسيون أن حملة النورد إكسموث الأنكليزي عام

١٨١٦م كانت محاولة لتحقيق هذا المشروع، الأمر الذي تطلب من الفرنسيين التفكير الجدي بالموضوع والاستعداد لغزو الجزائر، وقطع الطريق على الجانب البريطاني، متذرعين بأسباب واهية كنقطة ارتكاز لإخفاء هذه الأسباب الاستراتيجية، وتحقيق مشروعهم الاستعماري الجديد بالانقضاء على الجزائر واحتلالها^(٦). بالإضافة إلى أن فرنسا خشيت من قيام تحالف جزائري-انكليزي يمكن أن يؤدي إلى عرقلة المشروع الفرنسي^(٧).

٤- الأسباب المعنوية

سامت سمعة فرنسا وقلنت قيمتها على الساحة الأوروبية في نظر الدول المعادية لها بشكل خاص، وذلك بسبب الخسائر المتكررة التي منيت بها في جميع المعارك التي خاضتها ضد أعدائها، وكذلك على الصعيد المحلي، حيث كان الشعب الفرنسي في حالة من الغليان ضد الحكومة الملكية التي جلبت لفرنسا العار نتيجة سياستها غير المتزنة من جهة، وبسبب حروبها الخاسرة من جهة أخرى. لذلك سعت الحكومة الملكية الفرنسية إلى القيام بعمل يمحو عار هزيمتها، ويسمح بإعادة الهيبة إلى سمعتها بإلهاء الشعب بعمل خارجي، لفريق الملكية - الذي كان على رأسهم وزير الحربية كلير مونت تونير، والجنرال بورمونت- كان يرى بأن مهاجمة الجزائر يجب أن يتم بالسرعة القصوى، وذلك لتحقيق هدفين في آن واحد :

- الأول : إنقاذ شرف الحكومة الملكية التي يشكلون أعضاؤها الرئيسيين .
- الثاني : قطع الطريق على بريطانيا - في عملية احتلال الجزائر - وعلى مشروعها الاستعماري المعد لذلك^(٨) .

ب- الأسباب المباشرة (الأسباب القريبة)

تتمحور هذه الأسباب حول نقطتين أساسيتين اختلقتهما فرنسا لتبدأ بالهجوم على سواحل إيالة الجزائر العثمانية وضمها إلى الدولة الفرنسية ، وهما :

١ - مسألة الديون أو الأسباب المالية

ترجع العلاقات بين الحكومة الجزائرية وفرنسا إلى الثلث الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، ففي عام ١٥٢٦م استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بحاكم الجزائر خير الدين بربروس، لمساعدته في طرد الجيوش الإسبانية التي أغارت على الأراضي الفرنسية. وتكرر طلب المساعدة من الجزائر عام ١٥٣٥م عندما حدث صدام بين جمهورية جنوة الإيطالية وفرنسا، فلبى خير الدين بربروس الطلب الفرنسي، واستطاعت فرنسا أن ترد جيوش جمهورية جنوة الإيطالية عن سواحلها، وعندما قرر نابليون بونابرت غزو إيطاليا ومصر عام ١٧٩٨م شعر بحاجته إلى الحبوب والأموال لتمويل حملته، فالتفت على إيالة الجزائر التي قدمت له العون وأمدته بالحبوب وأعطته قرضاً مالياً بدون فائدة. واستمر داي الجزائر يمد يد العون للحكومة الفرنسية الملكية، واستمرت فرنسا تستورد القمح الجزائري بأسعار منافسة (٤٢ فرنكاً للقطار الواحد)، وذلك عن طريق الشركة الفرنسية (أجانس ناسيونال وأفريك)^(٩). وكانت الوكالة تحصل على الحبوب بأسعار رخيصة وبمواصفات ممتازة^(١٠). لكن فرنسا بدأت تتآمر على إيالة الجزائر عندما حولت نظرها عن هذه الشركة. وعقدت صفقة جديدة مع شركة يهودية تحتكر حبوب وأخشاب الجزائر، وكان يديرها يعقوب كوهين بوخريص (بكري) وبوشناك أو بوزناك ، وهما من يهود ليفورن الذين طردوا من إيطاليا واستوطنوا في الجزائر منذ عام ١٧٧٠م .

وقعت فرنسا مع الشركة اليهودية المذكورة عقداً لشراء القمح بسعر ١٢٠ فرنكاً للقطار الواحد بدلاً من السعر السابق الذي كانت تقدمه الشركة الفرنسية الملكية (٤٢ فرنك للقطار الواحد)^(١١) . فلماذا قبلت فرنسا عقد هذه الصفقة مع الشركة اليهودية بسعر يبلغ ثلاثة أضعاف سعر القمح المقدم عن طريق الداي؟ ولماذا عقدت هذه الصفقات مع اليهود بالذات، وليس مع غيرهم

ممن يعملون بالتجارة من سكان مدينة الجزائر ؟ ولماذا أنكرت فرنسا الموقف النبيل للحكومة الفرنسية تجاهها زمن ثورتها ؟ إنها مؤامرة نسجت خيوطها للشركة اليهودية بالاتفاق مع بعض أعضاء الحكومة الفرنسية، فالدور الذي لعبه اليهود في احتلال الجزائر كان منبثق عن الدور الصهيوني الذي بدأ يظهر تحت رعاية الدول الاستعمارية الأوروبية في تلك المرحلة وخاصة فرنسا وإنكلترا، وذهب ضحيتها إيالة الجزائر، وذلك من أجل اقتسام الأرباح العتيدة من شراء الحبوب فيما بينهم، وإخراج الداي حسين من اللعبة . ألم يكن الداي حسين طرفاً في اللعبة، خاصة أن له علاقات حميمة مع يعقوب وبوشناق اليهوديين المسؤولين عن الشركة اليهودية؟ وسمح لهذه الشركة بالسيطرة على القسم الأكبر من تجارة الجزائر الداخلية والخارجية ؟ ألم يتحمل إذا جزءاً من المسؤولية، لا بل للقسم الأكبر منها، ولماذا كانت علاقته متينة مع اليهود دون غيرهم من التجار في إيالة الجزائر ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها يحتاج من الباحث تحليل الأحداث بموضوعية قبل الإجابة عنها، وإن كان يستشف منها للوهلة الأولى مؤامرة ثلاثية أقطابها فرنسا والداي واليهود . وهدفها إسقاط حكومة الجزائر العثمانية، وقد أوضح المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان خيوط هذه اللعبة بقوله: "إن الحملة الفرنسية على الجزائر قضية مشبوهة بدأ بها التجار اليهود الجزائريون أصحاب النفوذ لدى الداي حسين ، وذلك بالتواطؤ مع سياسيين فرنسيين فاسدين في باريس من أمثال تاليران^(١٢) . وكان اليهوديان يقومان بهذه العملية لحسابهما ولحساب الداي الذي كان يجهل الأساليب الملتوية التي كانا يتبعانها، فكانا يبيعان الحبوب بأسعار فاحشة، ويقدمان تسهيلات في المدة التي يتوجب دفعها، لأنهما كانا يربحان كثيراً من الفوائد المتركمة نظراً لطول المدة .

وقد استغل اليهوديان الحكومتين الفرنسية والجزائرية على حد سواء، فالأولى تغاضت عن تلاعبهما نظراً لعجز خزينتها، والثانية كانت تربطها بشخص الداي صداقة متينة يحصل بموجبها الداي على مبلغ معين، وذلك مقابل السماح لهما باحتكار القسم الأكبر من تجارة الجزائر، كما كان التاجران

اليهوديان ببيعان الحبوب إلى انكلترا في جبل طارق، ولا ننسى أن هذه الأخيرة هي عدوة فرنسا اللدودة (١٣) .

واستمرت فرنسا تستورد القمح الجزائري بمعدل مليون فرنك سنوياً حتى بلغ مجموع الديون ثلاثين مليوناً، وماطلت فرنسا في دفع الديون للجزائر بسبب العجز المالي لديها من جهة ، وبسبب قيام الشركة اليهودية بالتجارة مع الانكليز من جهة أخرى (١٤) . وهنا بدأت اللعبة اليهودية، ولكي يضمن اليهوديان حقوقهما نجحا ببراعة وحكمة في تحويل الدين من دين خاص بهما إلى دين حكومي، وذلك بعد أن ألقيا الداي حليفهما بأنهما لا يستطيعان دفع حصته مالم تدفع لهم الحكومة الفرنسية، وهكذا انكشفت اللعبة وخاصة بعد أن وجد اليهوديان متنفذين يدافعان عنهما لدى الحكومة الفرنسية، وكان على رأسهم تاليران الذي أصبح وزيراً للخارجية الفرنسية عام ١٧٩٧م ، وعمل على دعم الشركة اليهودية وممثليها، وطلب من زملائه في الوزارة إظهار النوايا الحسنة تجاههم.

وبعد مناقشات طويلة بين ممثلي اليهود وأنصارهم في الحكومة الفرنسية وبين أعضاء الحكومة، تمكن اليهود من الحصول على مبلغ وقدره أربعة ملايين فرنك فرنسي، ويعود الفضل في ذلك إلى دعم حليفهم تاليران، في حين لم يحصل الداي على شيء على الرغم من أن الدين حوله اليهوديان إلى دين عام للحكومة الجزائرية (١٥) .

ولم يستطع اليهوديان الحصول على كامل الديون على الرغم من دعم حلفائهم في مجلس الوزراء الفرنسي، لأن العلاقات ساءت بين الحكومة الفرنسية وحكومة الجزائر في عهد الامبراطورية، ولعبت مسألة الديون دوراً حاسماً في تعكير صفو العلاقات. استغل اليهود في الجزائر توتر العلاقات بين الدولتين الفرنسية - الجزائرية في عهد الامبراطورية، فعندما كان الجزائريون يهاجمون السفن والممتلكات العائدة لفرنسا، كانوا يعتبرونها جزءاً من التعويض عن ديونهم على فرنسا التي لم تعترف لهم بها، وظهرت الحنكة والتلاعب اليهودي بوضوح عندما سلم الداي ملكية المؤسسات الفرنسية للإنكليز عام ١٨٠٧م، وحصل

اليهودي بكري على قسم من هذه الممتلكات في جيجل والقل كنعويض عن ديونه على فرنسا ولم يحصل الداي على شيء منها ^(١٦) .

استؤنفت المباحثات بين الطرفين الجزائري والفرنسي في عام ١٨١٥م بخصوص الديون الجزائرية على فرنسا، وأبدت الحكومة الرجعية الفرنسية حرصها على إعادة العلاقات الحسنة القديمة مع الحكومة الجزائرية.

كانت الحكومة الفرنسية الجديدة تعمل لصالح اليهوديين لأنهما وجدا حليفهما القديم تاليران وزيراً للخارجية أولاً ثم رئيساً للوزارة ثانياً، وخدمهم الحظ أيضاً في تعيين الحكومة الفرنسية لديفال قنصلاً لها في الجزائر، حيث عمل هذا على تحقيق الطموح الفرنسي في احتلال الجزائر من جهة، ودعم حلفائه اليهود من أجل حصولهم على ديونهم من فرنسا من جهة أخرى ^(١٧) . حرص اليهوديان على الدعم الفرنسي لهما سواء داخل الجزائر أم في فرنسا، وقدما كشفاً بديونهما والتي قدرت من دون أي مستند شرعي بحوالي ٢٤ مليون فرنك فرنسي، لكن الحكومة الفرنسية لم توافق على هذا المبلغ، وحدثت مناقشات كثيرة بين ممثلي اليهود والحكومة الفرنسية، وخفض هذا المبلغ إلى ١٨ مليوناً ثم ١٤ مليوناً، وبقيت الحكومة الفرنسية تعارض حتى تم تخفيض الديون الواجبة لحكومة الجزائر ممثلة باليهوديين بكري وبوشناك إلى ٧ مليون فرنك فرنسي ^(١٨) . ووقع الاتفاق عام ١٨١٧م أي في عهد الداي حسين الذي تسلم منصبه قبل عام ، حيث شكلت لجنة من ثلاثة خبراء فرنسيين، وأقرت هذه اللجنة بحق الجزائر في مطالبة فرنسا بدين قدره ٧ مليون فرنك، وأكدت الحكومة قرارها بهذا بمرسوم مؤرخ في ٢٨ تشرين أول عام ١٨١٩م، وصالح عليه مجلس النواب الفرنسي في ٢٤ تموز عام ١٨٢٠م. لكن البحث القضائي الفرنسي أثبت بالدليل القاطع أن الشركة اليهودية كانت قد استلمت من فرنسا مبلغاً وقدره ٣٢ مليون فرنك فرنسي من أجل تسليمه للحكومة الجزائرية ولكنها لم تفعل ذلك ^(١٩) .

وهنا يبدو لنا بأن اليهوديين كانوا قد خدعوا الحكومة الجزائرية والفرنسية على حد سواء ، فتدخل الداي ووافق على تحويل الدين من دين خاص إلى دين عام ربما لأن الداي كان متورطاً مع هذين اليهوديين ، وإن قسماً كبيراً من الديون يخصه شخصياً . وثبت من مجريات الأحداث بأن عدداً كبيراً من

الأسماء التي وردت في اتفاق عام ١٨١٩ م ماهي إلا أسماء وهمية تخص أقارب اليهوديين أو عائلاتهم.

إن تحليلاً سريعاً لهذه المعاهدة يبين لنا بأنها ضمنت حقوق الدائنين الوهميين، وأهملت الدائن الحقيقي وهو داي الجزائر. ثم إن اليهود حصلوا على مبلغ أكبر بكثير مما اعترفت به الحكومة الفرنسية في اجتماع عام ١٨١٩ م، لأنهم عرفوا بطبعهم الخبيث أن يتحايلوا على الجانبين الفرنسي والجزائري، وعبر عقدهم سلسلة من القروض، وبالتالي كان الخاسر الوحيد من هذه الصفقة هي الحكومة الجزائرية (٢٠). وقد صادق الداي حسين على اتفاق ١٨١٩ م، وذلك بعد أن قدمه له اليهودي بكري وحاميه القنصل الفرنسي في الجزائر ديفال، وكان الداي يأمل بأن حصول بكري وبوشناك على ديونهم من فرنسا سيضمن له حصته من الدين، ولكن توقعاته خابت ونجح اليهوديان، كما ذكرنا سابقاً، في خداع الحكومتين الجزائرية والفرنسية معاً (٢١). وأخيراً تعهدت فرنسا بدفع مبلغ قدره ٥٨٣٠٠٠ فرنك اسبوعياً للحكومة الجزائرية. وبدأت فرنسا بتنفيذ ذلك ولم يبق على حد قول المصادر إلا مبلغ وقدره مليونان ونصف فرنك فرنسي، وذلك من أصل السلايين السبعة المقررة باتفاق ١٨١٩ م، وفي هذه الأثناء ظهرت جماعة فرنسية أدعت بأنها عدوة الشركة اليهودية ولها عليها أموال، ويجب حجز المبلغ المثلثي ووضعه في صندوق الودائع حتى تبريء الشركة نمتها من الديون مع هذه الجماعة (٢٢)، ووضعت يدها على ديون تجار فرنسيين يتعاملون مع الشركة اليهودية.

احتج الداي لدى القنصل الفرنسي على هذه السياسة الغريبة من جانب الحكومة والقضاء الفرنسي تجاه حكومة الجزائر، وأكد أنه ليس من حق الحكومة الفرنسية أن تتدخل في قضية خلاف بينه كحاكم وبين اثنين من رعاياه اليهود، وطالب بإعادة حقه الكامل المنصوص عليه في اتفاق ١٨١٩ م، وشدد أيضاً على أن تكون مرافعة الفرنسيين وممثلي الشركة اليهودية في مجلس القضاء في الجزائر، وأبدى استعداده رد هذا المبلغ للتجار، إذا ثبت ذلك خلال أربع

وعشرين ساعة ، لكن الحكومة الفرنسية رفضت عروض الداي وكان جوابها - بحسب قنصلها في الجزائر - الرفض وتأييد اليهود والتجار معاً (٢٣) .

وفي خريف ١٨٢٦م كتب الداي حسين إلى وزير خارجية فرنسا البارون دو داماس يطلب منه أن يسوي مع ممثل بكري حساب المبالغ وأن يرسلها إليه شخصياً. وبعد شهرين طلب من القنصل الفرنسي إرسال هذه المبالغ أو أن يبين الأسباب التي تحول دون ذلك، وبدلاً من جواب الداي عن المبالغ ، وصلت في خريف ١٨٢٦م سفينة فرنسية تطالب بالتعويض عن الأضرار التي تعرضت لها السفن البابوية والفرنسية، وهنا توقع الداي أحد أمرين:

الأول : عدم وصول رسالته إلى وزير خارجية فرنسا عن طريق قنصلها ديفال. والثاني: عدم وصول جواب الوزير الفرنسي إليه ، لأن القنصل ديفال حجزه ولم يبلغ الداي (٢٤) . ولا غرابة في ذلك نظراً لعلاقة المودة والصداقة التي كانت تربط ديفال بالتجار اليهوديين. وتبين موقف الحكومة الفرنسية من هذه الأحداث في رد وزير خارجيتها برسالة إلى الداي نقلها قنصلها ديفال وتضمنت النقاط التالية :

١- التعويض عن الأضرار التي لحقت السفن الفرنسية والبابوية ومعاقبة المعتدين، فهل وقع صدام حقيقي بين المراكب البابوية والجزائرية، أم أن فرنسا اختلقت هذه الحادثة كذريعة للضغط على الجزائر تمهيداً لاحتلالها؟ ثم ماعلاقة فرنسا بالسفن الإيطالية ، هل نصبت نفسها محاسماً للدفاع عنها؟ من المعروف أن تاريخ الدولتين مليء بالعداء ، ومن المؤكد أن فرنسا اختلقت هذه الزريعة، ولو كان الأمر صحيحاً ، فلماذا لم تطالب البابوية بذلك، خاصة وأن الأمر يعنيها ؟ إن هذه الحيل والأساليب الخداعة أصبحت لاتخفى على أحد ، خاصة وأن الاستعمار يزيغ الحقائق لتحقيق أهدافه ومصالحه.

٢- منع البحارة الجزائريين من تفتيش السفن الفرنسية .

٣- احترام الرأية البابوية .

٤- معاملة قنصل فرنسا باحترام (٢٥) .

وقد دعم مجلس الوزراء الفرنسي هذه المطالب بارسال أسطول فرنسي لتنفيذها، وبدلاً من تلقي الداي جواباً عن رسالته إلى وزير الخارجية تلقى مطالب بالتعويض وتهديداً على يد القنصل الفرنسي ديفال .

في هذه الأثناء حدث أن الفرنسيين عملوا على تحصين الباستيون، ووضعوا فيه مدافع وجامية، وذلك بإشراف الكسندر ديفال ابن أخ القنصل الفرنسي ديفال، حيث عين ابن أخيه نائباً له على عناية، وعمل على إضافة منشآت عسكرية ووضع فيها حاميات ورجالاً مسلحين، هذه الحادثة تعني إذاً إقامة دولة داخل دولة رغم معارضة سكان مرسيليا (أحد موانئ فرنسا الرئيسية) لهذا العمل، يتضح لنا هنا بأن فرنسا كانت تطبق معاهدة الامتيازات الممنوحة لها منذ عام ١٥٣٥م، وتعمل على التدخل السافر في الشؤون الداخلية للبلدان الخاضعة للسلطة العثمانية، فموقف الحكومة الفرنسية تجاه قنصلها - غير المرغوب به في الجزائر - كان سلبياً، وكان وجوده سبباً في توتر العلاقات بين الطرفين الجزائري والفرنسي، فلو كانت الحكومة جادة في تسوية الخلاف لعملت على استبعاده من منصبه، لكنها كانت تخطط على ما يبدو إلى وضع قدمها في الجزائر وذلك تمهيداً لاحتلالها، ومما يؤكد ذلك أنها طلبت من ديفال التدخل لدى الداي لصالح الدولة الإيطالية، ومطالبته بوعده بضم حق احترام الرأية البابوية ، لكن الداي حسين رفض ذلك رفضاً قاطعاً (٢٦) .

٢- ضربة المروحة (كشاشة الذهب)

اتخذت فرنسا من هذه الحادثة (المخطط لها من قبل القنصل الفرنسي ومن يقف وراءه في الحكومة الفرنسية) ذريعة وسبباً مباشراً لإعلان حربها على

الجزائر. وقد تمت هذه المؤامرة عندما جاء القنصل الفرنسي ديفال لتهنئة الداى في عيد الفطر عام ١٨٢٧م، حيث دار أثناء هذه الجلسة حديث وجهه الداى للقنصل يتمحور حول عدم رد الحكومة الفرنسية على رسائله المتعلقة بالديون الجزائرية، وزاد في غضبه سؤال ديفال عن سبب قيام الحكومة الفرنسية بتسليح مستودعها التجاري في عنابة والقالا وغيرها من مدن الساحل الجزائري، فاستنكر الداى هذه الأعمال من الجانب الفرنسي، والتي تتعارض مع مانصت عليه الاتفاقيات السابقة الموقعة بين البلدين.

فكان جواب القنصل على أسئلة الداى مملوءاً بالاستخفاف من الداى وحكومته، وعدم تناسبه لقواعد اللياقة المتعارف عليها حسب بروتوكولات تلك الحقبة^(٢٧). وقد ذكر شاهد عيان حضر هذه المقابلة أن القنصل الفرنسي وضع يده على سيفه مهدداً قائلاً للداى: "إن مولاي لا يتنازل ويحجب على رجل مثلك، وفي رواية أخرى قال القنصل الفرنسي للداى: "إن ملك فرنسا وشعبها لا يحررون لك ورقة ولا يرسلون رداً على رسائلك^(٢٨)".

إن تمادي القنصل الفرنسي ورده غير اللائق على الأسئلة أثار حفيظة الداى، الأمر الذي دفعه إلى ضربه بكشاشة ذهاب كانت بيده. والغريب في الأمر لم يكتب ديفال مباشرة إلى الحكومة الفرنسية تقريراً عن هذه الحادثة، بل حاول التفاوض مع وزراء الداى لإيجاد حل لهذه القضية، لكنه لم يوفق في مساعاه. عندئذ كتب ديفال إلى حكومته تقريراً واعتبر أن الإهانة وطنية وليست شخصية، بالمقابل أصر الداى حسين على أن المسألة قضية شخصية وحصلت بصورة عفوية لا علاقة لها بما قاله ديفال عن هذه الحادثة. وقد اعتبرت الأوساط القنصلية الفرنسية في الجزائر وفي سواحل المتوسط أن هذه الحادثة فردية، وكان سببها اللامبالاة في تصرف القنصل الفرنسي ورده غير اللائق على أسئلة الداى، وقللت من أهمية هذا الحادث ولم تعره أي اعتبار، وكان ذلك على عكس موقف الحكومة الفرنسية التي ضخمته واعتبرته إهانة للشرف والرياسة الفرنسية بدعم من أنصار إعلان الحرب على الجزائر واحتلالها^(٢٩).

٢ - الحصار الفرنسي للجزائر عام ١٨٢٧م

بدأ الحصار في ١٦ حزيران عام ١٨٢٧م، حيث فرض على جميع موانئ إيالة الجزائر، وبشكل خاص ميناء العاصمة، وكان سببه المباشر ظاهرياً حادثة كشاشة للذباب التي أشرنا إليها فيما سبق والتي حدثت في ٢٩ نيسان ١٨٢٧م. كان اختيار فرنسا لحملة الحصار مدروساً ومعداً مسبقاً، وتزامن مع ضرب الأسطول الجزائري المشترك مع الدولة العثمانية في معركة نافارين ١٨٢٧م التي وقعت في الحوض الشرقي للمتوسط .

أرسلت فرنسا حملة بحرية بقيادة الكابتن كوليه (Collet)، وحملته إنذاراً موجهاً للداي حسين يتضمن مطالبته بتقديم اعتذار على الإهانة التي لحقت بفرنسا، وأن يسمح لقائد أسطول الحصار أن يختار واحداً من ثلاثة خيارات يجب على الداي القيام به للاعتذار للحكومة الفرنسية عما فعله تجاه قنصلها ديفال، والخيارات الثلاثة هي التالية :

١- أن يقوم الداي حسين بزيارة رسمية إلى مقر القنصلية الفرنسية بالجزائر لتقديم اعتذار رسمي .

٢- أن يستقبل للقنصل الفرنسي في قصره في احتفال رسمي وتقديم الاعتذار له.

٣- أن يقوم بإرسال وفد رسمي برئاسة وزير البحرية إلى قائد الحملة الفرنسية كوليه ، ويقوم باسم الداي بتقديم الاعتذار العلني للقنصل (٣٠) .

بالإضافة إلى هذه الخيارات حمل القائد الفرنسي قائمة من المطالب كان على الداي أن ينفذها وهي :

أ- رفع العلم الفرنسي فوق قلاع مدينة الجزائر .

ب- معاقبة البحارة الجزائريين الذين اعتدوا على السفن الفرنسية .

ج- عدم تعرض البحارة الجزائريين للسفن البايوية واحترام الداي لرايتها .

د- دفع ثمن البضائع التي احتجزت على ظهر سفينة إسبانية .
هـ- السماح لفرنسا بتحصين المستودع التجاري بالقال وكل مؤسساتها داخل
إيالة الجزائر .

و- عدم السماح للجزائريين بتفتيش السفن الفرنسية (٢١) .
بعد مشاور قائد حملة الحصار مع القنصل الفرنسي تم اختيار البند الثالث؛
المتضمن قيام الداى بإرسال وفد رسمي برئاسة وزير البحرية إلى قائد الحملة
وتقديم الاعتذار بصورة رسمية .

قدم كوليه (Collet) إلى الداى مذكرة رسمية بهذه الشروط عن طريق ممثل
سردينية . وكان على الداى الإجابة على هذه المذكرة خلال أربع وعشرين ساعة.
رفض الداى الإجابة على الإنذار وقال ساخراً : "يدهشني أن الفرنسيين لم
يطلبوا مني زوجتي" . وعندما وصل جواب الداى إلى كوليه بالرفض بدأ الأخير
في تنفيذ قرار حصار الجزائر في ١٦ حزيران عام ١٨٢٧ م ، في الوقت نفسه
الذي كانت فيه الحكومة الفرنسية تأمل أن يقوم الداى بالاعتذار عما فعله مع
قنصلها إلا أنه لم يفعل ذلك (٢٢) .

٣ - نتائج الحصار الفرنسي للجزائر

أدى الحصار الفرنسي للجزائر إلى آثار سلبية على الجانبين الجزائري
والفرنسي على حد سواء .

١ - نتائج الحصار على الجانب الجزائري

- ١- أدى الحصار إلى توقف التجارة بين الجزائر والقارة الأوروبية ، وأصبحت
الإيالة في عزلة عن العالم الخارجي .
- ٢- تحول الطرق التجارية للجزء الشرقي من الإيالة إلى تونس ، ولم يبق إلا بعض
الموانئ للجزائرية القريبة من جبل طارق مثل : وهران وأرزيو ورشقون .

٣- اضطرت الجزائر إلى الاعتماد على مواردها الداخلية بسبب الحصار . لسد العجز المالي في خزينتها مما أدى إلى إفلاسها.

٤- تدهور الاقتصاد الجزائري عامة بسبب زيادة الضرائب على الأرياف والمدن الجزائرية (٣٢) ، الأمر الذي أدى إلى تمرد السكان ضد سياسة الدولة المتبعة تجاههم.

٢- نتائج الحصار على الجانب الفرنسي

١- لم يمنع الحصار الذي فرضته فرنسا على الجزائر من مهاجمة سفن الأخيرة للسفن الفرنسية وغيرها من السفن الأوربية في عرض البحر .

٢- كلف الحصار فرنسا خلال سنتين خسائر مادية باهظة قدرت بمليون فرنك ، وذلك حسب مقالته الكاتب الفرنسي دوبورغ (Duborg) في ٩ حزيران عام ١٨٢٩م (٣٤) .

٤- الموقف الفرنسي من الحصار

كان التردد واضحاً بين أنصار الحصار وأنصار إرسال حملة فرنسية إلى الجزائر من أجل احتلالها ، لأن الظروف لم تكن تسمح لرئيس الحكومة الفرنسية فيليل أن يتخذ موقفاً نهائياً وحاسماً بخصوص هذا الأمر ، نظراً للأسباب التالية :

١- ازدياد النقمة الشعبية ضده بسبب إلغائه الحرس الوطني ، فالوضع الداخلي في فرنسا متوتر .

٢- ازدياد المعارضة في المجلس النيابي ضد سياسة رئيس الحكومة الفرنسية ، فالنقمة ضده كانت على الصعيدين الشعبي والحكومي .

٣- توتر الأوضاع الداخلية في إسبانيا ، الأمر الذي انعكس على السياسة الداخلية والخارجية لفرنسا .

٤- اهتمام رئيس الحكومة الفرنسية بالمسألة اليونانية وتفضيلها على مسألة إرسال حملة عسكرية إلى الجزائر واحتلالها .

٥- وجود الأسطول الفرنسي في المياه اليونانية يمنع من التفكير بإرسال حملة إلى الجزائر في هذه الظروف .

٦- اعتقاد الحكومة الفرنسية بأن حصار الجزائر ، والأضرار التي ستلحق بالتجارة الجزائرية سيدفع الداي إلى تغيير موقفه تجاه فرنسا .

لهذه الأسباب مجتمعة كانت حكومة فيليب الفرنسية تميل إلى فكرة الحصار وإيجاد حل سلمي للقضية بدلاً من إرسال حملة عسكرية لاحتلالها (٣٥) .

أما أنصار إرسال حملة إلى الجزائر واحتلالها فكانوا قلة ، وعلى رأسهم قائد أسطول الحصار كوشه (Collet) والقنصل الفرنسي ديفال والضابط الفرنسي دوبيوتي توار الذي أجاب على أسئلة وزير البحرية بخصوص إمكانية إرسال حملة ، لأنه يعرف جيداً السواحل الجزائرية ، وأقنع وزير البحرية الفرنسية بالانضمام إلى أنصار إرسال حملة إلى الجزائر ، وأقنع وزير البحرية كلير مونت تونير بدوره الملك شارل العاشر بالموافقة على إرسال الحملة .

شرح وزير البحرية في تقريره الذي قدمه إلى مجلس الوزراء الدوافع التي تقتضي من الحكومة الفرنسية الموافقة على إرسال حملة إلى إيالة الجزائر واحتلالها ، ويمكننا أن نعرض هذه الدوافع ، التي رأتها فرنسا بأنها موضوعية بناء على تقرير وزير بحريتها ، على النحو التالي :

١- الدوافع السياسية

١- تعد الحملة وسيلة لتحسين سمعة الحكومة الفرنسية أمام شعبيها ، وصرفه عن المسائل الداخلية بالقيام بعمل ناجح في الخارج .

٢- ربط كلير مونت تونير وزير البحرية هذه الحملة بعلاقات فرنسا الخارجية ، حيث أشار في تقريره إلى بعض التغيرات التي ستحدث في أوروبا ، والتي كانت هذه الأخيرة بحاجة إليها للوقاية من الثورات الداخلية .

- ٣- أوضح التقرير أن الصراع مع الباب العالي يمكن أن يتفاقم ، وأن الدول المتحالفة (روسيا وفرنسا وإنكلترا) ، ستضطر في المستقبل إلى التوسع بالاتفاق فيما بينها على حساب أراضي الدولة العثمانية .
- ٤- بين التقرير حاجة فرنسا للتقارب مع روسيا في الوقت الحالي ، وذلك بهدف الحصول على الألب والراين مقابل إطلاق يد روسيا في آسيا .
- ٥- أشار وزير البحرية في تقريره إلى أن الجزائر ليست جزءاً من السلطنة العثمانية .

٢- الدوافع الاقتصادية

- ١- بين التقرير الفوائد الاقتصادية الهامة التي ستحصل عليها فرنسا في حال احتلالها للجزائر التي تمتلك سهولاً زراعية خصبة ، بالإضافة إلى المناجم والغابات وقطعان الماشية .
- ٢- بين وزير البحرية أن فرنسا لا تتكلف شيئاً على الحملة ، لأن جميع نفقاتها ستغطي من خزانة الداي ، وقدرت هذه النفقات بحوالي ٥٠ مليون فرنك^(٣٦) .
- عرض تقرير وزير البحرية على مجلس الوزراء في ١٤ تشرين الأول عام ١٨٢٧م ، لكن المجلس رفضه للأسباب التالية :
- أ- عدم قدرة الحكومة الفرنسية على القيام بحملة عسكرية ضد الجزائر ، لأن أسطولها مرابط مع الأساطيل الروسية والإنكليزية في المياه اليونانية .
- ب- وجود عدد آخر من قطع الأسطول الحربي والجيش البري في مياه البرازيل .
- ج- وجود قسم من القوات الفرنسية مرابطاً في إسبانيا .
- د- قيام ثورة مدغشقر وحاجة فرنسا إلى بقاء بعض القوات فيها للعمل على تهدئة الوضع الداخلي .
- هـ- قرب موعد الانتخابات النهائية التي ستقرر مصير الحكومة الفرنسية .
- أدت الانتخابات النيابية التي جرت في أواخر عام ١٨٢٧م إلى زيادة عدد النواب الأحرار ، واضطرت وزارة فيليب الملكية إلى الاستقالة ، الأمر الذي دفع الملك شارل العاشر إلى تكليف مارتينييك - وهو أحد الأحرار المعتدلين -

بتشكيل الوزارة ، والتي كانت منذ اللحظة الأولى لتشكيلها في وضع حرج ، لعدم حصولها على الثقة والتأييد من الملك ومعارضة الأحرار المتطرفين والملكيين على السواء (٢٧) .

استمرت الوزارة في دعم عملية الحصار وعارضت فكرة إرسال حملة عسكرية لاحتلال الجزائر ، وكان وزير خارجيتها الكونت دولا فروناي مهتماً بالمسألة الشرقية وتداعياتها^(*)، وكان يقلل من أهمية مسألة الجزائر ويعمل على التخلص منها ، وعلى الرغم من تأكيد اللجنة الحربية في مجلس الوزراء الفرنسي على إمكانية إرسال حملة عسكرية ونزولها في منطقة سيدي فرج ، إلا أن الحكومة كانت تميل إلى الحل السلمي مستبعدة اللجوء إلى أي عمل عسكري ، ولذا لم تتقدم بأي اعتماد لمشروع هذه الحملة (٢٨) .

وقد تبنت حكومة مارتيدياك مشروعاً لإيجاد حل سلمي لقضية الجزائر تضمن النقاط الرئيسية التالية :

١- يرسل وزير الخارجية الفرنسي دولا فروناي الضابط بيزار إلى داي الجزائر للاطلاع على نواياه تمهيداً للوصول إلى حل سلمي للقضية . وقد تم اللقاء بين الداي حسين ومبعوث الوزير الفرنسي بحضور قنصل سردينية ، وقد سأل الداي عن سبب إعلان فرنسا الحرب على الجزائر دون أن تسمع وجهة نظره ، وحمل الداي القنصل الفرنسي ديفال مسؤولية ما حدث ، وأنه لم يقصد ضربه بكشاشة الذئب ، وإنما أشار إليه بها فأصابته جبينه . وكان المبعوث الفرنسي يحمل طلب حكومته إلى الداي بالاعتذار أمام القناصل الأجانب ، وعلى الداي أن يرسل مبعوثاً من قبله إلى باريس ليكرر الاعتذار ، ولكن الداي حسين رفض طلب الحكومة الفرنسية ، الأمر الذي زاد المسألة تعقيداً .

٢- كلفت حكومة مارتيدياك قائد أسطول الحصار الفرنسي الأميرال دولا بروتونيير الاتصال بالداي وأن يعرض عليه هدنة مؤقتة تتضمن :

أ- إرسال مندوب عن الداى إلى باريس لتقديم الاعتذار .

ب- إطلاق سراح السفن البابوية المحتجزة لدى الجزائر .

جرى الاجتماع في قصر الداى بينه وبين قائد أسطول الحصار , ولكن لم يود إلى نتيجة إيجابية , وعندما هدد القائد الفرنسي بلجوء فرنسا إلى القوة رد الداى قائلاً لذي البارود والمدافع . والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا حاولت فرنسا إشراك الدول الأوروبية في قضية الجزائر , ومتى نصبت نفسها محامياً عن البابوية ؟ ونحن نعرف العدواة التقليدية بين الدولتين . أليست هذه المحاولات من جانب فرنسا دليلاً على إعطاء طابع دولي لمشروعها الاستعماري في احتلال الجزائر ؟

ولزاد الأمر خطورة عندما تعرضت سفينة دولا بروتونيير لقصف مدفعية الميناء , وعلى الرغم من إعلان الداى بعدم معرفته بما حدث , وأقال أمير البحر وقائد المدفعية , ووعد بمعاينة المسؤولين عن الحادثة (٢٩) , إلا أن فرنسا لم تقبل ما تقدم به الداى من إيضاحات حول الحادث والتي تعتبر بمثابة اعتذار , واعتبرته المسؤول الأول عما جرى الأمر الذي عقد القضية أكثر فأكثر . استقالت حكومة مارتيلاك , وكلف الملك بولينياك بتشكيل حكومة جديدة من الملكيين المتطرفين للمرضى عنهم من قبل الملك الفرنسي شارل العاشر . واستقبل الرأي العام الفرنسي هذه الحكومة باستياء ونقمة شديدين , لأن رئيسها من حاشية ماري أنطوانيت القديمة , وقام باختيار وزرائه من بين الملكيين المتطرفين أنصار نظام الامتيازات القديمة , والقضاء على المبادئ والقيم التي جاءت بها الثورة الفرنسية , ومما زاد في نقمة الشعب هو أن أحد أعضاء هذه الحكومة كان بوربوننت الذي أسند إليه منصب وزير الحربية , ولم ينس الفرنسيون أنه خان نابليون في معركة واترلو وشهد في محاكمة الماريشال ناي , وكان ذلك كافياً لأن يكون مكروهاً من قبل الرأي العام الفرنسي (٣٠) .

اهتم بولينياك منذ البداية بإعادة الهيبة والسمة للملكية الفرنسية التي كانت تنقصها. حيث مثلت الملكية في نظر الرأي العام الفرنسي كل ما قام به الحلفاء - بعد انتصارهم على نابليون - من إذلال لفرنسا ؛ وخاصة بعد قبولها لمعاهدة فيينا عام ١٨١٥م التي فرضت عليها شروطاً مخزية .

عمل رئيس الحكومة وبجدية تامة من أجل تحطيم هذه المعاهدة ، لأنها السبيل الوحيد لإعادة هيبة الملكية الفرنسية في نظر شعبها . وترك المسألة الجزائرية جانباً ، وبدأ يفكر في وضع مشروع جديد لإعادة تنظيم خارطة أوروبا ، وساعدته في ذلك الأوضاع الجديدة الناجمة عن اندلاع الحرب الروسية - العثمانية ، واقترب الروس من العاصمة العثمانية . فاحتمل نشوب نزاع أوروبي كان أمراً متوقعاً ، مما شجع الحكومة الفرنسية على التفكير في عقد مؤتمر دولي بهدف إعادة تنظيم أوروبا من جديد . ولكن مشروع بولينياك الخيالي بقي في فكره ودفن قبل ولادته .

ولم يجد بولينياك أمامه إلا طرق باب المسألة الجزائرية من جديد ، حيث توجه بالطلب أولاً إلى السلطات العثمانية للضغط على الداي لقبول المطالب الفرنسية ، لكنه فشل - نظراً لضعف السلطنة وعدم قدرتها فعل أي شيء مع الداي - الأمر الذي دفع بولينياك للتوجه إلى محمد علي في مصر (١١) .

٥ - بوليتيكا ومحمد علي

اهتمت فرنسا بالنقد والاصلاحيات التي أدخلها محمد علي باشا على نظام الإدارة المصرية ، وذلك من أجل بناء دولته على أسس عصرية متطورة ، وكان النفوذ الفرنسي قوياً في مصر بفضل المساعدات التي قدمتها فرنسا من أجل بناء دولة محمد علي ، وبسبب مخلوف هذا الأخير من الأطماع الروسية الإنكليزية .

جمعت المصلحة المشتركة بين فرنسا ومحمد علي ورأى الجانب الفرنسي في دعم محمد علي ضرورة استراتيجية لوقف المطامع الروسية الإنكليزية ، ومساعدته على بناء دولته ، وإذا تم ذلك فإن فرنسا ستحصل على فائدة كبرى في حال نجاح محمد علي في بناء امبراطورية عربية على حساب الدولة العثمانية .

أما من ناحية محمد علي، فكان هو الآخر بحاجة إلى تليد فرنسا، ومساعدتها من أجل تحقيق مشاريعه الاستراتيجية على حساب الدولة العثمانية الهزلة.

كان القنصل الفرنسي العام في مصر دروفتي شديد الإعجاب بمحمد علي وربطته به صداقة متينة ، وكان على علم بمطامع محمد علي ببلاد الشام ، كما أعرب محمد علي نفسه - للجنرال بوايه (Boyer) رئيس البعثة العسكرية الفرنسية، التي تشرف على تدريب الجيش المصري - عن رغبته في احتلال بلاد الشام.

لكن السفير الفرنسي في مصر نيه محمد علي إلى خطورة هذا المشروع ، والمصاعب التي ستنتج عنه بسبب اهتمام الدول الأوروبية في هذه المنطقة ، وأخذ يحث محمد علي على التوسع في منطقة غرب المتوسط وبالتحديد المغرب العربي (٢٧).

شجع السفير الفرنسي محمد علي بالتوجه نحو الحوض الغربي للمتوسط ، وتأسيس امبراطورية تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي، وظل دروفتي - بعد انتهاء مهامه في مصر كسفير فرنسي - مهتماً بالموضوع من خلال متابعتها له في الأوساط السياسية الفرنسية في باريس من أجل تحقيقه .

وكان القنصل الفرنسي الجديد في مصر ميمو يشاطر دروفتي الرأي .
وبين دروفتي في تقريره الذي رفعه إلى بولينياك الأهمية الكبيرة من عمل
توسعي يقوم به محمد علي على حساب الولايات العثمانية في المغرب العربي .
والذي سيكون له فعالية أكبر من التدخل الفرنسي ، ويوفر على فرنسا مبالغ طائلة
من أجل إعداد الحملة وتذليل الصعوبات الكثيرة التي ستواجهها ، ويقتصر الدور
الفرنسي فقط في حال تدخل محمد علي على عدد من رجال المدفعية ومبلغ من
المال يصل إلى ١٠ مليون فرنك ، وبين دروفتي في تقريره المقدم إلى الحكومة
الفرنسية عام ١٨٢٩م فوائد هذه العملية في النقاط التالية :

١- توفير النفقات الضخمة على فرنسا وتوظيفها لتنفيذ مشاريع إستعمارية في
مناطق أخرى من العالم .

٢- استعادة العلاقات الدبلوماسية مع محمد علي بإعطائه هذا المشروع ليعوض
خسائره في الحرب اليونانية .

٣- تجذب معارضة بريطانيا التي قد تتراجع عن موقفها العدائي من فرنسا
عندما يصبح المشروع إسلامياً بحتاً .

٤- كسب فرنسا رضى الباب العالي عندما تعود ولايات المغرب العربي -
والتي ترتبط به إسمياً - إلى إدارته .

٥- تحويل أنظار محمد علي عن التوسع على حساب الدولة العثمانية في بلاد
الشام ، وما قد يثيره هذا التوسع من اندلاع أزمة دولية حادة .

٦- تتخلص أوروبا من (القرصنة) في المغرب العربي ، وسيعترف العالم
بأسره بالجميل لفرنسا صاحبة هذا المشروع (١٣) .

وأكد دروفتي في تقريره بأن احتلال الجزائر لن يكون صعباً على الجيش
المصري المعتاد على شطف العيش وصعوبات السير في الصحراء ، حيث
أثبتت حروبه في السودان والحجاز ذلك ، وبين أيضاً أن السلطان العثماني لم
يعترض على مشروع حملة محمد علي وذلك للأسباب التالية :

- أ- إعادة ولايات المغرب العربي إلى سلطة الدولة العثمانية .
ب- سيدفع محمد علي جزءاً من واردات هذه الولايات إلى الدولة العثمانية ،
والتي يرفض حكامها الحاليون دفع أي شيء .
ج- إبعاد خطر محمد علي عن الدولة العثمانية والولايات العربية التابعة لها في
المشرق (١٤) .

تحمس رئيس الحكومة الفرنسية بولينياك لهذا المشروع الذي اقترحه
للقنصل السابق في مصر دروفتي ، وعمل كل ما في وسعه لإنجاحه ، وقد تبنى
بولينياك هذا المشروع للأسباب التالية :

- ١- كان يعتقد بصعوبة إرسال حملة فرنسية إلى الجزائر في حينها نظراً لكثرة
النفقات التي تتطلبها .
 - ٢- ستضع حملة محمد علي حاكم مصر حداً للأضرار التي تلحقها النيابات
العثمانية في المغرب العربي بالدولة الفرنسية .
 - ٣- سيساعد المشروع في توطيد العلاقات بين فرنسا ومحمد علي ، وسيسمح
لفرنسا باحتلال نقاط عسكرية هامة على الشاطئ المغربي .
- عمل بولينياك على تذليل العقبات التي تعترض هذا المشروع من خلال
اتباعه لعدد من الخطوات لدى ممثلي حكومته في الخارج من أهمها :
- أ- الطلب من القنصل الفرنسي في مصر ميمو الدخول في مفاوضات مع محمد
علي ومعرفة موقفه من المشروع الفرنسي .
 - ب- إبلاغ الملحق العسكري الفرنسي في السفارة الفرنسية في استانبول
بالالتحاق بمصر ، ودعم مساعي القنصل الفرنسي فيها لدى محمد علي .
 - ج- تكليف السفير الفرنسي في عاصمة الدولة العثمانية بالحصول على موافقة
السلطان العثماني على المشروع ، وذلك عن طريق تقديم مذكرة له يشرح
فيها أهمية إبعاد محمد علي عن التفكير بالتوسع على حساب أقاليم الدولة
العثمانية العربية في المشرق (١٥) .

وفي الوقت نفسه قدم القنصل الفرنسي في مصر بمساعدة هودر الملحق العسكري الفرنسي مشروعاً لمحمد علي تضمن النقاط التالية :

- ١- يتعهد محمد علي أن يقوم بالحملة بنفسه ودون الاستعانة بغيره .
- ٢- تقدم فرنسا لمحمد علي قرصاً قدره ١٠ مليون فرنك تدفع على أقساط . وأن يقوم بتسديدها في فترة لا تزيد عن عشر سنوات .
- ٣- تتعهد فرنسا بتسديد الحصار على سواحل الولايات العثمانية في المغرب العربي ، وذلك لضمان نجاح هذا المشروع .

حرص محمد علي على عدم معرفة السلطان العثماني بهذا المشروع الفرنسي - المصري حتى لا يثير شكوكه ، وكان يخشى أن يفسر السلطان مسمى السفير الفرنسي لديه بأنه تواطؤ بين فرنسا ومصر ، وفضل العمل على تنفيذ المشروع مباشرة دون تأخير وبذلك يتم وضع الدولة العثمانية تحت الأمر الواقع (١١) . بمعنى آخر العمل سراً بين فرنسا ومحمد علي دون علم الباب العالي ، وذلك خشية قيامه بتحريك لدى حلفائه وخاصة إنكلترا ، والعمل على إحباط هذا للمشروع.

وافق محمد علي على إعداد مشروع حملة عسكرية لاحتلال الجزائر ، ووضع مجموعة من الشروط رأى الجانب الفرنسي - في بعضها - محاولة لعرقلة المشروع ، وأهمها :

- ١- أن تكون الحملة مصرية بحتة بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، ويتألف الجيش من ٤٠ ألف جندي نصفه نظامي ينقل عن طريق البحر ، والنصف الآخر من البدو يتم نقله إلى الجزائر عن طريق البر .
- ٢- عدم مشاركة الأسطول الفرنسي في هذه الحملة سواء في نقل الجنود أم في التدخل المباشر في الهجوم .
- ٣- قيام فرنسا بإحكام الحصار على شواطئ المغرب العربي ، وذلك حتى يرى قائد الحملة أنه لم يعد بحاجة إليها .

٤- وضع فرنسا ضباط مدفعية وهندسة تحت تصرف إبراهيم باشا (١٧) .
٥- دعم فرنسا لمحمد علي بقرض قدره ٢١ مليوناً و ٢٠ ألف فرنك تدفع خلال أربع سنوات .

٦- تزويد فرنسا لمحمد علي بأربع سفن حربية من عيار ٨٠ مدفعاً ، وذلك كهدية وبدون مقابل (١٨) .

حاول القنصل الفرنسي ميمو وزميله هودر إقناع محمد علي بالتنازل عن طلب السفن مؤكداً أن الأسطول المصري لايحتاج إلى هذه السفن لتنفيذ المهمة ، خاصة وأن الحملة المصرية ستكون برية وليست بحرية ، لكن محمد علي لم يقبل طلب القنصل وتمسك بطلبه كشرط أساسي لقيامه بهذه الحملة .

وطالب هودر في مذكرته التي أرسلها لبوليناك بضرورة منح محمد علي هذه السفن كثمن لمساعدته ، وقبل رئيس الحكومة الفرنسية طلب هودر ، لكنه اصطدم بمعارضة وزير البحرية والحربية ، فوزير الحربية بورمونت كان من أنصار التدخل الفرنسي المباشر ، وانتقام فرنسا بنفسها للإهانات التي لحقت بها من الحكومة الجزائرية ممثلة بالداي ، وليس عن طريق طرف ثالث يمثل محمد علي حاكم مصر الذي لأعلاقة له بالموضوع ، وبين بورمونت إمكانية فشل حملة محمد علي ، لأن عدد الجند النظامي غير كاف ولأن غالبية عناصر الجيش من البدو غير المدربين وغير المؤهلين على خوض الحروب ، ثم إنه من الصعب على هذه القوة أن تقطع مسافة ٣٠٠٠ كم للوصول إلى الجزائر .

كما رفض وزير البحرية التنازل عن السفن الأربع التي طلبها محمد علي كشرط أساسي للقيام بحملته ، لأن الموافقة على هذا الطلب تعني إضعاف البحرية الفرنسية أمام أعدائها ، وهدد وزير البحرية بالإستقالة في حال قيام فرنسا بتسليم أية قطعة من أسطولها لمحمد علي (١٩) .

لم يكن موقف وزير البحرية والحربية ضد هذا المشروع غريباً ، خاصة وأنهما عضوان في الحكومة الملكية المتطرفة ، ولا سيما بورمونت الذي

خان نابليون بونابرت في معركة واترلو وساءت سمعته لدى الرأي العام الفرنسي ، فأرد من معارضته لمشروع حملة محمد علي أن يغسل عاره بدماء الجزائريين ، وإعادة هيبته ومكانته في نظر الرأي العام الفرنسي .

أدت معارضة وزيرى البحر والجيش إلى مداولات ومناقشات طويلة بين أعضاء الحكومة الفرنسية ، وبالحاح منها وافق مجلس الوزراء على فتح اعتماد قدره ٢٨ مليون فرنك ، منها ٢٠ مليوناً تدفع قرضاً بدون فائدة لمحمد علي ، و٨ مليون لشراء أو بناء السفن الأربع التي طلبها .

وما أن تخطى بولينياك هذه العقبة في طريق حملة محمد علي حتى ظهرت أمامه عقبة أخرى تمثلت في رفض السلطان العثماني للمشروع ، لأنه رأى خطورة تحالف محمد علي مع فرنسا ضد السياسة العثمانية ، الأمر الذي دفع الدبلوماسية العثمانية إلى أن تتخذ إتجاهاً مغايراً ، فقامت بعزل الجزائر عن النيابات الأخرى التابعة لها في المغرب العربي ، وعارضت وساطتها لتسوية الخلاف القائم بين فرنسا والداي حسين حاكم الجزائر ، حيث قامت بإرسال محمد طاهر قائد الأسطول العثماني في معركة نافارين ، لإقناع الداى بالتفاهم مع فرنسا لتجنب التدخل المسلح ، إلا أن فرنسا تمسكت بالمشروع ، وقررت العمل ضد النيابات العثمانية الثلاث ، على الرغم من عدم وجود مشكلات مع تونس وليبيا ، ورفضت الوساطة العثمانية .

يعطينا الرفض الفرنسي للوساطة العثمانية دليلاً قاطعاً على عدم رغبة الأوساط السياسية الفرنسية في حل الخلاف مع الجزائر. بل يؤكد رغبتها في إقامة مملكة عربية في المغرب العربي بمساعدة حليفها محمد علي. وتكون هذه الخطوة مرحلة أولى من مشروع لمد النفوذ الفرنسي من الأطلسي إلى قلب آسيا، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت ضعيفة وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وهي عاجزة بالتالي عن مقاومة أي نفوذ تقوم به فرنسا تحت الستار الذي اقترحتة (محمد

على)، وذلك خشية إثارة حفيظة المسلمين من جهة والدول الأوروبية ذات المصالح المتناقضة معها من جهة أخرى ولا سيما بريطانية، ونرى في قول السفير الفرنسي في استانبول للسلطان العثماني، بأن فرنسا ستقوم بالمشروع بنفسها؛ وذلك في حال عدم قيام محمد علي به، دليلاً آخر على المطامع الفرنسية في المغرب العربي عامة وفي الجزائر خاصة.

٦- موقف الدول من المشروع الفرنسي-المصري

من الواضح أن مشروعاً خطيراً كهذا لا يمكن أن يبقى خفياً على الدول ذات المصالح المختلفة في أقاليم الدولة العثمانية المريضة، وبشكل خاص إنكلترة، لذلك لابد لنا من أن نعرف موقف هذه الدول من المشروع، والمبررات الفرنسية في الرد على هذه الدول.

١- موقف بريطانيا

لم يكن بالإمكان أن يبقى المشروع الفرنسي-المصري سرياً، فقد تنبّهت إليه بريطانيا عن طريق سفيرها في استانبول، وعن طريق الصحف الفرنسية. واتضح الأمر أكثر عندما اعترف رئيس الحكومة الفرنسية نفسه بذلك رسمياً بمذكرة توجه فيها إلى الدول في منتصف كانون الثاني عام ١٨٣٠م، وتتلخص هذه المذكرة في أن محمد علي عرض على فرنسا الاشتراك بمشروع غزو الجزائر؛ بحيث يوفر عليها تكاليف إرسال جيش لاحتلالها، وإرسال جيش مصري يحقق النتائج المرجوة من الحملة، لصالح الدول الأوروبية عامة، وتخليصها من (القرصنة) التي تمارسها البحرية الجزائرية والدولة العثمانية^(٥٠)، بمعنى أنكرت فرنسا طرح المشروع على محمد علي عن طريق قنصلها ميمو المقيم في مصر.

على أية حال، بدأت إنكلترة بالعمل الجاد من أجل إحباط هذا المشروع فور تلقّيها معلومات من العاصمة العثمانية حوله، ويبدو أن الدولة العثمانية

نفسها هي التي نشرت هذه المعلومات لكي توقع بين الدولتين ، وتخفف من ضغطهما عليها وهي تصارع سكرات الموت الأخيرة .

كانت الحكومة البريطانية تعارض وبشدة أية مبادرة من جانب فرنسا لخلط المسائل الشرقية بالمسألة الجزائرية، وعلى الرغم من علاقات الصداقة المتينة التي تربط وزير الخارجية البريطاني مع رئيس الحكومة الفرنسية بولينياك ، فإنه لم يتأثر بالحجج التي قدمها الأخير لمشروع محمد علي ، ولم يخف دهشته من الغموض الذي أحيطت به المفاوضات مع محمد علي .

رفضت بريطانيا قطعاً هذا المشروع ، وشجعت السلطان العثماني على مقاومته ، وبيّنت له مخاطره ، وأعلنت أنها لا تقبل بتغيير الوضع الراهن في المغرب العربي نظراً لأهميته الاستراتيجية . فالوجود الفرنسي في الجزائر يقطع طريق الاتصال بين قاعدة بريطانية في جبل طارق وجزيرة ومالطة .

وحذرت بريطانيا أيضاً محمد علي عن طريق سفيرها في مصر بعدم القيام بهذا المشروع ، وأنذرتته بالعواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب على القيام به ^(٥١) . وإذا لم يفعل ذلك ستسبب له المتاعب في المتوسط وسورية والبحر الأحمر . وطلبت الحكومة البريطانية من قنصلها أن يؤكد لمحمد علي أن إنكلترا تعارض معارضة شديدة تحالفه مع فرنسا ، وأنها ستعمل من أجل ذلك في استانبول ، ونبهت الحكومة البريطانية حكام تونس وطرابلس بالخطر الذي يتهدهما جراء هذه الحملة ، وعملت في الوقت نفسه على شحن الرأي العام الأوروبي وحكامه ضد السياسة الفرنسية .

وجدت بريطانيا في مترنيخ حليفاً قوياً لها حيث أيد الإبقاء على الوضع الراهن ؛ خشية أن تغرق أوروبا في الفوضى والأخطار مرة أخرى ، وطلب مترنيخ من ممثله في استانبول ضرورة حث الحكومة العثمانية على الإسراع في إرسال طاهر باشا إلى الجزائر لحل المشكلة مع فرنسا ^(٥٢) .

٢- موقف روسيا

كانت السياسة الروسية ، منذ أيام القيصر الكسندر الأول ، تشجع فرنسا على احتلال المغرب العربي كحصّة لها من ممتلكات الدولة العثمانية المنهارة ، وكان هدف روسيا زرع الخلاف بين فرنسا وبريطانية ، ولكنها أظهرت ، بالوقت نفسه ، قلقها من السياسة الفرنسية الجديدة ، لأن التقارب بين فرنسا ومحمد علي يمكن أن يكون له نتائج خطيرة على مطامعها بالمضائق ، ولهذا نصحت بوليناك بمشروع احتلال الجزائر مباشرة ، وليس عن طريق محمد علي حاكم مصر .

٣- موقف إسبانيا

كان الموقف الإسباني ، كدولة ضعيفة في تلك الفترة ، غير واضح بشكل جيد وغير حازم ، لخوفها من انتقام البحارة الجزائريين (القراصنة) من جهة ، ولخوفها من بريطانيا التي كانت تتحكم بالسياسة الإسبانية الخارجية إلى حد ما من جهة أخرى ، ومن أجل هذين العاملين بالذات كان من الصعب تحديد الموقف الإسباني بدقة ، لكنه وفق كل الاحتمالات كانت إسبانيا تؤيد الموقف البريطاني الرامي إلى إحباط المشروع الفرنسي-المصري المحتمل لاحتلال الجزائر .

٤- موقف بروسيا

كان الموقف البروسي مؤيداً لفرنسا في مشروعها العسكري لاحتلال الجزائر ، وذلك بغض النظر عن كيفية وألية هذا الاحتلال ، وتجلي موقف بروسيا بوضوح في تصريحات سفيرها في استانبول والقاهرة ، وكانت ترغب في إبعاد فرنسا عن القيام بمشاريع توسعية في أوروبا ، خاصة في التفكير بالرائين وبلجيكة ، حيث كانت بروسيا تطمح بضمهما إليها .

أما بالنسبة إلى بقية الدول الأوروبية البحرية فقد أيدت المشروع . لأنه يقدم خدمة فائقة لأوروبا في القضاء على (القرصنة) الجزائرية المهددة للشواطئ والسفن الأوروبية عامة (٥٣) .

أمام هذه المواقف المعارضة للمشروع الفرنسي ، وبشكل خاص من جانب إنكلترة، كان لابد لبولينياك أن يعدل في هذا المشروع الذي اقترحه على محمد علي . بحيث يقسم العمل بين القاهرة وباريس ، وذلك على النحو التالي : يقوم محمد علي باحتلال تونس وطرابلس ، في حين تقوم فرنسا باحتلال الجزائر، لكن محمد علي رفض تقسيم المشروع وأراد أن تكون الحملة مصرية (٥٤) .

إلى جانب هذه الصعوبات الخارجية المتمثلة بالمعارضة البريطانية للمشروع ، اصطدم بولينياك بالمعارضة الفرنسية في الداخل ، التي أخذت تشتد ضد قرار الحكومة في الاعتماد على محمد علي ، ووقف الجيش ، منذ البداية ضد هذا المشروع ، الأمر الذي أجبر بولينياك على تغيير موقفه هو الآخر، وانحاز إلى مؤيدي التدخل الفرنسي المباشر والمنفرد في احتلال الجزائر. وأعلن بورمونت وزير الحربية للجيش أن من واجبه الحصول على نجاح قبل الانتخابات ، ولم يكن مترنيخ خبير الرجعية في أوروبا مخطئاً حين قال: "ليس من أجل ضربة كشاشة الذباب يصرف ١٠٠ مليون ويجهز ٤٠ ألف رجل.. " (٥٥) .

٧ - الحملة الفرنسية على الجزائر

شهدت الساحة السياسية الفرنسية وجود تيارين كانا يضغطان على الحكومة الفرنسية لحثها على التدخل المباشر وإرسال حملة لاحتلال الجزائر هما: الأول : الحزب الملكي الذي وجد في الحملة الفرنسية توطيداً للملكية ، ونفوذ الملك شارل العاشر .

الثاني : الأوساط التجارية ، وخاصة في شواطئ مرسيليا التي أملت بتطوير تجارتها بعد احتلال الجزائر ، ولا سيما أن الحصار الفرنسي للجزائر ألحق بمصالحها التجارية أضراراً فادحة (٥١) .

وقبل أن تتخذ الحكومة الفرنسية قرارها النهائي بإرسال الحملة رأت أن تأخذ رأي قيادة الجيش والبحرية واقتراحاتها بخصوص الاستراتيجية العسكرية الأفضل التي تسهل وصول الحملة ، وتحقيق أهدافها بالسرعة الممكنة دون التعرض لخسائر وأضرار تضيق صفحة سوداء إلى تاريخ الملكية الفرنسية .

كان وزير الحربية بورمونت دوبوتي يؤيد الاستيلاء على نقطة ارتكاز مثل وهران والسير منها إلى مدينة الجزائر ، ولكن توار عارض هذا الرأي بقوله : " إن احتلال وهران أصعب من احتلال الجزائر ، فمن وهران سيكون أمامك ١٥٠ فرسخاً أي ٦٠٠ كم تجتازها إلى الجزائر في بلاد وعرة جبلية ، وإذا أرسلت مئة ألف جندي لن يصل منهم إلا خمسة آلاف " (٥٢) .

وقبل أن يتخذ مجلس الوزراء الفرنسي قراره النهائي ، رغب الوزراء في التفاهم مع ضباط البحرية والهندسة والمدفعية ، لأخذ رأيهم حول الحملة العسكرية ، وما يمكن أن يعترضها من صعوبات ، والتكتيكات العسكرية الأفضل للوصول إلى الجزائر بأقل عدد محتمل من الخسائر المادية والبشرية . قام الوزراء مجمعين بتوجيه السؤال التالي إلى ضباط البحرية : هل يمكن إنزال حملة عسكرية تهاجم للجزائر من جهة البر ؟ وما هو الميناء الجزائري الأكثر ملاءمة لظروف الحرب لإنزال هذه الحملة ؟ وقد أجمع ضباط البحرية الفرنسيون بعدم إمكانية إنزال حملة ذات عتاد كبير ، وذلك لأن العملية ستستغرق ما بين إسبوعين وثلاثة أسابيع ، بالإضافة إلى الصعوبات التي ستواجه الجيش أثناء النزول وبعده .

تصدى الضابط البحري دوبوتي توار ، وفند مزاعم الضباط بقوله : إن هذا أمر ممكن ، وضرب لهم مثلاً عن الأميرال الإنكليزي كوشران الذي أنزل بواسطة البحرية البرازيلية ١٢ ألف جندي من الجيش البري في ست ساعات

عام ١٧٧٥م، ودعم قادة الجيش البري إمكانية نجاح الحملة . ودام النقاش بين ضباط البحرية والحكومة حوالي أربع ساعات (٥٨) . وفي ٣١ كانون الثاني عام ١٨٣٠م إتخذت الحكومة الفرنسية قرارها بالإجماع بالتدخل المنفرد وإرسال حملة ضد الجزائر . وفي السابع من شباط من العام نفسه أمر الملك شارل العاشر بالتعبئة العامة للجيش بقسميه البري والبحري . وتم اختيار بورمونت وزير الحربية قائداً عاماً للحملة . وكان الغرض من هذا الاختيار سياسياً ليغسل عار ماضيه ويمتعيد هيئته وسمعته أمام الرأي العام الفرنسي . وتم اختيار دوبري قائداً للأسطول الفرنسي .

واجهت الحكومة مشكلة في اختيار القائد الأعلى للعمليات العسكرية ، وترددت بين بورمونت ودوبري : فلو كلف دوبري فسيكون للحملة طابع حملة بحرية ضد الجزائر . وفي حال اختيار بورمونت فسيكون للحملة طابع عسكري يرسم سياسة الحكومة في عملها المستقبلي في الجزائر . خاصة وأن القائدين يختلفان في أرائهما وميولهما السياسية ، وتكمن صعوبة الاختيار في تأثيره على سير العمليات العسكرية مما قد يؤدي إلى فشل الحملة . وكان على الحكومة أن تأخذ احتياطاتها ، حيث أصدرت في ١٨ نيسان عام ١٨٣٠م أمراً سلم إلى كلا القائدين بصفة شخصية ، وأعلن بولينيكاك فيه أنه في حال حدوث خلاف بين القائدين . وأن هذا الخلاف يمكن أن يؤثر على نجاح العمليات ، فعلى بورمونت أن يأخذ قيادة القوات البرية والبحرية معاً على الفور .

٨ - موقف الدول من القرار الفرنسي بالتدخل المباشر لاحتلال الجزائر

١ - موقف بريطانيا

من الطبيعي أن تكون معارضة هذا القرار جاءت فقط من إنكلترة ، وهي التي عارضت في السابق المشروع الفرنسي - المصري لاحتلال الجزائر ، ونجحت في إحباطه ، أما بخصوص القرار الفرنسي بالتدخل المنفرد لم تستطع الدبلوماسية البريطانية النجاح في إعاقة القرار الفرنسي ، ونجحت فرنسا في إتمام مشروعها واحتلت الجزائر .

وتكمن المعارضة البريطانية في أن احتلال الجزائر سيكون نقطة ارتكاز استراتيجية للوجود الفرنسي في المغرب العربي . وسيهدد التفوق البريطاني في حوض البحر المتوسط . وقد أثار قلق إنكلترة أن ترى فرنسا تستعيد مكانتها السياسية في العالم . خاصة بعد هزيمتها المنكرة وتدميرها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً في معركة واترلو . وخضوعها صاغرة للمعاهدات المخزية التي فرضت عليها . والتي لعبت فيها بريطانيا دوراً هاماً بقصد إبعاد أخطر منافس لها .

رأت بريطانيا أن فرنسا عادت وتدخلت في إسبانيا عام ١٨٢٢م . واشتركت في معركة نافارين . وتدخلت في شبه جزيرة المورة . وكان مما زاد في قلق بريطانيا انتصار روسيا على الدولة العثمانية وفرضها عليها معاهدة أنقرة عام ١٨٢٩م . هنا أدرك مخططو السياسة البريطانية خطورة الموقف . وخاصة في حال قيام تحالف فرنسي-روسي . لأن ذلك سيعرقل المشاريع البريطانية في الأقاليم الشرقية والغربية التابعة للإمبراطورية العثمانية الهرمة^(٥٩).

على أية حال . أبلغت الحكومة الفرنسية الدول الأوروبية بقرارها النهائي بشأن إرسال حملتها لاحتلال الجزائر . وذلك بذاكرة مؤرخة في ٤ شباط عام ١٨٣٠م . وأوضحت المذاكرة أهداف المشروع الفرنسي . والذي سيضع حداً لقضية الجزائر . ونلخص أهداف هذا المشروع في النقاط التالية :

- ١- القضاء على (القرصنة) الجزائرية والتخلص من هجماتها على سواحل الدول الأوروبية . ووضع حد للأتوات التي يدفعها حكام هذه الدول للجزائر .
- ٢- يهدف المشروع الفرنسي إلى سلامة الملاحة في البحر المتوسط .
- ٣- اعتبار الشاطئ الجنوبي للمتوسط نقطة تلاقي لجميع الحضارات^(٦٠) .

أثارت المذاكرة الفرنسية الصريحة والعلنية قلق إنكلترة . وكلفت سفيرها لدى فرنسا بمراقبة الوضع وتزويدها بالمعلومات . وأخذ السفير البريطاني ينقل

ما يستطيع أن يحصل عليه من معلومات تتعلق بالإستعدادات الفرنسية للحملة برأ وبحراً للوثوب على الجزائر واحتلالها .

وأخذت بريطانيا تلح - عن طريق المفاوضات مع السفير الفرنسي لديها والسفير البريطاني في باريس - على تقديم ضمانات بتعهد مكتوب بعدم الإقامة الفرنسية الدائمة في المغرب العربي ، وأن تقتصر حملتها العسكرية على الثأر للإهانات التي لحقت بها بعد حادثة كشاشة الذباب (١١) ، بالمقابل أراد بوليناك بهذه المذكرة إعطاء المسألة طابعاً دولياً يجب أن يناقش بين جميع الدول ، وقد هدف من وراء ذلك إلى غرضين هما :

الأول : فتح الطريق إلى مشاريع واسعة ، مثل إعادة تنظيم أوروبا ، وخروج فرنسا من عزلتها والعار الذي لحق بها والمهادنات التي فرضت عليها .
الثاني : ضرب المعارضة الإنكليزية للمشروع الفرنسي ، لأن تدويل المسألة سيعود بالفائدة على فرنسا التي ستحصل على مساعدة قيصر روسيا صديق شارل العاشر ملك فرنسا ، ولأن قيصر روسيا يرحب بأي مشروع تحالف مع فرنسا ضد بريطانيا لضرب الدولة العثمانية .

٢- موقف بقية الدول

أما بالنسبة لموقف الدول الأخرى، من مشروع القرار الفرنسي بخصوص التدخل المباشر والمنفرد من أجل احتلال الجزائر ، فإنها جميعاً (تقريباً) موافقة على هذا القرار ، فالقيصر الروسي أعطى موافقته دون أدنى تحفظ على المشروع ، لأنه يرغب بالتحالف مع أية دولة عدوة لبريطانية التي تقف بالمرصاد في وجه مشاريعه التوسعية على حساب الدولة العثمانية ، وتبذل ما في وسعها لمنعها من الوصول إلى المياه الدافئة .

وكان الموقف البروسي مشابهاً للموقف الروسي ، حيث أبدت الدولتان موافقتهما منذ البداية على المشروع الفرنسي-المصري ، وتؤكد كل منهما

موقفها الإيجابي من المشروع الفرنسي المنفرد في غزو الجزائر واحتلالها .
أما الموقف الإسباني فقد كان معارضاً في البداية إرضاءً لإنكلترا ،
وللحفاظ على مصالحها ومطامعها في المغرب العربي .

أما ولايات المغرب العربي فقد أبدت المشروع الفرنسي ما عدا طرابلس ،
وكان نفوذ القنصل الفرنسي في تونس قوياً ، وقد تلاقى هذا النفوذ مع الكراهية
التي يكنها باي تونس لداي الجزائر - على مبدأ عدو عدوك صديقك - ، حيث
كان يأمل في إبعاد الداي عن حكم الجزائر وتنصيب أخيه بدلاً منه وذلك
بمساعدة فرنسا ، وكان الموقف التونسي الحكومي واضحاً ومؤيداً للاحتلال
الفرنسي للجزائر ، وقد تجلّى هذا الموقف بوضوح في النقاط التالية :

- ١- السماح لقوات الحملة الفرنسية بالتصوين من تونس .
 - ٢- منع تهريب البارود من طبرق إلى قسنطينة .
 - ٣- منع مرور الجنود الأتراك من تونس إلى الجزائر .
 - ٤- أرسل وفداً لتهنئة قادة الحملة الفرنسية عندما نزلت إلى البر الجزائري (١٢) .
- نرى هنا أن فرنسا استفادت من حالة العداء بين الإيالتين العثمانيتين،
وعزلت باي تونس بالوعد لضم قسنطينة الجزائرية ، لكي تسهل عملية احتلالها
للجزائر ، وتضمن مساعدة الباي لها ، وخاصة في ضبط حدوده البرية والبحرية
في وجه أي تحرك عسكري عثماني ، لكن فرنسا لم تف بوعودها لباي تونس
بعد احتلالها للجزائر ، وذهبت الإيالتان ضحية لتلاعب حكامها الأتراك الغرباء
أصلاً عن شعوب هذه البلاد ، واللامبالين لما يحصل لهما من دمار وخراب ،
فالشعب وحده هو الذي يدفع الثمن عندما يخطئ حكامه .

أما فيما يتعلق بموقف السلطان المغربي فقد كان شبيهاً بموقف باي تونس ،
وكان يأمل أن يسمح له سقوط إيالة الجزائر العثمانية على يد الفرنسيين بالتوسّع
في غرب الجزائر ، وعمل كباي تونس عندما سمح للفرنسيين بالتصوين من

موانئ بلاده ، بالمقابل كان الرأي العام الشعبي مغايراً للرأي الحكومي ، وكان يرفض وبشدة الاحتلال الفرنسي لجارته الجزائر ؛ لأن ذلك يشكل خطراً عليه في المستقبل ، وهذا ما حدث فعلاً عام ١٩١٢م عندما فرضت فرنسا مشروع حمايتها على المغرب (مراكش) . الذي يعتبر شكلاً جديداً للاحتلال ، وإن تغيرت التسمية الاستعمارية .

وجه رئيس الحكومة الفرنسية بولينياك في ١٢ آذار عام ١٨٣٠ مذكرة جديدة للدول ، أعلن فيها الهدف الحقيقي للحملة الفرنسية على الجزائر ، الذي لم يكن يقتصر على الانتقام للراية والشرف الفرنسيين ، وإنما تقديم خدمة للدول الأوربية بالقضاء على النشاط البحري الجزائري (القرصنة) ، وإلغاء الأتاوة التي تدفعها هذه الدول إلى الجزائر (١٣) .

٩ - احتلال الجزائر

اتخذت الحكومة الفرنسية جميع الوسائل والإمكانات اللازمة للعمل على نجاح حملتها العسكرية التي قررت إرسالها لاحتلال الجزائر ، حيث كانت مجهزة بأفضل تجهيز ومزودة بالعتاد والرجال اللازمين ، وذلك لتحقيق الهدف الذي أعدت من أجله (١٤) .

فقد كان جيش الاحتلال مؤلفاً من ٣٠ ألف جندي ومقسماً إلى ثلاث فرق عسكرية:

- فرقة مدفعية للعمليات وعددها ٨٢ مدفعاً .

- ٩٦ مدفع هاون .

- ٩ مدافع صحراء .

وقد وضع هذا الجيش البري تحت قيادة وزير الحربية الفرنسية بورمونت نفسه، وقد ذكرنا سابقاً الأسباب التي دفعت الحكومة الفرنسية إلى اتخاذ قرار تعيين بورمونت قائداً للجيش البري . أما القوات البحرية التي وضعت تحت قيادة دوبري فقد كانت موزعة على النحو التالي :

- ٨٤ سفينة حربية من البحرية الملكية .
- عدد من السفن حمولتها ٧٠ ألف طن .
- عدد من زوارق الإنزال السريع . بالإضافة إلى أسطول الحصار (١٥) .
- عرض بولينياك مشروع خطة إلى مجلس الوزراء حول الإجراءات التي يجب اتخاذها حول تقرير مصير الجزائر بعد احتلالها . ويتلخص المشروع في أربع نقاط ، وترك للمجلس الحق في اختبار إحداهما :
- ١- إبقاء الداوي في حكم الجزائر على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية ، ويحدد له عدد أفراد الجيش وعدد قطعات الأسطول الذي يحق له الإشراف عليها .
- ٢- إعادة الجزائر للدولة العثمانية لإقامة حكومة منظمة تضمن احترام الجزائر للملاحة في البحر المتوسط .
- ٣- تقاسم فرنسا للجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنكلترة .
- ٤- احتلال فرنسا للجزائر بصورة دائمة واستغلالها اقتصادياً .
- بعد دراسة هذا المقترحات من قبل وزراء الحكومة الفرنسية ، وافق أكثرتهم على البند الرابع المتضمن احتلال الجزائر بصورة دائمة ، وإقامة حكومة فرنسية عسكرية لإدارتها وتسيير شؤونها الداخلية والخارجية (١٦) .
- سلمت القيادة العامة للحملة الفرنسية إلى بورمونت ، وطلب منه أن تكون نقطة إنزال القوات في سيدي فرج على الشاطئ الجزائري ، ووضع تحت تصرفه مبالغ كبيرة من المال لشراء الجواسيس والمؤيدين من سكان الجزائر ، وكان عليه أن يضع نصب عينيه احتلال الجزائر كهدف أساسي واستراتيجي للحملة ، وصاحب الحملة ٤٠ مترجماً ، وطلب إليه عدم قبول تراجع الداوي عن تعنته إلا بعد أن يسلمه حصون المدينة وقلاعها ، والسماح له بالرسو آمناً في ميناء الجزائر ، وكان على الداوي أن يجيب على هذه الشروط خلال ثلاث ساعات (١٧) .

أما بعد نزول الحملة فعلى بورمونت ألا يوقف العمليات العسكرية إلا في حال قبول الداي بالشروط التالية :

أ- يرسل الداي وفداً جزائرياً رسمياً إلى باريس لتقديم الاعتذار ، ويتعهده بالغاء (القرصنة) والاتاوات المفروضة على الدول الأجنبية .

ب- هدم حصون مدينة الجزائر وحصون وقلاع المدن الجزائرية الأخرى .

ج- دفع مبلغ ٥٠ مليون فرنك كنفقات للحملة الفرنسية ونفقات أسطول الحصار .

د- تعهد الداي بأن يصبح مجرد باشا تابعاً للسلطان العثماني .

هـ- اعتراف الداي لفرنسا بالسيطرة التامة على الساحل الجزائري بين عنابة وحدود تونس .

و- تأكيد الامتيازات السابقة الممنوحة للفرنسيين وإعطائهم حق احتكار صيد المرجان .

ز- سيطرة القوات الفرنسية على مدينة الجزائر وحصونها كضمان لقيام الداي بتنفيذ الشروط الفرنسية (٦٨) .

أُقلع الأسطول الفرنسي من ميناء طولون في ٢٥ أيار عام ١٨٣٠م ، وتوقف في ٣٠ أيار بأمر من قائده دوبري في خليج بالما في جزر الباليار ، بسبب سوء الأحوال الجوية ، وقد سبب هذا التوقف قلقاً لدى الحكومة الفرنسية التي كانت تترقب بفارغ الصبر إمكانية النجاح السريع للحملة .

تابع الأسطول سيره في ١٠ حزيران نحو الجزائر ، وفي ١٣ حزيران رسا في الطرف الغربي من شبه جزيرة سيدي فرج على الشاطئ الجزائري ، وفي اليوم الرابع عشر من الشهر نفسه بدأ الأسطول بعمليات إنزال جنوده .

أما فيما يتعلق باستعدادات الجانب الجزائري ، فكان الداي يعلم بمكان نزول الحملة ، وذلك عن طريق أحمد باي قسنطينة الذي تلقى رسائل بهذا الخصوص من جواسيسه المقيمين في جبل طارق ومالطة ، وأعلم الداي بهذه

المعلومات المهمة على الفور ، لكن الداي أهمل هذا وقلل من إمكانية مقبرة الفرنسيين على النزول إلى البر من ناحية سيدي فرج (١٩) .

استطاع الداي أن يجمع خمسين ألف مقاتل لمواجهة قوات الحملة الفرنسية، وكانت هذه القوات موزعة على النحو التالي :

١- قوات من حامية الجزائر العثمانية وهي العنصر الرئيسي المحارب بين قوات الداي .

٢- قوات باي فسنطينة وعددها ثلاثة آلاف جندي .

٣- قوات باي وهران وعددها ستة آلاف جندي .

٤- قوات باي تيطري وعددها ثمانية آلاف جندي .

٥- قوات من بلاد القبائل قدر عددها بحوالي ١٦ ألف جندي .

أوكل الداي حسين قيادة القوات الجزائرية لصهره إبراهيم أغا ، الذي لم يكن يتمتع بالكفاءة والحنكة العسكرية والتبصر (٧٠) ، وهي الصفات التي يجب أن يتصف بها القائد العسكري ، وقد ثبت ذلك أثناء إدارة المعركة العسكرية ضد الغزاة الفرنسيين .

١٠- إنزال الحملة والهجوم الجزائري

بدأ نزول القوات الفرنسية في سيدي فرج في ١٤ حزيران ، وكانت عملية النزول صعبة بالنسبة إلى الجنود الفرنسيين ، حيث رافقها كثير من البلبلة والقلق، ويصف آزان (Azan) عملية النزول بقوله : " لو أن الجزائريين أطلقوا النار على الحملة أثناء النزول ، ونصبوا لها الكمائن في التلال القريبة من سيدي فرج لاستطاعوا أن يلحقوا أضراراً فادحة بالقوات الفرنسية (٧١) .

شن قائد القوات الجزائرية إبراهيم أغا هجوماً على القوات الفرنسية في ١٩ حزيران عام ١٨٣٠م ، واستفاد من الضباب في الوصول إلى الخطوط الفرنسية على الرغم من ضعف كفاءته ، ونشبت معركة بين الطرفين بالسلاح

الأبيض ، وحدثت بلبلة في صفوف الجيش الفرنسي ، واستمر ذلك حتى تدخل الأسطول الفرنسي الذي أنقذ الوضع الحرج لقواته وحول هزيمتهم إلى نصر . استغل الفرنسيون هذا الوضع وتحولوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، وتمكنوا من السيطرة على أسطى والي ، وفي ٢٤ حزيران شن الجزائريون هجوما جديدا ضد جيش الغزو ، وتقدموا نحو سيدي بوخالف واستولوا عليه ، واستمرت الهجمات الجزائرية بين ٢٥-٢٨ حزيران ، ولكن الفرنسيين استكملوا استعداداتهم ، وهاجموا حصن الامبراطور في ٢٩ حزيران ، حيث بدأت معركة حصن الامبراطور في ٣٠ حزيران ، واشترك الأسطول الفرنسي في هذه المعركة في يومي ١ و ٢ تموز ، ولقي الفرنسيون مقاومة عنيفة من حامية الحصن ، لكن في صباح ٤ تموز ضعفت المقاومة الجزائرية واستطاعت القوات الفرنسية الاستيلاء على حصن الامبراطور ، وقامت بتدميره في الساعة العاشرة صباحاً في اليوم نفسه ، وأحدث الانفجار ضرراً فادحاً في مدينة الجزائر ، وأثار الرعب بين السكان المدنيين .

وهكذا وباستيلاء الفرنسيين على حصن الامبراطور أصبحت مدينة الجزائر تحت رحمة قوات الاحتلال الفرنسي ، حيث انتشرت فيها الفوضى والإشاعات ، وأخذ الناس بمغادرتها ، وانفرط عقد التحالف العسكري الجزائري والسحب باي التيطري مع قواته (٧٢) .

١١ - استسلام الجزائر

أمام هذه الظروف الصعبة أرسل الداوي مبعوثاً إلى قائد الحملة الفرنسية بورمونت يحمل المقترحات التالية :

- ١- أن يتنازل الداوي عن جميع ديونه على فرنسا .
- ٢- يقوم الداوي بتنفيذ كل ما يطلب إليه بخصوص الاعتذار عن حادثة كشاشة الذباب .

٣- يعيد الداى للتجارة الفرنسية كل امتيازاتها السابقة .

٤- يدفع الداى لفرنسا النفقات التي خسرتها على الحملة .

لكن قائد حملة الاحتلال الفرنسي بورمونت رفض مقترحات الداى .
وطلب تسليم المدينة والقلاع ، ثم جاء وفد أعيان الجزائر بزعامة حمدان بن
عثمان خوجة - وهو الذي دبر اجتماع أعيان مدينة الجزائر لإجبار الداى على
الاستسلام - ، وجرت مفاوضات بين مبعوث الداى مصطفى بحضور قنصل
إنكلترا ، وسلم بورمونت شروطه إلى الداى ، التي تتضمن البنود التالية :

١- تسليم جميع قلاع مدينة الجزائر وأبوابها لقوات الحملة الفرنسية في صباح
الخامس من تموز في الساعة العاشرة .

٢- يتعهد بورمونت بأن يبقى على حياة الداى وممتلكاته ، ويؤكد حمايته ما دام
قاطناً بمدينة الجزائر .

٣- السماح للداى بناء على رغبته بمغادرة مدينة الجزائر مع جميع أفراد
أسرته ، وأن يحمل معه ما يملك من ثروة دون المساس بها .

٤- يتعهد بورمونت بإعطاء الامتيازات والحماية لقواد الجيش الجزائري
العثماني من انكشارية وغيرهم .

٥- المحافظة على حرية الدين الإسلامي ، واحترام تقاليد السكان وعاداتهم ،
والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم ، والسماح لهم بحرية ممارسة تجارتهم
وصناعاتهم .

٦- إن مبادلة هذه المعاهدة تكون غداً الساعة العاشرة صباحاً ، ويدخل جنود
حملة الاحتلال إلى قلعة القصبة ويقيمون في قلاع المدينة والشواطئ
البحرية^(٧٣).

جرى توقيع المعاهدة في قصر الرئيس حميدو الواقع في ضاحية الجزائر
في منطقة الأبيار جنوب العاصمة . والملاحظ أن هذه الوثيقة الخطيرة لم تكتب

لا في اللغة الأمازيغية ولا في اللغة العثمانية ، وإنما حررت باللغة العربية .
وهنا لابد من طرح السؤال التالي: لماذا حررت هذه الاتفاقية باللغة العربية ؟
هل اعتراف من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي بأنها اللغة الرسمية في البلاد ؟
أم أن هذه السياسة الإستعمارية هدفت إلى كسب العرب في البلاد إلى جانبهم
لتسهيل بسط سيطرتها عليها ، واتخاذ بعضهم كدليل لكشف المراكز العسكرية
العثمانية في البلاد ؟

على أية حال، وافق الداي على الشروط الفرنسية القاسية لتسليم مدينة
الجزائر، ودخلها الفرنسيون في صباح الخامس من تموز عام ١٨٣٠م ، ولم
يحترموا الشروط التي وقعوا عليها في الحفاظ على المدينة وحرمان المواطنين،
بل على العكس فقد بدؤوا على الفور في نهب كل مايقع تحت أيديهم .
أثار سقوط مدينة الجزائر فرحة عارمة لدى الدول الأوروبية ، وأرسلت
وفود التهنئة إلى فرنسا على ما فعلته من القضاء على مايسمى (عش
القرصنة)، ما عدا بريطانيا التي لم تخف قلقها من سقوط الجزائر ، أما الدولة
العثمانية المنهارة فاكثفت بإرسال احتجاج إفلاطوني على احتلال أول ولاية من
ولاياتها العثمانية ، وكان ذلك غير مطمئن لها ، وهكذا أسدل الستار على فترة
الاحتلال العثماني للجزائر ، والتي دامت من عام ١٥١٨م إلى ١٨٣٠م ، لتبدأ
فترة استعمار جديد وبشكل جديد ، وتركت السلطات العثمانية في الجزائر
واستانبول الشعب الجزائري يلطم جراحه ، ويقوم بتنظيم نفسه للدفاع عن بلاده
واستمرت مقاومته بشقيها العسكري والسياسي من عام ١٨٣٠م ومن اللحظات
الأولى لدخول قوات الاحتلال الفرنسي ؛ حتى نال استقلاله بعد أن قدم مليون
شهيد وذلك عام ١٩٦٢م، لأن الحرية ثمنها غال ولا يحققها إلا أبناءها .

هوامش الفصل السابع

١- راشد , أحمد اسماعيل : تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر , ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب , بيروت ٢٠٠٤م , ص ١٣٣ .

٢- فارس , محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر , جامعة دمشق ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م , ص ٢٩٠ .

٣- الخطيب , أحمد : الثورة الجزائرية , بيروت ١٩٥٨م , ص ٤٠ .

٤- فارس , محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث , بيروت ١٩٦٩م , ص ١٦٢ .

٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ٢٩٠ .

6- Serval , Pierre : La ténébreuse histoire de la prise d'Alger , p. 24 .

٧- يحيى , جلال : المغرب الكبير , العصور الحديثة وهجوم الإستعمار , الجزء الثالث , بيروت ١٩٨١م , ص ٨٥ .

8- Esquer , Gabriel : La prise d'Alger , Paris 1929 , p. 30 .

٩- الجبلاي , عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام (خمسة أجزاء) , الجزء الثالث , بيروت ١٩٨٣م , ص ٣٤٢ .

١٠- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٤٧ .

١١- الجبلاي : المرجع نفسه , ص ٣٤٢ .

12- Julien , Charl André : Histoire de l'Algérie contemporaine , Paris 1964 , p. 21 .

١٣- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٤٨ .

14- Esquer : op, cit., p. 24 .

١٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ٢٩٢ .

16- Esquer : op, cit., p. 25 .

17- Julien : op, cit., p. 23.

١٨- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٥١ .

١٩- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ٣٤٦ .

20- Esquer : op, cit., p. 50.

٢١- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٥٢ .

٢٢- كوران , أرجمنت : السياسة العثمانية تجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر ,

ترجمة عبد الجليل التميمي , تونس ١٩٧٣م , ص ٣٣ .

٢٣- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ٣٤٧ .

٢٤- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٥٤ .

٢٥- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ٣٥٢ .

٢٦- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٥٦ .

٢٧- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ٢٩٣ .

٢٨- الجزائري , أحمد : كيف دخل الفرنسيون إلى الجزائر , بيروت ١٩٦٢م ,
ص ٢١ .

٢٩- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ٢٩٤ .

٣٠- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... , ص ١٥٨ .

٣١- الجيلالي : المرجع نفسه , ص ٣٦٩ .

٣٢- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... , ص ٢٩٥ .

٣٣- سعيدوني , ناصر الدين : النظام المالي في الفترة العثمانية ١٨٠٠-
١٨٣٠ , الجزائر ١٩٧٩م , ص ٦٨ .

34- Julien , Charl André : " La question d'Alger devant des
chambres sous la restauration d'après A.dépt., t.60, 164 ",
R. A. T. 63 , 1922 , p. 428 .

٣٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ٢٩٦ .

٣٦- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ١٦١ .

*- المسألة الشرقية: نشأت هذه المسألة بين الدول الاستعمارية الطامعة في
الدولة العثمانية الضعيفة، وعلى رأسها إنكلترة وفرنسا وروسيا، وبين
السلطنة العثمانية من جهة، وبين هذه الدول ومحمد علي الذي أسس دولة
عصرية في مصر وعمل على توسيعها على حساب الدولة العثمانية،
واحتلت جيوشه بلاد الشام، وهددت عاصمة السلطنة، مما اضطر الباب
العالي إلى توقيع معاهدة كوتاهية معه عام ١٨٣٣م التي اعترف له بها في
حكم بلاد الشام، وذلك خشية من أطماع روسية، التي أشغلت مهاجمة محمد
علي للدولة العثمانية وحاولت الوصول إلى المياه الدافئة.

٣٧- الجيلالي : المرجع نفسه ، ص ٣٧٢ .

٣٨- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ٢٩٩ .

39- Esquer : op, cit., p. 182 .

40- Debu , Bridel Jacques et Benoist Marc : La guerre qui paye
Alger 1830 , Paris 1930 , p. 36 .

٤١- الجيلالي : المرجع نفسه ، ص ٣٧٨ .

٤٢- خوري ، أميل وإسماعيل ، عادل : السياسة الدولية في المشرق العربي من
١٧٨٩-١٩٥٨م ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩٦٠م ، ص ٥٧ .

٤٣- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ١٦٧ .

٤٤- خوري وإسماعيل : المرجع نفسه ، ص ٧٠ .

- ٤٥- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ص ٣٠٥ .
- ٤٦- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ص ١٦٩ .
- ٤٧- المرجع نفسه , ص ١٧٠ .
- ٤٨- عامر , محمود : تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس) .
جامعة دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥م , ص ١٢١ .
- ٤٩- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ص ٣٠٨ .
- 50- Esquer : op, cit., p. 134.
- ٥١- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ص ٣١٠-٣١١ .
- ٥٢- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ص ١٧٣-١٧٤ .
- ٥٣- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ص ٣١٢ .
- ٥٤- خوري وإسماعيل : المرجع نفسه , ص ٧٨ .
- ٥٥- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ص ١٧٥-١٧٦ .
- ٥٦- رافق , عبد الكريم : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م , ط ٢ , دمشق ١٩٩٣م , ص ٤٣١-٤٣٢ .
- 57- Esquer : op, cit., p. 137 .
- ٥٨- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ص ١٧٦ .
- ٥٩- المرجع نفسه , ص ١٧٨ .
- 60- Esquer : op, cit., p. 142.
- ٦١- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ص ٣١٨ .
- ٦٢- ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ,
تونس ١٩٦٣م , ص ١٦٦ .
- ٦٣- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ص ١٨٠-١٨١ .
- 64- Azan , Général Paul : L'expédition d'Alger 1830 , Paris
1930 , p. 56 .

- ٦٥- الملي ، مبارك بن محمد الهلالي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ،
الجزء الثالث ، بيروت ١٩٦٤م ، ص ٣٢٣ .
- ٦٦- أبو القاسم ، سعد الله : أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ، الجزائر ١٩٧٨م ،
ص ١٨٨ .
- ٦٧- عامر : المرجع نفسه ، ص ١٢٣ .
- ٦٨- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ٣٢٧-٣٢٨ .
- ٦٩- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ١٩٢ .
- ٧٠- فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ... ، ص ٣٣٠ .
- 71- Azan : op, cit., p. 78.
- ٧٢- فارس : تاريخ الجزائر الحديث ... ، ص ١٩٧ .
- ٧٣- الجيلالي : المرجع نفسه ، ص ٤٠٤-٤٠٥ .



الملحق

المصطلحات الإدارية والاقتصادية والعسكرية

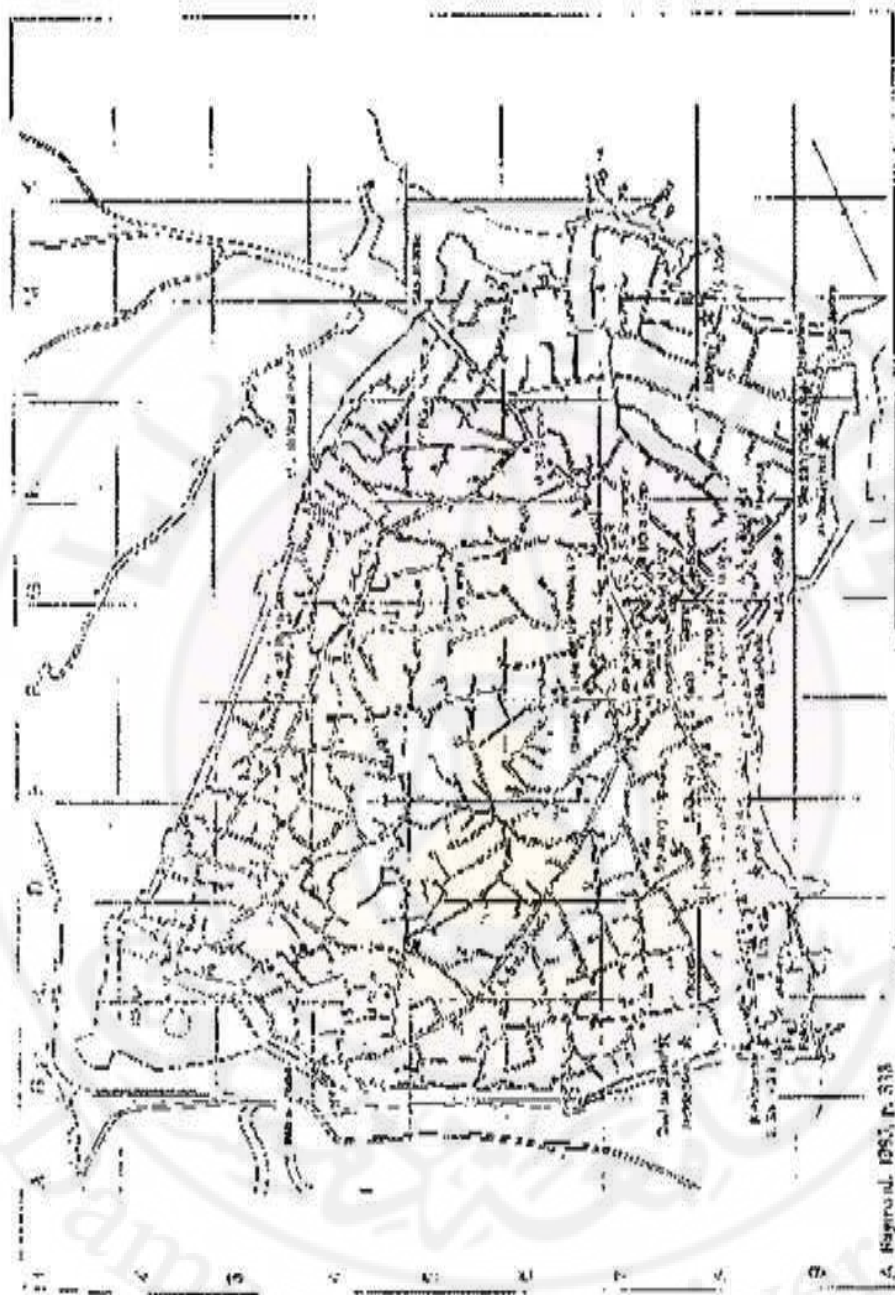
- ١- دار الأمانة : قصر الداي .
- ٢- شيخ البلد : كان مكلف بالإشراف على الشرطة وعملية تحصيل الضرائب .
- ٣- مزوار : المسؤول عن النظام العام في المدينة وخاصة بالليل .
- ٤- ناظر الوقف : مدير الوقف والمشرف عليه .
- ٥- قصر الجنينة : قصر الحكومة حيث كان يزاول حاكم الجزائر عمله ، ويتألف من ثلاث طبقات ، بالإضافة إلى ملحقات بناء كانت تستخدم كمخازن .
- ٦- دار السكة : هي المكان الذي كانت تسك فيه العملة .
- ٧- أمين : المسؤول عن نقابة حرفية .
- ٨- عدل : موثق العقود .
- ٩- القصبة : هي حصن مدينة الجزائر حيث أصبحت مقر حكم إيالة الجزائر بدلاً من قصر الجنينة منذ عام ١٨١٧م ، وذلك في عهد الداي علي خوجة الذي ضرب الانكشارية وانتقل إلى القصبة .
- ١٠- دار سركاخي : منزل آغا الانكشارية ، والكلمة بالترجمة الحرفية تعني دار الخل أو مصنع الخل .
- ١١- الدلوش : نوع من الضرائب يقوم البايات الثلاثة بتقديمه إلى داي الجزائر مرة واحدة كل ثلاث سنوات .
- ١٢- الزمة : نوع من الضرائب الاستثنائية التي يدفعها الأهالي كمساهمة في نفقات الجيش والدفاع عن الوطن في حال تعرضه إلى خطر خارجي .

- ١٣- الغرامة : نوع من الضرائب تدفعها قبائل الرعية وتتميز بالتنوع والنقل .
- ١٤- الضيفة : نوع من الضرائب تقوم القبائل بتقديمها عندما تمر الحملات التركية على أراضيها في فصل الربيع .
- ١٥- ضيفة الباي : نوع من الضرائب يفرضها الداي على القبائل حسب أهمية القبيلة ومحاصيلها .
- ١٦- الجادة : عبارة عن مساحة من الأرض الزراعية تقدر من ٨-١٠ هكتار .
- ١٧- القولوغلية : أبناء الأتراك من أمهات جزائريات .
- ١٨- خوجة الباب : سكرتير رئيسي في قصر الداي .

ملاحظة:

إن أغلب جداول أسعار بعض الحاجيات وبعض نماذج العملات المستخدمة في إيالة الجزائر، وبعض الخرائط أخذت من كتاب: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٧٩٢-١٨٣٠م.





الأسعار (اصول بها)	الحاجات المتداولة
100 كغ = 3 ف . الرجل = 0.1 ف . 100 كغ = 3 ف . 100 كغ = 4 ف . الرجل = 0.5 ف . القفار = 23 ف . سنة 1785 القفار = 6 ف . القفار = 3 ف . 100 حبة = 1.50 ف . 100 حبة = 0.75 ف . 100 حبة = 2 ف . 100 حبة = 0.60 ف .	3 - الفواكه : - التين - التين الأخضر - اللوز - الزبيب - العنب - العنب - التينون الأخضر - التينون الأسود - البرتقال - المشمش - العنب - الخوخ 4 - الخضر : - البصل - البطاطس - الخيار 5 - المواد الأولية القابلة للتصدير : - الصوف - العيوب المحبوطة أو المطاوعة - للتصدير - النجلود - السمح
40 كغ = 40 ف . هكل = 12 ف . 40 كغ = 64 ف . 40 كغ = 165 ف .	

- ANP. P. 80, Notes sur Alger, monnaies, poids, mesures.
- V. DE PARADIS, p. 26.
- LUCAS, p. 10.
- ROUTIN, p. 81.
- Souvenir d'un officier français, p. 36.
- BAUDOUIN, La colonisation, p. 43-45.
- CLAUZEL, p. 143.
- GRAMMONT, (M. D. De), Relations entre la France et le régime d'Alger p. 88.

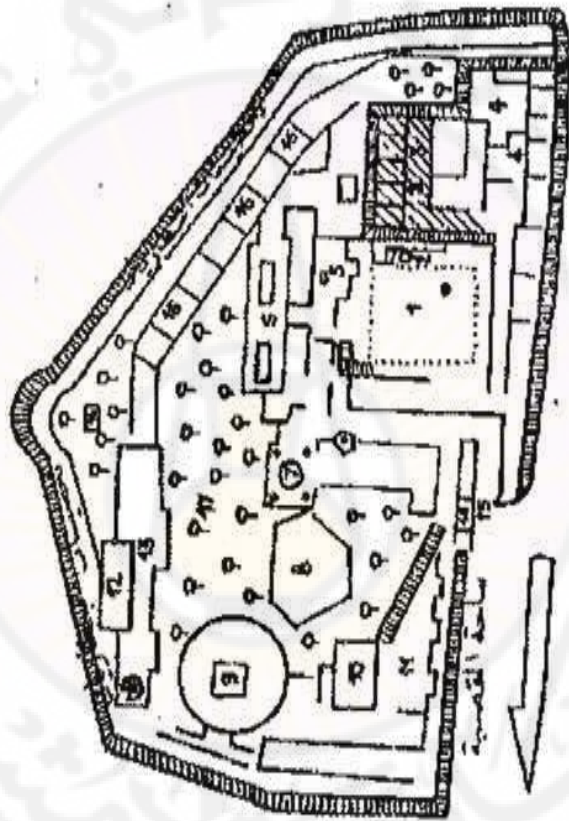
1 - جدول القاييس والتكاييل والموازين

أنواعها	ما يعادلها	استعمالاتها
(1) الأوزان :		
- القيمة اطل	0.207 غ	الاماس
- الثقل	4.669 غ	الذهب
- الرطل النقي	797.435 غ	الفضة والجواهر
- الرطل المطاري	446.080 غ أو	للسلع والبضائع
	506.880 غ	للخضر والفواكه والحبوب
		والخيز
- الرطل الخضاري	614.340 غ أو	مؤدة والشمسور والزيت
	639.453 غ	والصنوف
- الرطل الكبير	921.510 غ	للأوزان الثقيلة وهو يختلف
- القنطار المطاري	54.608 كغ	من مكان لآخر ، فنقطار
- القنطار الخضاري	61.434 كغ	مدينة الجزائر يساوي
- القنطار الكبير	92.151 كغ	130 كغ مرسيلي ،
		وقنطار مدني نسبة مقاربة
		يساوي 120 كغ مرسيلي
(2) التكاييل :		
- المد	0.075 ل	تزييت . تنقسم الى النصف
- القلة	16.66 ل أو	- الربع - الثمن .
- الصاع	17.18 ل	تنقسم الى النصف - الربع
- القفيز أو القيسة	48.80 ل	- الثمن .
	300 كغ	تنقسم الى النصف - الربع
		- الثمن .
(3) الأطوال :		
- الذراع التركي	0.070 م	للأقمشة الحريرية والكتانية
- الذراع العربي		والانسياء المطرزة والموشاة
- الذراع القياسي أو	0.070 م	للأقمشة القطنية والجبالي .
- الذراع التسويقي	0.0633 م أو 0.0640 م	بستعمله اصحاب الدكاكين .



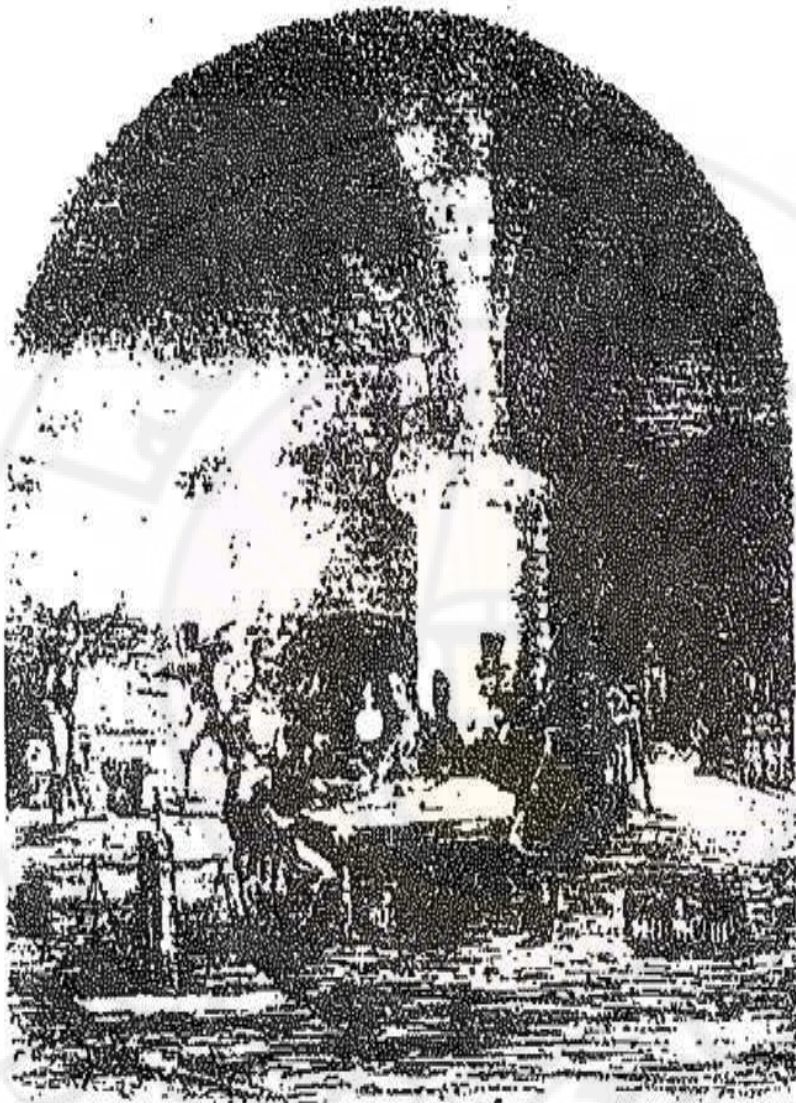


مخطط حصن القصبية = الطابق الأرضي حيث
توجد: الخزانة العامة ومخازن البايالك.



18 مركز حراسة

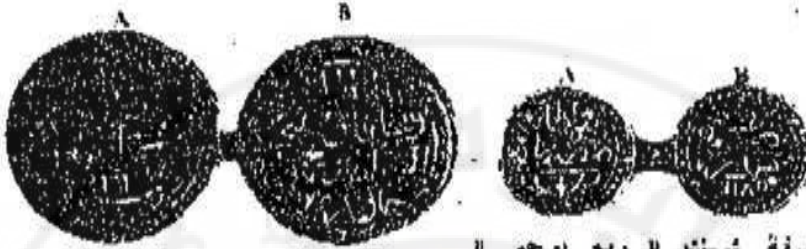
توضيحات	
1 قاعة الديوان	
2 رواق الديوان	
3 الخزانة العامة	
4 مخازن الداي	
5 مطبخ الداي	
6 مخازن ودوازين	
7 مسجد	
8 مستودع البارود	
9 كشك	
10 مساكن الخدم	
11 الاصطبلات	
12 قاعة سلاح رعتاد	
13 مساكن مخصصة لباي وهو راي قسطنطين	
14 عين ماء	
15 مدخل القصبية	
16 سراج حصن	
17 حدائق	



حديقة القصبية

ملحق رقم :

1 - نماذج من العملة الجزائرية المصروية بدار السكة
من 1144 الى 1240 هـ (1731 - 1824)

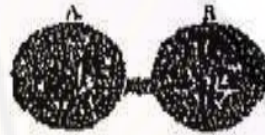


بدقة شيت « دوج بوجو »
النوع القديم « فضة » ضرب
بالجزائر 1185 هـ

ربال بوجو « فضة » ضرب
بالجزائر سنة 1238



زوج دراعم صغار
« اثنين : اسيرشيت »
نحاس ، الجزائر 1237



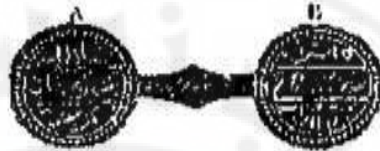
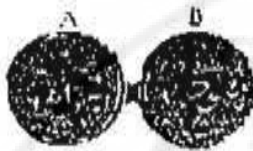
مخروية « نحاس مغلف
بالفضة » مصروية
بالجزائر 1237 هـ



زوج بوجو « دودو في الجزائر »
(فضة) ضرب بالجزائر 1238 هـ

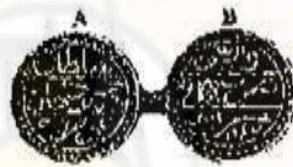
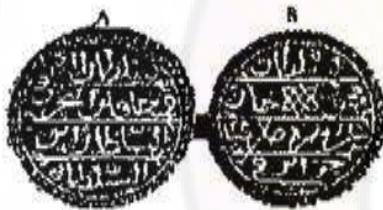
ملحق رقم :

2 - نماذج من العملة الجزائرية المضروبة بدار السكة
1144 - 1240 هـ 1731 - 1824 م



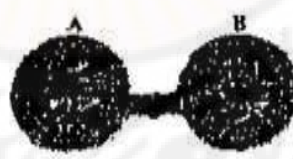
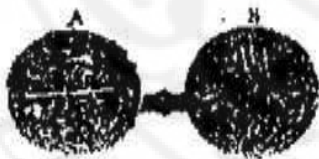
خمس دراهم صفار
ضرب بالجزائر 1137 هـ

نصف سلطاني «النوع القديم»
ذهب، ضرب بالجزائر 1144 هـ



سلطاني «سكة الجزائر»
ذهب، ضرب بالجزائر
1237 هـ

نصف سلطاني أو نصف
سكة ذهب، ضرب
بالجزائر 1147 هـ



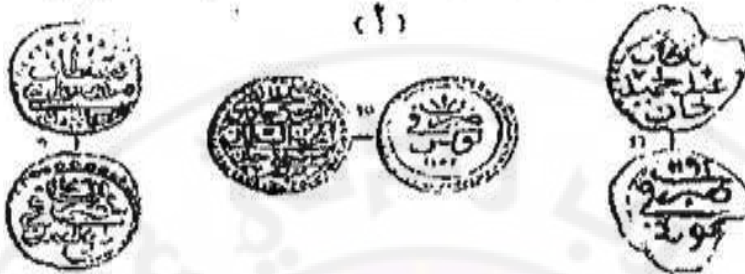
نصف سلطاني «ذهب»
ضرب بالجزائر 1237 هـ

ربع سلطاني «نوع سكة»
ضرب بالجزائر 1240 هـ

منحصر رقم : 13

لوحة تمثل بعض النقود التونسية المستعملة بالإمالة الجزائرية

(أ)



(ب)

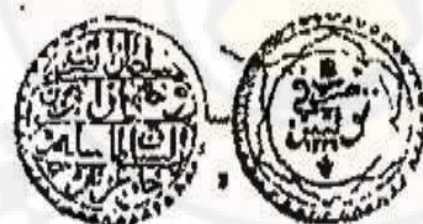
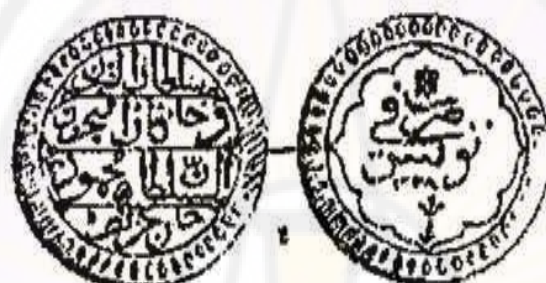
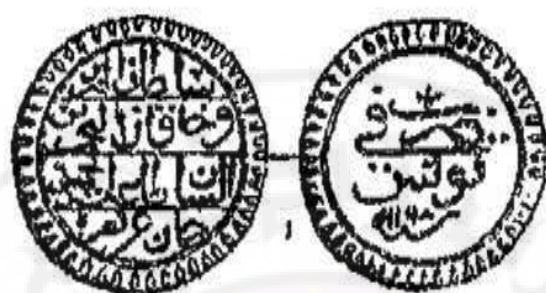


1 - نقود تونسية مشروبة في عهد البايع علي بن حسين « 9 : فلس
« لعاس » باسم السلطان محمد بن : 1186 هـ (106 : « « « « «
بسم السلطان محمد بن : 1181) « « « « باسم السلطان
محمد بن : 1191 هـ .

ب - نقود تونسية مشروبة في عهد محمود باشا (1762 - 1814)
من نوع القروش الفضية ، 1 - باسم السلطان عبد الحميد « 1198 هـ .
2 - باسم السلطان محمود « 1228 هـ . 3 - باسم السلطان سليم
« 1221 هـ . من : « « « « «
Hogun (14) Les Emblèmes des Rois de Tunis, E. Leroux, Paris 1913, p. 19 et 21.



- N° 1. Nasel carré d'argent, date illisible, sultan Ahmad ben Mohamed (2 sultans ont porté ce nom : le 1^{er} de 1601 à 1617, le 2^e de 1734 à 1738).
 N° 2. Hussein, 1^{er} bey husseinite : 1/2 piastre argent, 1140. Sultan Ahmed.
 N° 3. Ali, 2^e bey husseinite : qasr cuivre, 1147.
 N° 4. Ali, 3^e bey husseinite : 1/2 piastre argent. Sultan Mahmoud, 1151.
 N° 5. Ali, 3^e bey husseinite : 1/2 piastre argent. Sultan Mahmoud, 1150.
 N° 6. Ali, 3^e bey husseinite : caennie argent. Sultan Mahmoud, 1167.
 N° 7-8. Ali ben Hussein, 4^e bey : qasr cuivre. Tunis, 1171-1180.
 N° 9. Ali ben Hussein, 4^e bey : fols cuivre. Sultan Mustapha, 1186.
 N° 10. Ali ben Hussein, 4^e bey : sultan or. Sultan Mustapha, 1186.
 N° 11. Ali ben Hussein, 4^e bey : fols cuivre. Sultan Abdouhamid, 1191.



N° 1. Hamouda Pacha. 5^e bey : piastre argent. Sultan Abdulhamid. 1901 - 16 grammes.

N° 2. Hamouda Pacha. 5^e bey : 1/2 piastre argent. Sultan Selim. 1291 - 7 gr. 1/2.

N° 3. Hamouda Pacha. 5^e bey : 1/2 piastre argent. Sultan Selim. 1291 - 7 gr. 1/2.



المصادر والمراجع

١- المصادر والمراجع العربية

أ- محفوظات ماوراء البحار في أرشيف مدينة إكس - آن - بروفانس في فرنسا , وأهم الوثائق المتعلقة بالكتاب هي :

١٥ ميكرو فلم رقم ٢٥

١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٦

١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٨

١٥ ميكرو فيلم رقم ٣٠

١ ميكرو فيلم رقم ٧٠

ب- المصادر

١- ابن أبي الضياف , أحمد : اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان , الجزء الثالث , تونس ١٩٦٣ م .

٢- ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس , تونس ١٩٦٧ م .

٣- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن نوي السلطان الأكبر , بيروت ١٩٨٣ م .

٤- الجزائري , محمد بن ميمون : التحفة المرضية في الدولة البكداشية , مخطوط , جمع وتحقيق محمد بن عبد الكريم , بيروت ١٩٧٣ م .

٥- العنثري , محمد صالح : سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة , مخطوط رقم ٢٣٣٠ بالمكتبة الوطنية بالجزائر .

٦- المبارك , الشيخ الحاج أحمد : تاريخ حاضرة قسنطينة , تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر , الجزائر ١٩٥٢ م .

٧- الناصري , أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى , تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري , الجزء الثامن , الدار البيضاء ١٩٥٦ م .

٨- سحنون الراشدي , أحمد بن محمد بن علي بن : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني , تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي , قسنطينة ١٩٧٣ م .

٩- سيدي خليل : المذهب المالكي , ترجمة دافيد سنثيلا , ميلان ١٩١٩ م .

١٠- هطال التلمساني , أحمد بن : رحلة محمد للكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري , تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم , القاهرة ١٩٦٩ م .

ج- المراجع

١- التر , عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية , الجزء الثاني , ترجمة عبد السلام أدهم , ١٩٦٩ م .

٢- التميمي , عبد الجليل : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ١٨١٦-١٨٧١م , تونس ١٩٧٢ م .

٣- الجزائري , أحمد : كيف دخل الفرنسيون إلى الجزائر وبيروت ١٩٦٢ م .

٤- الجزائري , محمد بن عبد القادر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر , بيروت ١٩٦٤ م .

٥- الجيلالي , عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام , الجزء الثالث , بيروت ١٩٨٣ م .

٦- الخطيب , أحمد : الثورة الجزائرية , بيروت ١٩٥٨ م .

٧- قشهبلي , الأمير مصطفى : محاضرات في الاستعمار , القاهرة ١٩٥٥-١٩٥٦ م .

٨- العقاد , صلاح : المغرب في بداية العصور الحديثة , القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٣ م .

- ٩- العقاد، صلاح: المغرب العربي، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- ١٠- الغربي، الغالي: الانتفاضات الشعبية في الجزائر من منتصف القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق ١٩٨٥ م.
- ١١- المدني، أحمد توفيق: محمد عثمان باشا داي الجزائر ١٧٦٦-١٧٩١ م، و خلاصة مفصلة عن تاريخ الجزائر في العصر التركي، الجزائر ١٩٥٦ م.
- ١٢- المدني، أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢ م، وثائق ودراسات، قسنطينة ١٩٦٨ م.
- ١٣- المدني، أحمد توفيق: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، الجزائر ١٩٧٤ م.
- ١٤- الميلي، مبارك بن محمد الهلالي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثالث، بيروت ١٩٦٤ م.
- ١٥- الميلي، مبارك بن محمد الهلالي والشريط، عبد الله: الجزائر في مرآة التاريخ، قسنطينة ١٩٦٥ م.
- ١٦- الواليش، فتيحة: الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ١٩٩٣-١٩٩٤ م.
- ١٧- جون، وولف: الجزائر وأوروبا، الجزائر ١٩٨٦ م.
- ١٨- حقي، إحسان: الجزائر العربية، بيروت ١٩٦١ م.
- ١٩- خوجة، حسين: ذيل بشار أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تونس ١٩٧٥ م.
- ٢٠- خوري، أميل واسماعيل، عادل: السياسة الدولية في المشرق العربي من ١٧٨٩-١٩٥٨ م، بيروت ١٩٦٠ م.
- ٢١- دوفولكس، البير: الرئيس حميدو، تعريب محمد الزبيري، الجزائر ١٩٧٢ م.
- ٢٢- راشد، أحمد اسماعيل: تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث

والمعاصر ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا ، بيروت
م ٢٠٠٤ .

٢٣- رافق ، عبد الكريم : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ م ، طبعة جديدة
ومنتقة ، دمشق ١٩٩٣ م .

٢٤- سعيدوني ، ناصر الدين : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية
١٧٩٢-١٨٣٠ م ، الجزائر ١٩٧٩ م .

٢٥- سعيدوني ، ناصر الدين : دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية
الفترة الحديثة ، بيروت ٢٠٠١ م .

٢٦- سعيدوني ، ناصر الدين : الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) ،
الجزائر بدون تاريخ .

٢٧- صبحي ، حسن : محاضرات في تاريخ إفريقيا الشمالية الحديث
والمعاصر ، الاسكندرية ١٩٧٥ م .

٢٨- عامر ، محمود : تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس) ،
منشورات جامعة دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥ م .

٢٩- عبد القادر ، نور الدين : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم
عصورها إلى إنتهاء العهد التركي ، قسنطينة ١٩٦٥ م .

٣٠- غزوات خير الدين : تصحيح نور الدين عبد القادر ، تونس ١٩٣٤ م .

٣١- فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني حتى
الاحتلال الفرنسي ، بيروت ١٩٦٩ م .

٣٢- فارس ، محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، منشورات
جامعة دمشق ٢٠٠٢-٢٠٠٣ م .

٣٣- فريد ، محمد : تاريخ الدولة العلية ، مصر ١٨٩٦ م .

٣٤- فنان ، جمال : قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ،
الجزائر ١٩٩٤ م .

- ٣٥- كوران ، أرجمنت : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ،
ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس ١٩٧٠ م .
- ٣٦- لمير ، عقيل : المؤسسات الخيرية في مدينة الجزائر في القرن الثامن
عشر، دراسة مقارنة للوقف ، الترجمة العربية ، دمشق ٢٠٠٣ م .
- ٣٧- يحيى ، جلال : العالم العربي الحديث ، المدخل مجموعة المكتبة الوطنية،
القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٣٨- يحيى ، جلال : المغرب الكبير العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ،
الجزء الثالث ، بيروت ١٩٨١ م .



٣- المصادر والمراجع الأجنبية

- 1- Abelly , L., : La vie de Saint Vincent de Paul, Paris 1891 .
- 2- AlBertini , E., et Marçais G., : L'Afrique du Nord français dans l'histoire , édition Archat , Paris 1937 .
- 3- Azan , P., : L'expédition d'Alger , Paris 1930 .
- 4- Aucapitaine , B. H., : Etudes sur la caravane de la Mecque et du commerce de l'intérieur d'Afrique , Paris sans date .
- 5- Aumerat , J. F., : La propriété urbaine et le bureau de bienfaisance musulmans d'Alger , A. jourdan , Alger 1900 .
- 6- Barno , P., de Berthzène m Dix – huit mois à Alger , Montpellier 1834.
- 7- Berenugger , A., : D'un mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 jusqu'en 1819 , inexploitation sientifique de l'Algérie , imprimerie royale , Paris 1847 .
- 8- Bernard , A., : L'Algérie , Paris 1930 .
- 9- Boutin : Reconnaissaince de villes forts et batteries d'Alger , Paris 1927 .
- 10- Boyer , Pierre : La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française , Paris 1963 .
- 11- Boyer , Pierre : L'évolution de l'Algérie médiane de 1830-1956 , Paris 1960 .
- 12- Braudel , Fernand : La méditerranée et le monde méditerranéen à

l'époque de Philippe , Paris 1949 .

- 13- Bridel , J., et Benoist , M., : La guerre qui paye Alger , Paris 1930 .
- 14- Busson de Janssens , J., : Contribution à l'étude des habous publics algérien , thèse de doctorat , Alger 1950 .
- 15- Carette , E., : Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et Etats barbaresques , Guyot , Paris 1844 .
- 16- Chouraqui , A., : Marche vers l'occident , les juifs d'Afrique du Nord , Paris 1952 .
- 17- Cour , A., : L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur révalité avec les turcs de la régence d'Alger 1509-1830 , édition Leroux , Paris 1904 .
- 18- Dan , Pierre : Histoire de la barbarie et de ses corsaires , des royaumes et des villes d'Alger , de Tunis , de Salé et de Tripoli , seconde édition , P. rocdet , Paris 1637 .
- 19- Dapper , D.O M.D., : Description de l'Afrique Wolfgang Amsterdam 1686 .
- 20- Delphin , G., : Histoire des Pachas d'Alger de 1515-1745 , journal Asiatique série 19 , Paris 1922 .
- 21- Devoulx , Albert : Le raïs Hamidou , A . jourdan , Alger 1859 .
- 22- Devoulx , Albert : Notice sur les corporations religieuses d'Alger , Alger 1912 .
- 23- Esquer , G., : La prise d'Alger , Paris 1929 .
- 24- Esterhazy , Walsin : Domination turque dans l'ancienne régence

d'Alger , Paris 1840 .

25- Feraud , F., : Notice historique sur la tribu des Oulad-Abd-aNour ,
Constantine 1864 .

26- Garrot , Henri : Histoire générale de l'Algérie , Alger 1910 .

27- Grammont , H- D., : Histoire d'Alger sous la domination turque
1515-1830 , Paris 1887 .

28- Grammont , H-D., : Relation de l'expédition de Charles Quint contre
Alger

29- Haëdo , Fray Diègo de : Les Rois d'Alger , Tunis 1968 .

30- Juchereau , S .D., : Considération statistiques , historiques , militaires
et politiques sur la régence d'Alger , Paris 1831 .

31- Julien , Charles André : Histoire d'Afrique du Nord , Tom 2, Paris
1952 .

32- Julien , Charles André : Histoire de l'Algérie contemporaine, la
conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871 , Paris 1964 .

33- Khoja , Hamdan ben Utuman : Aperçu historique et statistique sur la
régence d'Alger , intitulé en arabe le miroir , T.1 , Paris 1833 .

34- L'Abbé G., : Histoire philosophique et politique des établissements et
du commerce des européens dans l'Afrique septentrionale , Tome II ,
Paris 1926 .

35- Lauger de Tassy : Histoire d'Alger et du bombardement de cette ville
en 1816 , Paris 1830 .

36- Lespes , R., : Alger , Esquisse de géographie urbaine 2èm édition ,

Paris 1830 .

- 37- Marçais , G. : Les villes de la coté algérienne et la piraterie au moyen âge , Paris 1955 .
- 38- Marcel , C. : L'Algérie turque , Paris 1957 .
- 39- Marchika , J. : La peste en Afrique du Nord 1363-1830 , Alger 1927.
- 40- Marsiol , E. : La régence , Vue par un Allemand à la fin du XVIIIe siècle , Paris 1930 .
- 41- Martin , M. : La vie et la condition des esclaves chrétiens dans la régence d'Alger , A. Jourdan , Alger 1900 .
- 42- Martin , Claude : Histoire de l'Algérie Française , Paris 1963.
- 43- Maura , G. : La question du Maroc au point du vue espagnole , Paris 1911 .
- 44- Maecier , E. : Histoire de L'Afrique septentrionale (barbarie) depuis les temps les plus reculées jusqu'à la conquête française 1830 , Tome III , Paris 1891 .
- 45- Nettement , A. : Histoire de la conquête d'Alger , Paris 1856 .
- 46- Panzac , D. : La peste dans l'empire ottoman 1700-1850 , Luven 1985 .
- 47- Prax , M. : Algérie , commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan , Paris 1849 .
- 48- Pétis de la Croix : Un mémoire sur Alger , Paris 1695 .
- 49- Peyssonnel , J. A. , et des Fontaine : Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger , publié par M. Dureau de la Malle , Paris 1838 .

- 50- Peyssonnel , J. A. , : Voyage dans les régence de Tunis et de Alger ,
Paris 1987 .
- 51- Rang , Sander et Ferdinand , Denis : Fondation de la régence d'Alger
, Histoire des barberousse , Tome I , Paris 1837 .
- 52- Raymon , André : Grandes villes arabes à l'époque ottomane , Paris
1985 .
- 53- Renandot , M. , : Tableau du royaume de la ville d'Alger et de ses
environs , Paris 1830 .
- 54- Roux , Charles : France et l'Afrique du Nord avant 1830 , les
précurseur de la conquête , Félix -alcan , Paris 1932 .
- 55- Rozet , M. , : Voyage dans la régence d'Alger ; ou description des
pays occupé par l'armée française en Afrique , 3 tomes , Paris 1833 .
- 56- Saidouni , Naser al- din : La vie rurale aux environs d'Alger à la fin
de l'époque ottomane 1791-1830 , thèse de doctorat à Aix -en -
Provence , France 1987-1988 .
- 57- Serres , J. , : La politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie
de juillet , Paris 1925 .
- 58- Serval , Pierre : La ténébreuse histoire de la prise d'Alger , Paris sans
date .
- 59- Shaler , W. , : Esquisse de l'Etat d'Alger , traduit de l'anglais par
Maccarthy , Paris 1830 .
- 60- Shaw , le docteur : Voyage dans la régence d'Alger , édition
Bousslama , Tunis sans date .

- 61- Shaw , Thomas : Travels or observation relation to several parts of Barbary and the levant , Oxford 1738 .
- 62- Shaw , W. A. , : Histoire de la monnaie 1252-1894 , traduit de l'anglais par M. Raffalovich Guillaumin et cie , Paris 1896 .
- 63- Shuval, Tal : La ville d'alger à la fin du XVIIIe siècle : population et cadre urbain , thèse de doctorat à Aix-en- provence , France 1994 .
- 64- Tachriffat : Recueil de notice historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger , publié par Devoux , Alger 1868 .
- 65- Temimi , A. , : Recherches et documents d'histoire maghrébine , la Tunisie , l'Algérie et la Tripolitaine de 1816- 1871 , Tunis 1971 .
- 66- Weissman , N. , : Les Janissaires , thèse de doctorat , Paris 1964 .

٣- المقالات العربية

- ١- بلحميسي ، مولاي : " غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر (١٥٤٩م - ١٩٤٨) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، كلية الآداب - جامعة الجزائر ، العددان ٦-٧ تموز ١٩٦٩م .
- ٢- سعيدوني ، ناصر الدين : " الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني " ، المجلة التاريخية المغربية ، العددان ٣٩-٤٠ ، تونس ١٩٨٥م .
- ٣- غطاس ، عائشة : " الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني . مجلة الثقافة التي تصدرها وزارة الثقافة الجزائرية ، السنة الثالثة عشرة ، العدد ٧٦ .



٤- المقالات الأجنبية

- 1- Amine, Mohamed : " Condition et mouvement des échanges de la régence ottomane d'Alger ", in revue d'histoire maghrébine numéro 74 , mais – Zaghouen ; Tunis 1994 .
- 2- Ben Jaghloul : " La prise d'Alger en 1830 d'après un écrivain musulman d'Afrique , in R.P.C., 1865 .
- 3- Boyer , Pierre : " Contribution à l'étude de la politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger XIV-XIX siècle " , in R.O. M. M., n° 1 , 1934 .
- 4- Boyer , Pierre : " Des Pachas triennaux à la révolution d'Ali khodja dey (1571-1817) " , Revue d'histoire , n° 495 , sans date .
- 5- Boyer , Pierre : " Les renégats et la marine de la régence d'Alger " , R.O.M.M., 1985 .
- 6- Boyer , Pierre : " Le problème Koulougli dans la régence d'Alger , R.O.M.M., numéro spécial, 1970 .
- 7- Colob , M., : " Contribution à l'étude de recrutement de l'odjag d'Alger " , revue africaine , T. 87 , 1923 .
- 8- Deny , J., : " Les regestres de soldes de Janissaires conservés à la B.N.A " , revue africaine , n° 21 , 1920 .
- 9- Devoulx , Albert : " Les édifices religieux de l'ancien Alger " revue africaine , 1867 .
- 10- Eisenbeth , M., : " Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque

turque (1516-1830) , revue africaine , 1952 .

- 11- Emerit , E., : " La situation économique de la régence d'Alger en 1830 " , I.H , 14e année , n° 2 , 1952 .
- 12- Emerit , E., : " L'état intellectuel et morale de l'Algérie en 1830 , in revue d'histoire moderne et contemporaine " , Paris 1954 .
- 13- Emerit , E., : " Le voyage de la condamine à Alger 1731 " , revue africaine , 1934 .
- 14- Fontenay , M., et Tenenti , A., : " Cours et piraterie méditerranéen de la fin du XVIIIe et au début du XIXe siècle " , dans la commission international d'histoire maritime , cours et piraterie , Paris 1975 .
- 15- Galissot , R., : " Essais de la définition du mode de production de l'Algérie précolonial " , revue africaine , n° 2 , 1968 .
- 16- Guyon , M., : " Sur la peste d'Alger 1817-1818 " , in moniteur algérien , n° 109 9 (février -mars) , 1834 .
- 17- Haëdo , Diègo de : " Topographie et histoire générale d'Alger " , in revue africaine , n° 14 , 1870 .
- 18- Julien , Charles André : " La question d'Alger devant des chambres sous la restauration " , t. 60 , article n° 164 , revue africaine 1922 .
- 19- Khiari , Férid : " Une communauté resurgente : Les Andalous en Alger 1570 à 1670 " , revue d'histoire maghrébine , 1993 .
- 20- Lutfil , O., : " Problème foncier dans l'empire ottoman " , in

A.H.S., T.XI, n° juin 1939 .

- 21- Magaly , Morsy : " Le trempement de terre de 1755 d'après les témoignage d'époque , revue l'espérance , Tamuda , volume XVI , Maroc 1975 .
- 22- Ravent , E., : " Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger " , revue africaine, n° 3-4 , 1939 .
- 23- Robin , N., : " Note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande kabylie " , revue africaine , n° 17 , 1873 .
- 24- Vayassette , E., : " Histoire des derniers Beys de constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Haj Ahmad , revue africaine , n° 3-4 , 1858 .

❖ اللجنة العلمية:

أ. د. محمود عامر

أ. د. سمر بهلوان

أ. د. محمد حبيب صالح

❖ المدقق النقوي:

أ. د. ماجد أبو ماضي

حقوق الطبع والترجمة والنشر

محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات